

الزيرباشا ودوره في السودان في عصر الحكم المصري

د. عز الدين إسماعيل

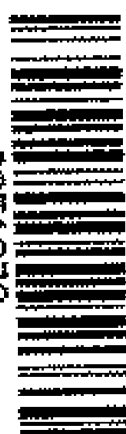


المكتبة العامة
القاهرة - الجيزة



Bibliotheca Alexandrina

2051970



● تاريخ المصريين

رئيس مجلس إدارة:

د. سمير سرهان

رئيس التحرير:

د. عيد العظیم رمضان

مدير التحرير:

محمود الجزار

تصدر من

الهيئة المصرية العامة للكتاب



النزير باشا ودوره في السودان في عصر الحكم المصري

د. عز الدين إسماعيل



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة
١٩٩٨

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب عن « الزبير باشا ودوره في السودان في عصر الحكم المصري » ، للدكتور عز الدين اسماعيل ، وهو في الأصل رسالة علمية حصل بها صاحبها على درجة الماجستير . وبالتالي تتوافر فيه الشروط العلمية التي تجعل منه دراسة تاريخية جديرة بالقراءة .

وهو ينقسم إلى خمسة فصول قدم لها الدكتور عز الدين اسماعيل مقدمة تحدث فيها عن الزبير باشا والأصول الأولى لأسرته حتى مولده في عام ١٨٢١ عندما كان السودان خاضعا للحكم المصري .

وفي الفصل الأول ، وهو بعنوان ! « بداية ظهور الزبير رحمه في السودان » ، تحدث عن عمله بالتجارة ، وذهابه إلى بلاد النيام (النمام) ، ومقابلته للملك كريم ، ونزاعاته مع ملوك البلاد التي زارها . أما الفصل الثاني ، فقد تحدث فيه عن الدور الذي لعبه الزبير باشا في بحر الغزال وبلاد شكا ، وتعرض لموقف حكومة مصر من تجارة الرقيق في السودان ، وتعيين غوردون حاكما لجنوم السودان ، والتفكير في ضم بحر الغزال ، وحملة محمد البلالي لاختضاع إقليم بحر الغزال . كما تعرض للصراع بين الزبير ومحمد البلالي حتى قتله في سنة ١٨٦٩ ، واستتباب السيطرة له على بحر الغزال ، وقيامه بتنظيم أمور مديرية بحر الغزال ، ودور الزبير في فتح شكا وتأييد حرب الرزيقات . كما تعرض لتعيين الزبير حاكما على بحر الغزال وشكا في عام ١٨٧٢ .

أما الفصل الثالث ، فقد تعرض فيه للدور الذي لعبه الزبير في فتح دارفور ، والأسباب التي أدت لغزو سلطنة دارفور ، وأسباب النزاع الذي نشأ بين الزبير والسلطان إبراهيم ، وشكوى سلطان دارفور للخديو عن حركات الزبير وحكمदार السودان ، وتعرض للمعاركة الحربية بين الزبير والأمير حسب الله ، وهزيمته لجيش الأمير حسب الله . كما تعرض لحملة الشرق بقيادة الحكمدار إسماعيل باشا أيوب ، وموقعة منوالشي ، ودخول العاصمة الفاشر . وعقد موازنة بين دور جيش الزبير ودور حملة الشرق في فتح دارفور . كما تعرض للخلاف بين الحكمدار والزبير ، ووقوع الزبير في خطأ الذهاب إلى القاهرة لعرض الخلاف بينه وبين الحكمدار ، حيث قضى بقية حياته كضيف شرف لدى الخديو ! .

أما الفصل الرابع ، فهو بعنوان « الزبير - جوردون » ، وقد تحدث فيه عن الدور الذي لعبه الزبير في الحزب الروسية التركية ، وثورة سليمان الزبير ومقتله ، والأهداف التي أعقبت مقتل سليمان ابن الزبير ، ورفض الزبير الاشتراك في حملة سواكن . كما تعرض لحوادث إخلاء السودان ، واجتماع الزبير وجوردون في القاهرة ، واقتراح جوردون إعادة استخدام الزبير في السودان ، وفشل هذه الفكرة ، وما ترتب على فشلها من نتائج . وانتهى بنفى الزبير إلى جبل طارق سنة ١٨٨٥ .

وقد اختتم الباحث دراسته بفصل خامس تناول فيه الزبير باشا وصحته في نهاية حياته .

والكتاب على هذا النحو يعد دراسة ممتعة لصفحة من صفحات الحكم المصري في السودان جديرة بالقراءة .

والله الموفق . .

رئيس التحرير

د. هيد العليم رمضان

الزبير باشا

المقدمة :

أهملت المصادر التاريخية حلقة مهمة في سلسلة تاريخ أسرة الزبير ، فلم يذكر المؤرخون شيئاً من أصولها الأولى ، أو موطنها الأصلي . بل كان القموض هو الواجهة التي أحاطت بأصولها الأولى . وقد يكون هناك من الأسباب ما جعل المصادر التاريخية تهمل تاريخ هذه الأسرة . وهي على وجه التقريب عدم استطاعة مؤرخي العصر آنذاك التنبؤ بما سوف يكون عليه بعض أبناء هذه الأسرة من شأن في المستقبل . وقد تناول بعض المؤرخين الفترة التي عاشتها هذه الأسرة أيام الاضطرابات التي حدثت بالعراق على أيدي المغول وخاصة في بغداد وهذه المعلومات لا تفي بالقرص المطلوب لتغطية تاريخ هذه الأسرة وحتى هذا الوقت يمكن القول بأن تاريخ أسرة الزبير مازال ينقص حلقات كثيرة .

نبعد أن فادر هولاكوا(١) حفيد جنكيزخان بلاد المغول في سنة ١٢٥٢ م على رأس جيش جرار بقصد القضاء على طائفة الحشاشين(٢) ، وعلى الخلافة في بغداد مما ، وهي الحملة الثانية

من حملات المغول ، أرسل هولاكو الى الخليفة العباسي المستعصم بالله (١٢٤٢ - ١٢٠٨ م) (٢) يدعو للمساعدة معه في الحملة على الحشاشين وهي طائفة من فرقة الاسماعيلية ، فلم يلب الخليفة دعوته . وفي سنة ١٢٥٦ م تم للمغول احتلال عدد كبير من قلاع الحشاشين ، فتقوضت بذلك اركان هذه الفرقة من اساسها ، وبينما كان هولاكو يعبر المضيق الشهير على طريق خراسان ، وفي سبتمبر من السنة التالية ارسل انذارا الى الخليفة يطلب منه التسليم وهدم سور بغداد الخارجي ، فمرد عليه الخليفة ردا مراوغا . ولم ينتظر هولاكو بعد ذلك بل هاجم اسوار بغداد في شهر يناير سنة ١٢٥٨ م ، واعمل فيها المنجنيق ، ففتح ثغرة فيها ولم يشمر الناس ببغداد الا ورايات المغول ظاعرة على سورها الداخلي من احد الابراج . وخرج الوزير ابن العلقمي للمفاوضة على الصلح ، الا ان هولاكو رفض مقابله ولم يلتفت الى قول من كان يزعم « ان الحنف نصيب من يجرؤ على قهر مدينة السلام ببغداد او النيل من خلافة آل عباس » ، فام يعبأ بشيء من هذا واستمع الى نصيحة منجيه . وفي العاشر من شهر فبراير اقتحمت عساكره المدينة ، فخرج الخليفة في ثلاثمائة من خاصته وقضاته خاضعين مسلمين دون قيد او شرط ، وبعد ذلك بعشسرة ايام امر هولاكو بقتلهم جميعا .

اخذ الفاتحون بعد ذلك في القيلام بالمزيد من المذابح بين اهل بغداد حتى قتلوا على اكثر سكانها ، ولم تستثن اسرة الخليفة نفسه من هذه المذبحة ، ولاول مرة في تاريخ الاسلام اضحى العالم الاسلامي دون خليفة يدعى له على المنابر في صلاة الجمعة .

تقدم هولاكو الى شمال سوريا في سنة ١٢٦٠ م ، ففتح حلب ، وقتل بخمسين ألفا من سكانها ثم دخل حماة واتم الجيش الذي تركه في الشام فتح اكثر البلاد السورية (٤) ، واعلن امراء سورية الصغار خضوعهم لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة ، اما المماليك في مصر ،

مكثوا أول من وقف في وجه هؤلاء الغزاة وقفة موفقة . وكان المغول قد طلبوا اليهم الاستسلام ، فرد عليهم المماليك بهجوم شنوه على فلسطين ، وانزل المماليك بالمغول هزيمة حاسمة عند عين جالوت في ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م ، واستطاع المماليك والسلطان بيبرس خاصة تخليص سورية برمتها شيئا فشيئا من أيدي هولاكو وخلفائه . وكان الانحلال قد أصاب قوة المغول ، فلم يكن في وسعهم تدارك الهزيمة التي وقعت لهم على يد المماليك (٥) .

كانت تلك الفاجعة التي أصابت الخلافة الإسلامية ببغداد على أيدي المغول من المواقف العصبية المثيرة التي لفتت أنظار المسلمين كافة ، وأثارت فيهم روح الانتقام لما أصاب خلافتهم .

وفي وسط هذه الأحداث الجسام قدر لعبد غير قليل من المسلمين من أهل العراق الفرار طلبا للنجاة بحياتهم وقلوبهم من المفجعة المروعة التي تمت في بغداد على يد هولاكو القوي ، وكان من بين هؤلاء الفارين الشيخ جموع بن غانم الجد الأكبر لأسرة الزبير ، الذي استطاع أن يفقدى حياته بكل ثروته ، وكانت تزيد على مائة ألف دينار ثم لم يلبث أن خرج بنفسه وأولاده وحاشيته قبل أن ينكث المغول بعهدهم له تاركاً وراءه بغداد المحترقة ، وولى وجهه شطر الشام فراراً من المغول ، ومن الشام مضت قافلة الشيخ جموع بن غانم نحو مصر . وفي مصر حاول الشيخ أن يستعيد ماضيه ، فالتقى بن الصعاب ما يضسيف إلى شيخوخته وإلى الأهوال التي لقيها في الطريق عبثاً ثقيل لا يلبث أن يسرع به إلى القبر ، يرث الابن وكان يدعى جميعاً تركه أبيه المقتلة بالأهوال ويزيد عليها ما كانت تعانيه مصر في تلك الآونة من اضطرابات وغتن ، عقب تولى الملك المعز الحكم بعد اقضاء شجرة الدر (٦) عنه ، وما صاحب ذلك من صعوبة العيش وقسوة الحياة ، فلا يلبث الابن أن ينحدر مع أهله وعشيرته ومن أثر الانضمام إليه مع النيل نحو الجنوب (٧) .

استقر أفراد عائلة الشيخ جميع على جانبي النيل الأبيض
بينما شق الآخرون طريقهم إلى دارفور ، واقيم واداي (٨) ، وبين
كثير من الأسر والمشائر التي انتشرت على طول وادي النيل ،
والتي كان بعضها ينحدر من سلالة القبيلة المعروفة بالجميعاب ،
التي ترجع أصولها الأولى للجد الأكبر جميع كما سبق الذكر ،
هؤلاء الناس وضعوا رحالهم واستقروا على النيل بين جبل جيري
وجبل الشيخ الطيب (٩) وأصبحوا مشهورين في أرجاء السودان ،
وذلك بسبب شجاعتهم وإخلاصهم للروحى (١٠) .

لم يكن السودان منطقة مغلقة عبر مصور التاريخ أمام هجرة
القبائل العربية أو غيرها سواء عن طريق شبه جزيرة العرب من
ناحية الشرق ، أو عن طريق مصر من جهة الشمال ، بل كانت
المصب الذي تحط فيه تلك القبائل المهاجرة رحالها سواء في شمال
الوادي أو في جنوبيه . وينطبق هذا على قبيلة الجميعاب كما ينطبق
على بقية القبائل . وقد وجدت قبيلة الجميعات في بيئة السودان
الجديدة ، ما ذكرها بمواطنها الأولى الأصلية ، بل وجدت في
مراعيها ما لم تجده في مصر من مراعى كافية . وكان في انبساط
سهول السودان ، فضلا عن انتشار الدعوة الإسلامية بها ،
وتسامح الإسلام ، مما ساعد على استقرارها واستقرار هذه
القبائل (١١) . هذا بالإضافة إلى ما لقيته بعض القبائل من الاضطهاد
في مصر إبان العصور السياسية ذات المذاهب الدينية المختلفة ،
التي تنازعتها منذ الفتح العربى لها مع اتصال أسباب التجارة بين
السودان وما جاوره من الممالك العربية ، وما ينجم عن هذا
الاتصال من الألفة والمودة التي قد تبلغ حد المصاهرة والاقامة
والاستقرار في هذه الربوع (١٢) .

وللحديث عن تاريخ أسرة الزبير منذ مقدمها إلى السودان
حتى مولد الزبير لابد أن نتناول الأصول التي انفصلت عنها هذه

الأسرة ، فالأصل هي قبيلة الجميعاب ، وما يلفت النظر أن
 في السودان خمس قبائل على الأقل ، اشتقت أسماؤها من الاسم
 الأصلي جميع الذي يعنى بالانجليزية — Gather or collect —
 وهي التي تدعى الانتساب الى المجموعة الجعلية . وهذه الأسماء
 هي الجوامعة (المفرد جميع) ، الجمعة ، الجموعية ، الجماعات ،
 الجميعاب . والصلة التي تجمع بين هذه القبائل الثلاث الأخيرة
 تمثل في أنهم ينحدرون من أشقاء ثلاثة . أما الأقليم الذين كانوا
 يحتلونه حينئذ فهو بالفعل الإقليم الذي يمتلكونه في الوقت الحاضر ،
 ويمتد على الشاطئ الغربي للبحر الأبيض بمسافة من ٣٠ الى ٤٠
 ميلا جنوبى أم درمان (١٣) — Omdurman ، ولأبعد من جوز نفسه
 — Goz Nefisa بالقرب من خانق سيلوكة — Shabluka ،
 وكذا أراضي جنوب كررى — Kerri على الضفة الشرقية
 للنيل . وكان لهذه القبائل دائما الفسوز والغلبة . أما قبيلة
 الجميعاب — Gimiab ، فهي تنحدر من المجموعة الجعلية
 بالسودان كما ذكرنا والجميعاب نصف رجل وينقسمون الى :

(١) شاهيناب — Shahinab ومنها جماعة نامابات —
 Naamabets .

(ب) جوداب — Godab

(ج) شيراب — Shibrab

والى جماعة النامابات ينقسم الزبير رحمة (١٤) .

وقبيلة الجميعاب من أشهر قبائل العرب في السودان على
 النيل الأبيض ، ويسكنون بين عقبة القرى والشيخ الطيب (١٥) .

وقد عرفت بقبيلة الجميعاب نسبة الى جميع أما نسبة الزبير
 فهو الزبير بن رحمة بن على بن سليمان بن ناعم بن سليمان بن بكر

ابن شاهين بن جميع بن جموع بن غانم العباسي ، التي قسدر للزبير أن ينحدر من أصلابها . وهناك شيخان اشتهرت بهما هذه القبيلة من بين القبائل كلها وهي الشجاعة وحماية الثمار ، ثم المسارعة الى الترحيب بالحكم المصري عندما دخل السودان اسماعيل باشا نجل محمد علي باشا سنة ١٨٢١ م فانها ، فاستقبله اعيانها بالترحاب ، وعاهدوه على الولاء ، وكان من بينهم الشيخ رحمة والد الزبير ، واخوه حفظوا العهد ، وقتلوا هلى صيائنه الى أن وافاهم الاجل ، وحفظ الولاء لهم من بعدهم الزبير (١٦) .

جاء مولد هذا الزعيم السوداني في فترة كان فيها السودان خاضعا للحكم المصري في عهد محمد علي الذي كان قد قام بفتح هذه البلاد سنة ١٨٢١ م ، وكان من طبيعة هذا الفتح أن أضفى على الجزء الذي تم فتحه من السودان بعض الهدوء والاستقرار .

وفي صبيحة السابع عشر من شهر محرم سنة ١٢٤٦ هـ الموافق الثامن من يوليو سنة ١٨٣١ م في جزيرة واوasi الهائلة الخضراء ، التي تقع على أربعين ميلا شمالي الخرطوم ، ولد الزبير رحمة . وفي هذا اليوم جلس والده رحمة بن منصور يستقبل الاهل والاصدقاء الذين حضروا لتهنئته بمولد ابنه الزبير .

وفي ربوع هذه الجزيرة قضى الزبير سننى طفولته المبكرة في اللهو البريء ، والانطلاق الحر الذي لم يكن يقيدده غير صوت أمه وهي تعقب عليه كلما عاد الى منزلهم الواسع متعبا من العدو واللعب مع رفاقه من الصبية ، فيجاوبها عندئذ صوت أبيه الهادئ ، وهو يقف في صف ابنه مدافعا عنه أمام صوت أمه المعاتب رافعا يديه الى السماء يستجديها من أجل ابنه مستقبلا حافلا سعيدا .

وقد تأثرت نشأته وطفولته المبكرة الى حد كبير بالبيئة التي ولد فيها ، وبالرفاق الذين اختلفوا به ، وبساحة والده وحرصه الشديد على حياته ، وخاصة والدته .

وقد بدأ الزبير ، ياتيه العلمية بعد أن بلغ السابعة من عمره ،
أرسله والده الى مدرسة الخرطوم لتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ
لقرآن الكريم ، فأتى ذلك . وفى المدرسة تعلم الكثير (١٧) وكان
حفظه للقرآن على رواية أبى عمرو البصرى ، وتفقه على مذهب
الامام مالك (١٨) الذى لقى افشارا واسما فى القارة الافريقية .

وبهذا القدر القليل من الدراسة اختتم الزبير حياته الدراسية ،
وبدا والده يوجهه لتعلم المهارات الشائعة فى عصره ، التى كان
لا بد منها لكل من شب عن الطوق ، حتى يستطيع مواجهة ظروف
البيئة التى يعيش فيها ، وكانت أول هذه المهارات هو تدريبه على
ركوب الخيل وكافة ألعاب الفروسية ، وقد حذى كل ذلك واتقنه ،
حتى صار له فيها شأن لا يجارى . ولما كان من مادة القبائل
العربية أن يتزوج الشاب من إحدى قريباته ، فقد تزوج الزبير
عندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره من ابنة عمه ، وكان هذا
الزواج بداية لاستقرار حياته . وأخذ يمارس التجارة لتكون
موردا لمعيشته ، وخبل له أنه قد انتهى من تحديد أمر مستقبله كما
يريد ويختار (١٩) .

وقد كان عمله فى التجارة ، وزواجه من ابنة عمه بداية
لمرحلة جديدة فى حياته ، فقد كان الزبير يعتقد على اشتغاله
بالتجارة آمالا كبيرة من ناحية الاستقرار والكسب المادى الذى
يضمن له حياة مطمئنة بعض الشيء ، إلا أن الأقدار رسمت له
طريقا آخر مخالفا للذى خطه لنفسه وكان هذا الطريق ملوئا
بالمغامرة والأهوال ، ولم يكن باستطاعته أن يخيره أو يتجنبه .

وفى سنة ١٨٥٦ م ولم يكن قد مر على زواج الزبير أكثر من
عامين ، دفعت به الظروف الى أن يذهب الى الجنوب ، وتبدأ
خيوط هذه القصة عندما بلغه أن ابن عمه محمد بن عبد القادر قد

ارتحل إلى الجنوب بعد أن التحق بخدمة تاجر من تجاره يدمى مليا أبا عموري (٢٠) ، عجزع لسماع هذا الخبر لأنه لم يكن يتصور في يوم من الأيام أن ابن عمه يفعل ذلك ، ومن ثم وطد العزم على الارتحال إلى الجنوب ليلحق بابن عمه كي يثنيه عن عزمه ويعود به من حيث أتى ولم يتردد بعد ذلك في الإسراع للحاق بهذه القافلة فأدركها عند ود شلعي (٢١) على النيل الأبيض إلى الجنوب من الخرطوم على مسيرة يومين منها ، وبدا له من اللحظة الأولى التي التقى فيها بابن عمه أن مهمته لن تكون سهلة أبدا ، فقد أبى أن يستمع لنصحه أو رجائه . واقسم ألا يعود إلى الخرطوم قبل أن يتم رحلته هذه . فلما أن يلقى ذويه غنيا مثرى ، ولما أن يمضى في عداد الهالكين ، كان عنيدا جريئا ككل أفراد آل رحمة ، غير أن الزبير مع هذا لم يفقد الأمل في اقناعه .

ومضى يستعرض أماله أخطار هذه الرحلة ، فلم يزد إلا تشبها بها ، عندئذ نثر الزبير آخر سهامه واقسم له بالطلاق أنه لن يعود إلى الخرطوم إلا وهو معه ، وأنه أن لم يكف عن عزمه هذا ، فسوف يسافر معه إلى بحر الغزال ، قالها الزبير قلنا منه أن ابن عمه لن يرضى بمسافره معه ربتضحيته هذه ، فيضطر عندئذ للعودة إلى الخرطوم ، ولكن هذا القسم الغليظ لم يجد معه وهكذا وجد نفسه بالرغم من كل ما بذله من جهد لاقتناعه مضطرا في النهاية للبر بقسمه ومشاركته في هذه الرحلة ملتحقا هو الآخر بخدمة علي أبو عموري . وفي الرابع عشر من سبتمبر سنة ١٨٥٦ م غادرت القافلة ود شلعي ووجهتها بحر الغزال ، وكان هذا هو الخيط الأول في القصة (٢٢) .

نرى مما سبق أنه بعد أن فشل الزبير في محاولته للتأثير على ابن عمه للعودة معه ، التقى بآخر سهامه وهو قسمه بيمين

الطلاق أن لم يعد معه ، فسوف يتبعه في رحلته . وإذا نظرنا إلى تلك الرواية نجد أن يمين الطلاق هذه هي من أشد الإيهام وأغلظها عند المسلم . أما عن تأثيرها على ابن عمه فإنه لم يبال بما أقسم به لأنه كان قد وطد عزمه على الاستمرار في رحلته مع ابن عموري ، ويتضح من القسم الذي أقسمه للزبير والذي وضع له فيه أنه لن يعود إلى ذويه إلا ثريا ، أو يضي في عداد الهالكين . وقد كان هذا اليمين هو الفاصل في سفر الزبير مع ابن عمه كما كان السبب في اشتغاله مع أبي عموري واتخاذة التجارة مهنته الأساسية ، يضاف إلى ذلك عامل حب الزبير لابن عمه وخونه عليه من المخاطر والأهوال . ولم تكن الرحلة إلى الجنوب سهلة ميسورة بل اتسمت بالقسوة والخسونة لما أحاط بها من مخاطر وأهوال الطريق .

وإذا كان العناد من أبرز صفات الأسرة ، ويتضح هذا العناد في موقف ابن عمه ... فإن هذا العناد يتضح أيضا في موقف الزبير ، فقد أقسم بيمين الطلاق لابن عمه على ضرورة العودة معه ، وحين رفض الأخير لم يجد الزبير أمام مناديه المتصلل بدا من أن يبر بقسمه ويتبعه في رحلته . ولم يكن الزبير يملك شيئا تجاه تطور الأحداث على هذا النحو ، لذا فقد توجه إلى الله بل بالدعاء أن يحفظه وابن عمه بفضلله ورحمته ، وأن يردهم سالمين من هذه المخاطرة ، وقد استجاب الله لدعائه ، فبالرغم من كل الصعاب والأخطار التي لقيها ، فقد عادت عليه الرحلة بأكثر مما كان قد توجه به إلى الله في دعائه ، فقد كانت هذه الرحلة سبب نجاحه وشهرته وما أصبح فيه من منزلة في بلاده لم يصل إليها أحد من قبل . ولم تكن هذه الرحلة الأولى مع أبي عموري سهلة ميسورة فقد دفعا فيها من التعب والاجهاد وتحمل المشاق ثمنا عسيرا منذ اللحظة الأولى التي التحقا فيها بخدمة (٢٣) .

وقد وصلت السفينة التي أكلتها إلى مخرج الرق (٢٤) وبدأ
عليها بعد أن التحق بجامعة أبي عموري وسرعان ما اندمج في
البيئة الجديدة وكيفا نفسيهما بالوسط الذي وجد فيه ، وبعد
أعوام كانت شهرة الزبير ككاشف تفوق شهرة التجار الآخرين . وقد
اكتسب صداقة الزعماء ، وأهل البلاد وصاهر ملك بلاد النيام
نيام ، فعلا نجمه وسما مقامه (٢٥) .

هوامش المقدمة

(١) هولكو (١٢١٧ - ١٢٦٥ م) : وهو جنيد جنكيز خان ، وجهه أخوه منكوخان الملقب بالأعظم لأخيه ثور في فارس سنة ١٢٥٦ م ، فعبر نهر جيحون ، قاهن حشار الأمراء في فارس ولامهم له قام أبان هذه الصلة بالقضاء على ملأفة العشائين وقتل زعيمهم ركن الدين ، ثم واصل بعد ذلك حيلاته حتى كانت هزيمته سنة ١٢٦٠ م في عين جالوت قرب بلدة الناصرة في فلسطين . أسلم هولكو بعد هزيمته واتجه شرقا ، وقد عبرت أبحاثه التي شملت بلاد فارس حتى سنة ١٢٢٥ م وفي هذه السنة ضمت إلى خمسة أقسام .

(٢) العشائين : طائفة من ناقة الاسسمايلية دمت إلى أمانة نزار ابن المستنصر . ومؤسسها الحسن بن الصباح ، الذي انضم وهو حدث للدموية الفاطمية وقد وفد على مصر في أثناء حكم الخليفة المستنصر الفاطمي ، وانضم إلى مؤيدي أمانه نزار ثم عاد إلى إيران ، وبت دمويته فيها مآلف حوله كثيرون . وفي سنة (١٠٩٠ - ١٠٩١ م) استطاع أن يستولي على قلعة الموت الجبلية الحصينة واتخذها مقرا لدموته . ثم وجه اعتيابه للاستيلاء على قلاع أخرى وإلى التلمس من أمواته . وقد تميل بتنظيم دقيق ، وانفذ الاغتيال أداة يتخلصون بها من أعدائهم ، فكان يرأسهم السيد أو شيخ الجبل وهو صاحب الأمر والنهي ، ويليه الدعاة ، ويطلقون أوامرهم منه ، ويلفون تعليماته ، ويتقسم الباقون إلى مراتب حسب أطلاعهم على أسرار الفرقة ومن أهم هؤلاء فئة الغدائيين الذين كانوا يفتلون الأعداء .

(٣) المستنصر بالله : (١٢١٢ - ١٢٥٨ م) آخر خلفاء الدولة العباسية بالعراق . ولد ببغداد وولى الخلافة ١٢٤٢ م في أشد أيام ضعفها ، اعتد على وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي . تم للمغول الاستيلاء على بغداد في هذه ، ثم قتلوا سائقها وعلماها ، وأيقوا على الخليفة حيا إلى أن أرشدتهم على أماكن الأموال ، ثم قتلوه وبموته انقرضت الدولة العباسية في العراق .

(٤) فيليب حتى وآخرون : تاريخ العرب ج ٢ ص ٥٨٢ - ٥٨٤ .

(٥) كارل بروكلمان (ترجمة أبيه آين هاريس ونير البعلبكي) تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٦) شجرة الدر (١٢٥٧ م) : ذهب بعصمة الدين ملكة مصر ، وهي من جوارى الملك الصالح نجم الدين أيوب . اشترها أيام أبيه وولدت له ابنة ختيلا ، فأعتدها وتزوجها ، ذهبت معه إلى الشام . أيام كان موليها عليها ، وكانت تدير الملك أثناء غيابه عن الغزوات . كان خطها يشبه خطه ، فكانت تعلم على التوقيع . أخفت خبر موته أيام المبارك الناشئة بينه وبين الأفرنج بالمنصورة ، وخطب لها على المنار ، وسكت باسمها النقود . حكمت ثمانين يوما وخرجت انشام على ملأها ، فتزوجت وزيرها عز الدين ، وتنازلت له عن السلطة بكفية بالسيطرة عليه . طلق زوجته الأولى أم علي من أجلها ، ولكن لما أراد أن يتزوج عليها أمرت مملوكها بقتله ، ولكن زوجته المطلقة أم علي أمرت جوارها بقتلها .

(٧) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان من ص ٩ - ١٠ .

(٨) واداي : سلطنة سابقة لشرق أفريقيا الاستوائية قرب بحيرة تشاد . انتهت فرنسا واداي في القرن التاسع عشر الميلادي ، وغرقت عليها الحياة سنة ١٩٠٣ م ، وصارت منذ سنة ١٩٠٩ م جزءا من أفريقيا الاستوائية الفرنسية . ومن ماضيها بدا طريق القوافل إلى بنغازي ، وإلى أفريقيا الغربية . أهم معالمها النحاس والتصدير والرماس .

(٩) جبل الشيخ الطيب : تجمد الثمانيات وهو مؤسس الطريقة السنيانية في السودان ، وله قبلة تزار واقعة في سفح جبل صغير يعرف بجبل أم مرجي الملقب بجبل الساطن نسبة إليه .

Jackson, H.C. The black ivory and white P. S. (١٠)

(١١) محمد محمود السيد (دكتور) ، محمد عبد الغنى سمودي (دكتور) : السودان من ١٩٠٠ .

(١٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٧ - ٨ .

(١٣) أم ديمان : تقع تجاه الخرطوم وغرب النيل في خط مرضى شبلي ١٨° ١٥' وخط طول ٣٩° ٢٢' ، وقد كانت قبل ذلك بلدة صغيرة قائمة في سهل تسمى رملى لا شجر فيه وكانت محط لرحال تجار الغرب قبل دخولهم الخرطوم . شهدت الحكومة بها بدء الثورة المهدية طائفة استولى عليها المهديون في ٥ يناير

سنة ١٨٨٥ م ، واحتل البلدة النصر المهدي نفسه ، وعند ولغته دفن فيها ، غشي خليفته عبد الله التمهيشي قبّة فوق قبره جعلها مزاراً وجعل أم درمان عاصمة للكله ومساها بقبة المهدي .

Macmichael, H.A. : A history of the Arabs in (١٤)
the Sudan PP. 221 — 222.

(١٥) عمر رضا كماله : معجم القبائل العرب القديمة والحديثة ج ١ ص

٢٠٦ .

(١٦) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٠ .

(١٧) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٢ — ١٣ .

(١٨) نعوم شحير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافية ج ٢ ص ٦ .

(١٩) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٣ .

(٢٠) علي ابو عسوى : من أهالي نسيج حبلاني بصعيد مصر ، ومن أوائل التجار الذين أسسوا مراكز تجارتهم في خندكور ولريت ، وكون مع غيره من التجار شركات تملك الكثير من الزرائب في كل من بحر الغزال وأهالي النيل ، وكان يتصف بأنه محدودب الظهر حديد التقلبات تصير العامة .

(٢١) ود شلمى : وهي من مدن النيل الأبيض التابعة لمديرية الجزيرة وتقع على بعد ١٨ ميلاً من القطنية وهي مرسى جيد للسفن .

(٢٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤ — ١٥ .

(٢٣) مخرج الرق : وهو مرأى على بحر الغزال تستطيع السفن أن تتجاوز جنوباً ، والمخرج يمكن للتجارة على شكل مريع من حروق الأشجار يقيم فيها التجار أو وكيله ومعهم بعض الحراس للخفاف ولجلب الرقيق وقد دمج الشديوي أسماهم تعويضات لاسحاب المخرج ليتخلوا عنها للحكومة .

(٢٤) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٦ .

(٢٥) عبد الرحمن زكي : أعلام الجيش والبصرة في مصر أثناء القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٤ .



الفصل الأول

بداية ظهور الزيبر رحمة في السودان

بداية ظهور الزبير رحمة في السودان

تمهيد :

تحرك الزبير رحمة للحاق بابن عمه محمد بن عبد القادر في الجنوب خوفا عليه من مخاطر وأهوال الطريق بعد فشله أمام عناده على الاستمرار فيها اعتزم عليه ، وكان ذلك التحرك من المواقف ذات الأهمية في تغيير مجرى حياته ، وقد كان من الجائز أن تفسد عليه هذه الحادثة حياته ، ولكن صبره وعناقه واستعداده العظمى كان يدفعه الى الامام في سبيل ما أرادت له الاقدار كافة ألوان المخاطر والأهوال التي تكتنف الرحلة الى الجنوب ، وكان هذا بداية لتاريخ حافل في حياة الزبير مملوء بالاثارة وحسب المفارقة ، وكان العمل في الجنوب أيا كان نوعه يعتبر في حد ذاته خطرا على من يمارسه ، ويحتاج الى الرجل الذي لا يهاب المضي قدما فيما عرضه عليه الواقع من ضرورة وجوده في هذه الأصقاع القاتبة . ولم يكتشف الزبير في نفسه هذا إلا بعد أن صمد للكثير من التحذيرات التي واجهته في رحلاته مع ابن عمه والتاجر علي أبو عموري بجنوب السودان (١) .

بدأت رحلة الزبير الاولى الى جنوب السودان في ١٤ محرم سنة ١٢٧٣ هـ الموافق ١٤ سبتمبر سنة ١٨٥٦ م حينما غادر ومن

معه قرية « ود شلعى » وهو يدعو الله أن يضلّى عليه من حياته ورعايته فى هذه الرحلة التى توقع منها المخاطر والأهوال ، ولكنها كانت السبب الأول فى تقدمه وشهرته فى مجال التجارة . ومن خلال هذه الرحلة وصل الى القمة الى لم يصل اليها أحد فى بلاد السودان من قبل .

كان الزبير يتخوفا جدا من هذه الرحلة ، ولم يصبح أهلا لهذه المكائنة التى وصل اليها الا بعد شدة وخطب عظيمين لقى خلالها الكثير من صنوف المتاعب ، وبعد أن عمل فى جو مصحوب بالضيق وضنك العيش وليس خريبا أنه عندما الحق نفسه بالعمل منذ على أبى عمورى ، كان فى ظروف معيشية سيئة أدت بهذا الرجل الى أن يعامله بفظاظة ، ولم يكن ليعطيه من الكعك المصنوع من الدقيق الجيد ، ولا من اقتداح القهوة ، ولا حتى من شرائح اللحم شيئا يذكر ، يضاف الى ذلك أنه لم يترك له الفرصة كي يقتات ما يقيم أوده ويحفظ عليه حياته وصلة الروح بالجسد (٢) .

هكذا كانت البداية سيئة ، بل ازدادت سوءا على ما كانت عليه ولم تكن لتشجع على الاستمرار لولا أن كان هناك هدف لسمى يسعى الزبير من أجله الا وهو إخلاصه ووفائه لابن عمه وخوفه عليه من أن يتركه وحيدا عرضة للمخاطر ، ولذا فقد قبل عن طيب خاطر أن يتحمل كل هذا دون أدنى شكوى من المعاملة القاسية التى يلقاها يوميا على يد على أبى عمورى (٣) .

ظل الحال على ما هو عليه وهم يجتازون قلب السودان حتى بدأت الغابات المحيطة بالنيل الأبيض تخفى رويدا لتتسح المكان لمستنقعات بحر الغزال الشاسعة المترامية الأطراف ، وهناك أخذ أبو عمورى يوزع السلاح والذخيرة على أتباعه ، ولم يحرم منه أحد سوى الزبير ، وكان هذا أكبر من أن يسكت عليه الزبير ،

وأحسن وقتها أن عزمه وكرامته لن تتحملا أكثر من هذا فمضى إليه ،
وفى أعبائه غضب مكبوت وطالبه بسلاح يحمله فقبل في النهاية
أن يعطيه مسدسا صديقا عتيقا لا يكاد يصلح لشيء ، غير أن
الزبير رضى به ، وبذل جهدا كبيرا في إصلاحه وتهيئته للعمل
حتى استطاع فعلا بعد ذلك عندما جاء وقته أن يعمل وأن يقوم
بالمعجزات (٤) .

وقد حدث في أحد الأيام أن تأمر عليهم سكان المناطق المحيطة
بهم وكان عليهم أن يلجأوا للسلاح دفاعا عن أنفسهم فمستسما
قواتهم إلى معسكرين يضم كل واحد منهما حوالي مائة رجل ،
وأخذ أبو عموري ورجاله أهبتهم للقتال ، ولم يلبث الاعداء أن
أحاطوا بهم في عدد لا حصر له ، ولم يمض لحظات حتى كان
الزبير ومن معه مشتبكين في قتال مرير مع الاعداء ، وأحدثت
المعركة ، وبدأ موقف الزبير ومن معه يتخرج ويسوء لكثرة ما خسروه
من القتلى ، وفي هذا الوقت وقع بصر الزبير على واحد من
المهاجمين ضخيم الجثة كالفيل ، وكان يبدو عليه من اندفاعه وطاعة
الرجال له أنه قائدهم ، عندئذ أسرع الزبير فسدد إليه ضربة
قائلة أصابته بين عينيه فخر على الأرض صريعا يتخبط في دمه .
والتقط الزبير مسدسه المحشو ، واستأنف القتال ، ولم يمض
غير ساعة واحدة حتى كان الزبير قد صرع أحد عشر رجلا من
الاعداء ، وأسرع لمساعدة بقية الرجال الذين كان موقفهم يتخرج
من لحظة لأخرى ، وقد أوشك الاعداء على التغلب عليهم ، ولم
يمر وقت طويل حتى كان قد أباد عددا آخر من المهاجمين ، وبهذا
بدأ الموقف يتحسن إلى أن بدأ الاعداء يحسون الهزيمة عندئذ ولوا
الأدبار وهم من خلفهم يطاردونهم ويقتلون منهم حتى تم لهم النصر
عليهم وعندما اقتبل المستسما كانت المعركة قد انتهت تماما وكان

التجار قد فرغوا من بناء زريبة يقضون فيها ليلتهم ، وليلتها رأى الزبير أبو عمورى وهو يتقدم نحوه حاملا له من أطيب الطعام ما كانت تشتهي نفسه من زمن بعيد ، ثم مضى يعانقه ويقبل رأسه ويده وأمضى معه وقتا طويلا فى التودد اليه والثناء على شجاعته مشيدا بأنه كان السبب فى تخليصه من براثن موت محقق . ومن يومها تغيرت معاملته للزبير واتخذة صديقا له (٥) .

أظهرت هذه المعركة مدى قدرة الزبير وشجاعته فى مواجهة الشدائد . عندما أبلى فى قتاله مع رجال أبى عمورى بلاء حسنا فى قتاله ضد هؤلاء السكان . بل كان هو السبب الاول فى الانتصار عليهم ، مع أن هذه المعركة كانت تعتبر الأولى بالنسبة له . وقد كان لها أهميتها من حيث التغيير الذى أحدثته فى مجرى حياته مع أبى عمورى .

وفى صباح اليوم التالى استأنفوا الرحلة فى النيل الأبيض الى أن وصلوا الى مشرع الرق . فنزلوا بيضسائعهم وأمتعهم وكان فى ذىس العام سنة ١٢٧٣ هـ الموافق ١٨٥٦ م اخترقوا بلاد الجانقية (٦) الى أن وصلوا بعد مسيرة خمسة أيام الى أرض الجور (٧) — Jur حيث كان لأبى عمورى محطة هناك تسمى عاشور على اسم شيخ البلد هناك . وفى منطقة بحر الخزال كان هناك الكثير من التجار غير أبى عمورى متفرقين فى أنحاء الاقليم ولكل تاجر منهم زريبة (٨) وكانت أهم البضائع المتداولة فى تلك البلاد هى الخرز على اختلاف أنواعه وألوانه وأحجامه ثم الودع والقصدير وكله مما يتزين به النساء والرجال . وكان الأهالى يفضلون هذه الأشياء على الذهب والفضة ، فكانوا يأخذونها من التجار ويقايضون عليها بسن الفيل (٩) وريش النعام (١٠) والمطاط والحديد والنحاس وغيرها من موارد البلاد (١١) .

ظل الزبير بعد ذلك مساعداً لأبي عمورى فى تجارته غير أنه لم تمض الا بضعة شهور حتى ثار اهل البلاد مرة أخرى على التجار طمعا فى أموالهم وبضائعهم وما جاءت سنة ١٢٧٤ هـ الموافق سنة ١٨٥٧ م حتى كانت قواتهم قد تجمعت من جميع أنحاء البلاد واستعدت للمعركة الفاصلة ، عندئذ بدأوا فى الهجوم على الزرائب وقتلوا بعض التجار وهم نائمون ، وسلبوا أموالهم كما هاجموا زريبة أبي عمورى ، فتصدى لهم الزبير على رأس الرجال وأحاط بهم وقتلهم حتى أنزل بهم هزيمة ساحقة ، وسمع التجار بخبر انتصاره عليهم ، فجمعوا اليه من جميع أنحاء البلاد ودانوا له بالطاعة ، وأصبح اهل البلاد لا يجرؤون على مهاجمة زريبة أبي عمورى أو زرائب التجار الآخرين ، وعندما وجد أبو عمورى نجاته فى المرتين السابقتين بفضل شجاعة الزبير زادت ثقته فيه وجعل له قسما من أرباحه يبلغ عشر العاج . وعندما هدأت الأحوال بالبلاد ترك أبو عمورى الزبير وكيلا عنه وسافر الى الخرطوم مغاب فيها مدة ستة أشهر وعاد بالبضائع فوجده قد جمع عنده من موارد البلاد ما لم يكن ليجمعه هو فى سنتين ، فزاد هذا من احترامه للزبير. وعرض أبو عمورى على الزبير مشاركته له فى تجارته على أن يكون الربح مناصفة بينهما ، الا أن الزبير رفض ذلك وعزم على أن يستقل بنفسه فى أعماله وأن يبدأ فى الاتجار لحسابه (١٢) .

ترتب على المعركة السابقة عدة نتائج أولها فتح أبواب كثيرة أمام الزبير منها أن أبا عمورى قد عرض عليه مشاركته فى تجارته ومناصفته أرباحه فرفض ، ولانيها أن تجار هذه المنطقة قد أحسوا بقيمة وقدرته وإخلاصه فقدموا اليه عروض الولاء والطاعة ، كما أنها أعطته الثقة الكاملة فى أن يقوم هو بنفسه بالاتجار لحسابه الخاص .

الانطباعات التي تركتها هذه الرحلة في حياة الزبير :

أولا : استطاع الزبير أن يكتشف نفسه الخليفة بالصمود أمام العقبات والتحديات ويتمثل ذلك في الممرتين اللتين خاضهما مع رجال أبي عموري ضد سكان البلاد وظهوره بمظهر المدافع عن حقوق صاحبه أبي عموري وبنية التجار .

ثانيا : كان لهذه الرحلة الأثر الكبير في تزويد الزبير بخبرات واسعة في مجال الاتجار والمقايضة مع سكان الأقاليم الجنوبية ، وتنوع المواد التي يجب أن يتاجر فيها ويقايض عليها ، والتي كانت محل رغبة من الأهالي .

ثالثا : تعرف الزبير على مصادر حاصسيلات الجنوب ، وقد استطاع أن يجمع من هذه الحاصلات مثل العاج ومسسن الفين وغيرهما كميات كبيرة .

رابعا : كان من نتيجة تحسن مركز الزبير لدى أبي عموري وبنية التجار الأثر الناجح في أنه وجد أحسن الطرق بإيسرها لتحقيق أمله وبلوغ طموحه لا يكمن في مشاركته لأبي عموري أو تخلفه أربلحه بل في استقلاله بالأعمال التجارية التي أصبح له فيها شأن كبير .

الزبير يستقل بنفسه :

قرر الزبير الاستقلال عن أبي عموري وممارسته التجارة بحسابه الخاص ، لذلك سافر إلى الخرطوم لشراء ما يلزمه من البضائع التي تروج في البلاد التي سوف يتاجر فيها ، واستلزام الأمر اللذين للعمل معه ، وليبدأ جولة جديدة في حياته . بدأ الزبير رحلته إلى الخرطوم بالابحار من بحر العرب حتى وصل

الى مكان التقاء بحر العرب ببحر الخزال ، وفى اثناء اجتيازه لهذه المنطقة وقع بصره على قطيع كبير من الفيلة ذات الانياب الخليطة التى تعتبر من اهم مصادر العاج ، فحاول الزبير ومن معه اصطیاده هذا القطيع بشتى الطرق للحصول على العاج ولكنهم اخفقوا فى ذلك لوجود مستنقع عميق يتسع حال بينهم وبين الوصول اليه .
وعندما اتى عليهم الليل صنعوا لانفسهم مأوى من الاغصان يبيتون فيه ليلتهم . وفى اثناء الليل خرج الزبير ومعه احد اتباعه للمغامرة بينما ترك بقية الرفاق ، واثناء سيرهم خلال المناطق الموحشة والاحراش الكثيفة لفت نظرهم وجود تمساح ضخم يرتد قرب النهر فحاول الزبير اصطیاده برصاص بنديقه ، ولكنه قبل أن يفعل ذلك توجه باسد يتقدم فى خفة صوب التمساح ، بعدها بدأت معركة وحشية بين الاسد والتمساح انتهت بصرع التمساح . وفى صباح اليوم التالى عاد الزبير وصحبه الى حيث كان ينتظرهم باقى الرفاق واستأنفوا رحلتهم الى الخرطوم التى بلغوها فى السابع من ربيع الاول سنة ١٢٧٠ هـ الموافق الخامس عشر من اكتوبر سنة ١٨٥٨ م وكان الزبير قد جمع من تجارته مع ابي عمورى نحو الف جنيه ، فما وصل الخرطوم حتى اشترى بهذا المبلغ قاريا حمل فيه من مختلف البضائع التى تروج فى بلاد الجنوب ، كما أنه استأجر لنفسه بعض الرجال وسلحهم بالبنادق كما كانت عادة التجار آنذاك (١٣) .

وقد كانت هذه الرحلة التى قام الزبير بها لونا من لوان المغامرة ، التى عبرت من شكل من اشكال الحياة فى السودان لذلك فهى تعتبر صورة من الصور التى سوف تتكرر رؤيتها فى جميع رحلاته التى قام بها الى الجنوب .

الزبير في بلاد قولو (١٤) (١٢٧٥ هـ - ١٨٥٨ م)

حمل الزبير أثناء عودته من الخرطوم من البضائع التي تروج ببلاد الجنوب الشيء الكثير مثل الخرز بكافة أنواعه وأشكاله وأحجامه واللوانه ، والودع ، والتصدير ، والقماش المصنوع من القطن وغير ذلك من البضائع للتعايشة عليها. بريش للنعام ، وسن الفيل ، والخرتيت ، والمطاط ، والحديد ، والذهب ، وغير ذلك من موارد البلاد كما أنه استسقط معه رجالا للقيام بأعمال الحماية وآخرين لحمل البضائع ، وغيرهم ليكونوا أدلاء ومرشدين عبر الطرق والمناطق التي يتجهون إليها .

وبدأ الزبير رحلة العودة متجها نحو الجنوب في اتجاه مشرع الرق هو ومن معه ، ولكن لم يلبث أن اعترض طريقهم أثناء أبحارهم عبر مجارى أحد الأنهار سد كبير من أم الصوف (٢٠) وكان عليهم لكي يواصلوا الرحلة أن يزيلوا هذا السد من النهر ، وظلوا أياما يحاولون إزالته ، ولكن دون جدوى ، وكاد اليأس يتسرب إليه لولا أن جاءهم في النهاية رجل من قبيلة النوير - Nuer من المعارفين بأسرار هذه البلاد نازاله لهم بالتعاون مع بقية الرجال في سهوة ويسر ، وقد أخبرهم بأن من عادة القبائل هناك أن تعتمد إلى ربط الأعشاب الطاغية - Weeds بعضها إلى بعض حتى يتكون منها جسر واحد تعبر عليه الأغنام ، هذا إلى أنه في موسم الأمطار تملأ الأنهار بالمياه ، فإذا أتى فصل الصيف جفت هذه الأنهار ، فيترك الأهالي أغنامهم لرعى العشب على الشاطئ ، فكان التجار في ذهابهم وإيابهم في النهر يعمدون إلى صيد الأغنام والانتفاع بها ، لذا كان الأهالي يعملون على تقوية هذه السدود وتكثيفها حتى تقف حجر عثرة في طريق التجارة فيأمنوا بذلك على أغنامهم من الهلاك .

استأنف الزبير الرحلة الى مشسرع الرق ، وهناك استأجر بعضا من الرجال لحمل بضائعه برا في منطقة بحر الفزان وسار الزبير ومن معه ، فاجتازوا بلاد الجانكاه - Jauket او الجانقية والجور - Jur والبنقو - Bongo (١٥) حتى وصلوا بلاد قولو - Golo فرحب بهم ملكها كواكي - Kuwaki وأكرم لقياهم وتاجر الزبير في هذه البلاد بما خلة معه من البضائع حتى اجتمع عنده من سن الفيل وريش النعام وغيرهما من موارد البلاد الشئ الكثير ، فأرسلها مع ابن عمه محمد بن عبد الرحمن الى الخرطوم حيث باعها وعاد بكثير من البضائع في السابع عشر من ربيع اول سنة ١٢٧٦ هـ الموافق الرابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٥٩م ، وقد طابت للزبير الإقامة في هذه البلاد ، واخذت تجارته في الاتساع والنمو حتى غادرها الى بلاد النيام نيام (١٦) .

وهكذا أصبح الزبير تاجرا موهوبا أقام تجارته على أسس غير أسس التجار العاديين ، واتخذ أساليب غير أساليبهم ، فلم يهاجم القرى الآمنة ولم يهاجم القرى الضعيفة بل قصد بلاد النيام نياه حيث يوجد اكلة لحوم البشر وهي كما يصفها الزبير البلاد التي ليس فيها مقابل (١٧) .

الزبير في بلاد النيام نيام (١٢٧٦ هـ - ١٨٥٩ م)

بلغ الزبير أنه توجد الى الجنوب الغربي من بلاد قولو - Golo بلاد واسعة الأطراف كثيرة الخسيرات تتميز بكثرة ابقارها ويقطعان الفيلة التي لا حصر لها وأن العاج لكثرت هناك يكاد الا تكون له قيمة تذكر . ومن ثم عزم على الرحيل الى هذه البلاد ، فما كاد يفيض على هودة ابن عمه من الخرطوم شهر حتى حزم بضائعه وحمل معه للسلطان هدية فاخرة ، وانطلق قاصدا

هذه البلاد . فبلغ عاصمتها دارتكة بعد رحلة شاقة استغرقت خمسة وعشرين يوما . وكان يحكمها سلطان يسمى تكة ويقوم في عشة كبيرة يحيط بها سياج من انياب الفيلة يبلغ عددها ما بين ثلاثة وأربعة آلاف . في هذا المقر قابل الزبير السلطان وقدم له الهدايا التي جلبها معه ، واستأذنه في الاتجار في بلاده ، فأذن له ، وبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياته بالاتجار وسط هذه القبائل من أكلة لحوم البشر (١٨) .

وعلى هذه البلاد أطلق الجغرافيون العرب في العصور الوسطى اسم « نيام نيام » وبالتحديد شعوب هذه المناطق من سكان أواسط أفريقية ، وكان أولئك الكتاب لا يميزون بهذا الاسم شعبا بذاته ، بل مجموعة سكان هذا الاقليم الأوسط الذي يشمل الكونغو وأعلى النيل والذي اشتهر سكانه بهذا الاسم ، وهذه البلاد تشمل الجزء الجنوبي من حوض بحر الغزال المتاخم لأعلى روافد نهر الكونغو ، وهنا نجد مساحة واسعة جدا من السودان الجنوبي الغربي وفي الشمال الشرقي من الكونغو ، وهي بذلك تقع في مركز متوسط بالنسبة للقارة الأفريقية في هضبة متوسطة الارتفاع ، وتحتلها مجموعة من الشعوب المختلفة من أشهرها قبائل مورو ، وماضي ، وبونجو ، وندو ، والمكاركة ، والأزاندو ، والمجيبو وغيرهم . هذه المساحة العظيمة من جملة الجهات الأفريقية انتشر فيها ذباب « تسي تسي » المسبب لمرض النوم . وعلى الرغم من ذلك فقد احتشدت فيها في القرون الثلاثة الأخيرة جماعات مختلفة من أقاليم الكونغو وأواسط أفريقية ، ودارت بينها اشتباكات ومنازعات وأخذت جماعات تتشكل في مختلف الجهات ثم تتحلل ، تظهر ثم تختفي ، تستقل ثم تندمج ولا تزال آثار هذا التفتت والتمزق واضحة ، بحيث يصعب معها رسم خريطة لتوزيع الشعوب في هذا الإقليم الكبير .

وعلى فرض أن هناك منطقة انتشرت فيها ظاهرة النمنمة ،
وأنها تمتد من الكونغو إلى أمالي بحر الغزال ، فإن أكبر الظن
أنها لم تكن يوما مادة شائعة في طول الاقليم وعرضه . وكثير
من السكان ينكرون أن أمرا كهذا يمارسه أحد ولا شك أن الاتصال
بين الشموبي ، لا بد أنه قضى على هذه الممارسات في الجهات القليلة
التي كانت تمارس فيها (١٩) .

ويقال أن أكل لحوم البشر في بلاد النيام (النيام — نيام)
ليس غذاء عاديا لهم كما يدوهم البعض . بل هو طريقة اتخذوها
ليبيان معزة أحدهم عند الموت ويرونها أسمى شأنًا من دفن الانسان
في القبر أو احراقه بالنار مثلا ، ويرون في ذلك راحة لهم من
جناء انشاء المقابر واحتياطاتها الصحية (٢٠) .

وكان من العسير على سلطان النيام نيام أن يفهم لماذا اهتم
الزبير بالعاج وسمى الى جهه ، فلما ابلغه أنه يجمعه ليسحقه .
لم يثبت عندها عادوا في العام التالي ، أن وجد الاهالي قد احرقوا
العاج كله . وكان من الواضح أن السلطان قد عهد الى هذا خوفا
من أن يكون الزبير ومن معه قد خدعوه عندها قالوا له اننا نجعله
لنسحقه .

وكان الزبير ومن معه يقطنون طول فترة اقامتهم بداركمة
في غسنة بالقرب من مقر السلطان . وقد بنيت مشيش زوجات
السلطان بجواره في شبه نصف دائرة تحيط بأرض قضاء ممتدة .
وتسل ذات مساء أحد الحمير التي مع الزبير من مربطه ، واخذ
طريقه الى مقر السلطان حيث افراه بذلك مشيد الاثرة التي كان
الاهالي قد تركوها هناك في الليلة الماضية ، ولما كانت انظار اهل
بلاد النيام نيام لم تقع قط على صور مثل هذه الدواب كالجمال
والخيل . فقد ذعرت زوجات السلطان لراى هذا الحمار وولين

من أمية الأديار في دعر وهياج ، وقد ظنوه رجلاً مسحوراً على صورة أخرى ولم يلبث السلطان أن شاركهم هو الآخر في هذا الخن ، فأمر وقد أخذ منه الغضب كل مأخذ بقتل الحيوان وبدق طبول الحرب لدعوة المحاربين من كل مكان لقتال الزبير ، وتخرج موقف الزبير ومن معه حتى بات يهددهم خطر عظيم . ولكن الزبير ، بما عرف عنه ، لم يتوان لحظة واحدة في إصلاح الأمور فأرسل إلى السلطان أحد المقربين إليه من أتباعه ومعه بندقيتان وأربعون طلقة هدية من الزبير إلى السلطان لكي يسترضيه ويتقضى غضبه . غير أنه أدار لرسول الزبير ظهره وأبى أن يتقبل الهدية فلما سمى الزبير بنفسه وتقدم منه محيياً أدار له ظهره مرة أخرى . وكانت هذه الحركة من عاداتهم في اظهار الغضب والاستياء عندئذ خياطيه نورأنجره (٢١) Nur Angra قائلاً : أيها الملك العظيم ما الذي يقضبك مني وأنا الذي طالما اصطدت لك القروء المكتنزة لتكون طعاماً لك في ولائك العامرة اللذيذة ؟ عندئذ أجاب السلطان في حدة قائلاً : « وما الذي تنتظره مني غير الغضب وقد أرسلتم أحسد رجالكم بالليل إلى حى زوجاتي ينتهك حرمتهم . فقال نورأنجره Nur Angra بأن الحمار لا يعدو أن يكون حيواناً كالبقر والغزال حتى هذا أخيراً وخف غضبه ، عندما زادوا له الهدية إلى ست بنادق تنازل له الزبير منها مكرها .

وكان لسلطان تكمه ما يقرب من الأربعمئة امرأة والأربعمئة من الإبناء والبنات . فقام يزوج رانبوه كبرى بناته للزبير ، وكانت على قدر كبير من الجمال . سسسامد هذا الزواج الزبير على توطيد مركزه بين أهالى البلاد ، ورفعته هذه المصاهرة الملكية في انظار الأهالى ، وزادت تجارته رواجاً واتساعاً واستطاع في وقت قصير أن يجمع الشيء الكبير من العاج وغيره من موارد الجنوب (٢٢) .

وإذ كانت رحلة الزبير إلى هذه البلاد ذات أهمية من حيث
أنه :

أولاً : استطاع أن يكتشف لنفسه أماكن جديدة للتجارة لم
يظن أنها أحد من قبل .

ثانياً : كانت هذه البلاد تمثل مستودعاً طبيعياً بكرها لحاصلات
الجنوب من العاج وغيره ، التي لم تنلها أيدي التجار بسوء فكان
هذا فتحاً عظيماً لزيادة حجم تجارته من هذه الموارد الطبيعية .

ثالثاً : كان تقربه للسلطان وحبه له ثم تزوجه من ابنته عاملاً
مساعداً على تقوية مركزه وسط شعوب هذه البلاد واتساع مجال
تجارته فيها .

الزبير والملك كريم (١٢٧٨ هـ - ١٨٦٢ م) :

بعد أن جمع الزبير الشيء الكثير من حاصلات بلاد النيام
نيام استأذن السلطان تكة في الرحيل عن البلاد فرحل عنها في
السابع عشر من رمضان سنة ١٢٧٨ هـ الموافق الثامن عشر من
مارس سنة ١٨٦٢ م قاصداً الخرطوم ومعه ما حمله من سلع البلاد
وفي أثناء سيره مر بصاحبه على أبي عموري فوجده مأهياً للسفر
بتجارته إلى الخرطوم فاتفق على الذهاب معه . وكان لأبي عموري
زريبة قرب نهر البنتو (٢٣) الذي لم يسلكه أحد قبلهم على حد
قوله ، فقاموا باجتيازه رغبة في التخلص من مشقة نقل البضائع
بالبر ، ولهذا الغرض أتموا بناء مركبين ووضعوا فيهما بضائعهما
ورجالهما البالغ عددهم مائتين وأربعة عشر رجلاً ، ثم ساروا
قاصدين مشرع الرق ومعه من الزاد ما يكفيهم لمدة شهرين .

وبعد أن ساروا ثلاثة عشر يوماً بلياليها اتسع مجرى النهر
حتى صار أشبه ببحيرة واسعة منه بالنهر ، وأخفى عن أعينهم

النجري الأصلي للنهر ، فتأهوا في هذه البحيرة الواسعة مدة خمسة وسبعين يوما قاسسوا خلالها الأهوال وهم تحت رحمة السماء ، وفي تلك الفترة نفذ زادهم جميعه ، ولم يصبح لديهم ما يأكلون من الطعام ، وفقدوا كل أمل في النجاة من الموت . الا ان الله أراد لهم النجاة ، فقد لاح لهم من بعيد دخان ، فأسرع الزبير ومعه على أبي مهورى ومعهما تسعة من الرجال في قارب صغير فكانوا قد آتوا به معهم في المركبين الكبيرين من قاصدين جهة الدخان ، وما كانوا يتعمدون عن المركبين حتى اجتفى الدخان تماما ثم غاب من أنظارهم أيضا المركبان ، فأصبحوا يسرون على غير هدى وطال بهم الحال حتى أشرعوا على الهلاك .

ولم ينقذهم من ذلك غير رؤية تمساح كبير ، كان يرقد تحت شجرة على تل في وسط الماء فاصطادوه برصاص بنادقهم ، ومن هناك انطلقوا بعد ذلك يبحثون عن المركبين وسط هذه البحيرة ، وظلوا على ذلك الحال لمدة أربعة أيام ، حتى عثروا عليهما أخيرا ، وهناك شاهدوا المأساة التي حدثت ، فقد وجدوا ثمانية عشر رجلا من رجالهم قد ماتوا جوعا ، وعندما علم واحد من رجالهم بنجاتهم تولى على الفور . وقد أخبرهم الرجال أنهم كانوا يرون الدخان كل يوم في آخر النهار ، فأيقن الزبير ومن معه بوجود بر قريب فانتقوا اثنا عشر رجلا من أقوى الرجال وأنزلهم في القارب وتوجهوا مما إلى جهة الدخان ، ولم تضح ساعات على إيجارهم حتى أشرعوا على جزيرة واسعة هائلة . مأهولة بالناس وفيها من الأبقار مالا يحصى عدده ، فنزلوا إلى البر . فوجدوا أن الدخان الذي كانوا يرونه هو دخان أرواث الأبقار التي كان يحرقها الأهليون في عصر كل يوم ليتخذوا رمادها غراثا لهم كعبادتهم (٢٤) .

وكان يسكن تلك القرية قوم من الفوير (٢٥). فلما دخلوا الجزيرة اجتمع عليهم السكان ، فآخذوا يسألونهم عن هذه الملابس ، ومن أين أتوا الى هذه الجزيرة ، وهم في كل هذا ينوون الغدر بهم . ولحسن حظ الزبير كان معه شخص مترجم على علم بلغة القوم ويعرف ملكهم واخبرهم الزبير على لسان مترجمه بأنه يعرف ملكهم « كريم » وأنه يريد مقابلته ، فلما رأوا أنه يعترف بملكهم ولغتهم رحبوا به هو وصاحبه وامنوههم على حمايتهم ، واكرموا ضيافتهم واشترى الزبير ثمانى ابقار ذبحها وارسلها قطعاً في القارب الى بقية الرفاق في المركبين وبعد ان اكلوا منها واستعادوا نشاطهم لحقوا بزملائهم في الجزيرة (٢٦) .

ذهب الزبير بعد ذلك لمقابلة الملك كريم ، ولما امثل بين يديه حياه لرد عليه التحية ثم اخذ يسأله عن امره والسبب الذي أتى به الى هذه الجزيرة ، فأجابه على جميع أسئلته . وسرعان ما انتشر خبر تواجدهم في الجزيرة الى جميع الأهلين ، واخذ كبار القوم وزعمائهم ينفذون الى الملك أفواجا مطالبين بقتل الزبير والاستيلاء على أمواله ، فأذن لهم الملك في ذلك بعد تردد طويل . على ان يتم ذلك بعد خروجهم من دأره ، وكان قد لفت نظيرهم البضائع والأموال الكثيرة التي كانت تفض بها مراكبهم . غير أن الزبير وصاحبه علموا بها كانوا يديرون . ومن ثم اتخذوا حذرهم من ذلك وباتوا يحرسون أنفسهم بالتناوب . وحين جاءت نوبة الزبير في الصباح الأول من الليل . شاهد الأسد مقبلاً من بعيد مرماه برصاص بندقيته ، فأراداه قتيلاً ، ولما رأى الملك والسكان الأسد مقتولاً فرحوا بذلك فرحاً شديداً لأن ذلك الأسد كان مسلطاً عليهم يفترس كل من يصادفه منهم حتى لم يعد يجسر احد على الخروج من بيته ليلاً ، أما الملك بكريم فقد عظم سروره من قتل الزبير للأسد حتى انه عقد له على اجسدي بنائه ورغبه في الاقامة معه في

جزيرته . فأتاهم عنده شهرا كاملا حتى اشترى جميع ما يلزمه من
المؤن ثم احتال على الملك وخرج من جزيرته بالركبين ميمما شطر
الخرطوم من جديد .

ولم تلبث الأقدار أن بدأت تلعب بحياة الزبير ومن معه مرة
أخرى ، فما كادوا يغيبون عن الجزيرة حتى ضلوا الطريق مرة
أخرى في نفس البحيرة المتسعة وتوالت الكوارث على الزبير ومن
معه ، وقد ظلوا تائهين حتى نفذ زادهم وطعامهم ، وتوالى بعد
ذلك سقوط رجالهم ضرعى الواحد تلو الآخر بسبب الجوع والانهك
والضعف الشديد الذى اتضح على وجوه الجميع مدا سسنة من
الرجال الذين أراد الله لهم النجاة مع الزبير وأبو عمورى . فقد
شاهدوا مركبا على بعد فاطلقوا عليها عيارا ناريا قصد الإشارة
الى مكانهم لانقاذهم ، ولم يهض الا القليل من الوقت حتى اقتربت
منهم تلك المركبة وبها عبد الرحمن أبو قرون من تجار بحر الغزال .
الذى قدم لهم ما يلزمهم من الزاد والكسوة وقد كانوا على بعد
خمسة أيام من مشرع الرق ، فساروا مبحرين اليه حتى وصلوه
في الثاني من صفر سنة ١٢٨٠ هـ الموافق التاسع عشر من يوليو
سنة ١٨٦٣ م فاجتمع الناس حولهم يهنئونهم بسلامة العودة ويعزونهم
فيما فقدوه من رجال ومناخ . ومن مشرع الرق انقضت المراكب
المقلة لهم الى الخرطوم مرة ثانية . فوصلوها في السابع والعشرين
من ربيع الأول من نفس السنة الموافق الحادى عشر من سبتمبر
سنة ١٨٦٣ م وهناك مكثوا في الخرطوم بضعة اشهر فباعوا في
خلالها تجارتهم ، واشتروا بثمنها تجارة أخرى مما يروج في تلك
البلاد وما يلزمهم من اسلحة وذخائر ورجال (٢٧) .

الزبير في بلاد النيام نيام ثانية (١٢٨٠ هـ - ١٨٦٣ م) :

وفي ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢٨٠ هـ الموافق التاسع والعشرين من إبريل سنة ١٨٦٤ م غادر الزبير الخرطوم في طريقه الى بلاد النيام نيام ، فوصل بعد مسيرة ستة عشر يوما في ٢٠ صفر سنة ١٢٨٠ هـ الموافق ٢٥ يولية ١٨٦٤ م الى قرية تقع على الطريق تسمى قرية شول (٢٨) ، وفي هذه القرية التقى الزبير بسيدة أوروبية نمساوية أو فرنسية ، لا تعرف على وجه التحديد جنسيتها ، وقد كانت مائنة ، عذبة الحديث ، فائقة الثراء وتدعى بين الاهالي هناك باسم السفيرة (٢٩) .

وقد وقع الزبير عليها في هذه القرية وهي قائمة أمام بيتها الكبير تضيع بعض الطيور لتتزع ريشها الأمر الذي تعجب له الزبير كثيرا ، وكان يقيم في هذه القرية وتحت امرتها مائة وخمسون من الجنود المسلحين بالبنادق . فلم يلبث الزبير ومن معه من أصحابه أن وانفقوا على صيد اثني عشر ليلا . اقنعوا هذه السيدة بمبادئة هذا العاج كله بأسلحة رجالها .

اقام الزبير ومن معه في هذه القرية أياما أخرى وقصصت السيدة الزبير في أن يصطاد لها خرتيتا ، فلم يتردد نورانجره مرافق الزبير في هذا الطلب واصطاد لها واحدا بالفعل ، فقد كان رجالها لا يجيدون الرماية وأقل مهارة في التصويب نحو الهدف ، وحدث أثناء اقامتهم هناك أن تونيت واحدة من خدمها وكلب لها فأمرت أن يحملها في تابوتين الى الخرطوم ، ثم لم تلبث هي بعد ذلك أن شددت رجالها عائدة بدورها الى الخرطوم (٣٠) .

وفي ٢٠ صفر سنة ١٢٨١ هـ الموافق ٢٥ يوليو سنة ١٨٦٤ م وصل الزبير الى بلاد النيام نيام وقدم للسلطان تكمة الذي

رحب كثيرا بعودته هو وزوجته الى بلاده ، مجموعة من الهدايا الفاخرة كان من بينها سلطانية شرية موشاة بالذهب سر بها مسرورا بالفا . حرص بعد ذلك أن يضعها فوق رأسه في المناسبات الهامة كأنها تاج ثمين واحتفالا بعودة الزبير أولم السلطان له وليمة فاخرة لم يكن طوال الولاية من الترحيب به ومن معه وعن ابداء اعجابه وزهوه بالتاج الجديد .

عاد الزبير بعد ذلك الى دار زوجته رائبوه وبدأ في الاتجار ، وكانت العادة قد جرت في تلك البلاد في أن يمرضوا للبيع في الأسواق أصحاب الجنائيات كالثمنوس والزناة . حيث يذهبون كالنعا ، وتباع لحومهم طعاما لمن يشترى . ولما بدأ الزبير يحس بحاجته لجمع عدد من الرجال حوله لتحقيق ما يجيش بصدرة من آمال . رأى أن ينتهز هذه الفرصة ويفتدي من الذبح من يراه أهلا لحمل السلاح من بين هؤلاء المذنبين ، ففعل حتى اجتمع عنده خمسمائة رجل اتعدهم من المصير الرهيب الذي كان ينتظرهم ثم سلحهم بالأسلحة . بعد أن دربهم على استعمالها ، فكان هذا بداية لعهد من الغلاقل والصعاب التي اكدوى بها الزبير في بلاد النيام نيام .

ساء الملك تكة ان تقو قوة الزبير الى هذا الحد وأوجس شرا من نواياه ، وهو يراه يصنع جيشا مسلحا لحسابه قد يكون خطرا على مملكته ، فاستشار كهنته الذين اشساروا عليه بقتل الزبير . غير أن ابنته رائبوه اخبرت بذلك زوجها سرا ونصحته بالرحيل عن بلاد أبيها ، ولكن الزبير لم يكن ليميل الى الرحيل ، ومن ثم نشط لعلاج الموقف بطريقة أخرى ، وهي التزلف الى الملك تكة بالهدايا الثمينة ، ولكن الموقف بعد ذلك لم يتغير . بالرغم من كل ما قدمه الزبير من هدايا . ولم يلبث أن وجد نفسه فعلا مضطرا الى الرجوع عن هذه البلاد التي لم يعد له فيها اقابة أو تجارة .

وقرر الزبير الرحيل مطلب من الملك أن يأذن له بالرحيل إلى بلاد الملك دوية زاعما له أنه قد بلغه كثرة العاج في هذه البلاد ، ورغبته في أن يذهب إليها برجاله لجمع ما يمكن جمعه منه . لكن تكمة لم يكن سائجا إلى الحد الذي يسمح للزبير فيه بالخروج من بلاده ، صطحبا معه هذا الجيش الجديد . فقد كان همه أن يجرده من هذا الجيش فسمح له فقط أن يذهب وحده وأن يترك الرجال من ورائه حتى يعود ، ولكن على الرغم من ذلك لم يياس الزبير وقرر التحايل عليه ، فزعم له أن بلاد الملك دوية غير مأمونة الجانب ويسببونها الظلم والفوضى وأنه يخاف من أن يراه أهلها ضميما فيقتلوه .

ونظرا لاصرار الزبير على السفر هو ورجاله تظاهر الملك بالموافقة ، وأوعز إلى جيشه أن يكمن سرا في الطريق ويقتلوه هو ورجاله ، وما كاد الزبير يغادر البلاد حتى وجد كميناً من رجال تكمة يتربصون به في الطريق ، ولكنه كان مستعداً لهذه المعركة المفاجئة ، فاطلق على رجال الملك تكمة نيراناً حامية لم يطيقوها ، فانهزموا أمامه سريعا وهكذا فتح الطريق أمام الزبير إلى بلاد الملك دوية فمضى إليها هو ورجاله (٣١) .

الزبير في بلاد الملك دوية (١٢٨١ هـ - ١٨٦٤ م) :

بعد أن انتهى الزبير من معركته مع جيش السلطان تكمة سار ومن معه إلى بلاد الملك دوية . وكان هذا الأخير عدواً للملك تكمة ، فلما علم بما حدث بينه وبين الزبير خرج لللاقياته وتحيته على مسيرة أربع ساعات من عاصمته ، وأنزله إلى جواره ، وبني له حصناً منيعاً من الخشب ، وأمدّه بالحبوب والمؤن ما يكفي رجاله لمدة طويلة .

أما الملك تكه فلم يلبث أن أرسل جيشا جرارا بقيادة عمه مريوه (٣٢) اتساع الرعب والذعر في بلاد دوية ، فذهب الأخير لللاقائه والاستعداد للمعركة الفاصلة غير أن الخوف والقلق لم يلبثا أن استوليا عليه فقبل أن تبدأ المعركة مر هو ورجاله خلسة مقسترين تحت جناح الظلام ، وترك الزبير وحيدا ، فلم أصبح الصباح تكشف له حرج موقفه الذي نجم من هذا المأزق . غير أن القدر شاء إلا يتخلى عنه في تلك اللحظة ، قد ساق له النجاة في السماعات الأخيرة ، على صورة لم يتوقعها أبدا إذ وفد عليه من الملك تكه وفد نقل له رسالة يبلغه فيها : « أن حرمة المصاهرة وسابق المودة تمنعان الملك من محاربتك ولكنه يرغب اليك أن تخرج من جميع بلاد الملك دوية التي أصبحت تحت سسلطانه ، وتذهب الى حيث تشاء ولك الأمان » فأجابهم الزبير الى ذلك ولم يتردد الزبير في قبول هذا العرض ومغلا جميع رجاله وخرج من بلاد الملك دوية قاصدا بلادا جديدة هي بلاد قولو — Golo حيث يقيم الملك عدوه شكو ندخلها في أول محرم سنة ١٢٨٢ هـ الموافق السابع والعشرين من مايو سنة ١٨٦٥ م (٣٣) .

وهكذا لعبت حرمة المصاهرة دورا مهما في منع السلطان تكه من قتال الزبير كما أن الجبن والخوف منع الملك دوية من قتال الملك تكه .

« الزبير وعدوه شكو وابنه شيجا » (١٢٨٢ هـ — ١٨٦٥ م) :

ومرة أخرى نجد الزبير في بلاد قولو — Golo في المرة الأولى كان قد مر بها وهو في طريقه الى بلاد النيام فيام بقصد التجارة ، أما هذه المرة فقد دخلها هربا من أن يبطش به السلطان تكه .

على أول محرم سنة ١٢٨٢ هـ الموافق السابع والعشرين من مايو سنة ١٨٦٥ م دخل الزبير بلاد تولو وكان ملكها عدوه شكو قد سبق أن غدر بمنصور أحد أخوة الزبير وقتله هو ورفاقه الذى كان الزبير قد أرسلهم معه للتجار فى بلاده كما أنه استولى على جميع أموالهم ، فكان طبيعيا أن يظن أن الزبير قد جاء للأخذ بشار أخيه ، وألا يسمح له بدخول بلاده ، وعيئا حاول الزبير أن يتوودد إليه بالهدايا مؤكدا له أن لا قصد له من اللجوء إلى بلاده سوى التجارة ، إلا أنه أصر على أن يغادرها ، وهدده بالحرب أن لم يفعل .

كان الفصل عندئذ شتاء ، والمياه تغمر البلاد وهناك إستحالة فى الرحيل من بلد لآخر . فسأله الزبير أن يمهله إلى أن ينقطع المطر وتفتح الطرق فرفض ، ومن ثم أخذ الزبير فى الاستعداد لحربه ، فقام ببناء قلعة حصينة على مساحة واسعة تقترب من ثلاثة أمدة ، وأحاطها بسياج من الأشجار المتشابكة التى قصد أن تكون من الضخامة والقوة بحيث لا يؤثر فيها إطلاق الرصاص ، واستغرق ذلك ثلاثة أيام ولم يلبث عدوه شكو أن أرسل من يستفسر عن سبب انشاء الزبير لهذه التحصينات وهل هى موجهة ضده أم لا ؟ فأجابه الزبير بأن هذه القلعة قد بناها بقصد الحماية من الحيوانات الضارية التى تحوم حولهم ، فبر أن هذا الرد لم يقتنع به عدوه شكو ، فأرسل مرة أخرى إلى الزبير يأمره بالرحيل عن بلاده ، فرفض الزبير ذلك فى حزم .

وبدا الملك فى جمع رجاله استعدادا للحرب . وقد رأى قبل أن يبدأ الهجوم أن يستعمل معهم طريق الحيلة والخديعة ، فأرسل إلى الزبير وصاحبه ذات صباح خمسمائة من خدمه يحملون له زقانا مليئة بالخمر علامة على الاحتفاء بهم راجيا أن يقبلهم

عملاً بأصول الضيافة العربية . غير أن الزبير رفض كل هذا وأدرك ما يريد هذا الملك من وراء هذه الهدية (٣٤) .

وعلى الفور أرسل الزبير إلى يونس سفيره لدى الملك عدوه شكو يستعجله في الرجوع إليه ، ولعملاً عاد يونس عدا الرجال الأربعة الذين كانوا معه ، فقد قتلوا بيد رجال عدوه شكو . وبدأ الزبير في الهجوم على قوات عدوه شكو واستمر القتال لبضعة أيام انتهت بانتصار الزبير ومصرع عدوه شكو نفسه .

غير أن ابنه شيجا أخذ مكانه وواصل القتال فلم يلبث بعد معارك قصيرة متتالية أن أثر الفرار والتجأ إلى جبل «سيراجو» (٣٥) على مدى تسعة أيام متتالية قام الزبير فيها بهاجمة مواقع شيجا في هذا الثل الحصين هجوما شديدا واستمر القتال بين الجانبين إلى أن جرح ساق الزبير جرحا بليغا في المرة الثالثة ، فاضطر إلى تأجيل الهجوم حتى يشفى من أصابته . وفي تلك الفترة هب أحد رؤساء القبائل المجاورة إلى معاونة الزبير وأرشاده إلى المسالك الخفية في الجبل التي يستطيع عن طريقها تطويق قوات شيجا والانتصار عليه فقتبعه هو ورفاقه لمدة ساعة ونصف في مسالك الجبل إلى أن وصلوا منطقة تكثر فيها الصخور الضخمة الفاتحة التي حاولوا أن يتسلقوها ففشلوا في ذلك مرتين وكالت هناك صخرة ضخمة عالية توجه إليها الزبير ومعه خمسة عشر رجلا وبدأوا في الصعود مع خمسة من الرجال بينما ترك الباقين أسفل الثل . وبعد أن أوصاهم أن يبدأوا هجومهم في الصباح بمجرد أن يطلق النار ، وصل الزبير ومن معه إلى قمة الصخرة مع أول خيوط الصباح ، وسرعان ما بدأت المعركة وهاجم رجال الزبير قوات شيجا من كل مكان ، وأخذت النيران تنصب عليهم من كل صوب فتولاهم الذعر والاضطراب ، فلولوا الأدبار ، وتم للزبير النصر عليهم في هذه المعركة (٣٦) .

وبهذا الانتصار دان له حكم هذه البلاد وجميع البلاد المجاورة حتى بحر العرب ، واتخذ بانيه التي عرفت بعد ذلك باسم « ديم الزبير » (٣٧) عاصمة له وبهذا أصبح ملكا ، وبدأ الناس يجتمعون حوله ويفدون عليه من جميع الجهات للانتظام في خدمته . ف جلب الأسلحة وجمع جيشا قويا ومضى يحكم البلاد طبقا لأحكام الدين الاسلامي . وبذلك بدأ العمران يفرز هذه المناطق حاملا معه للأهالي الأمن والرفاهية والسلام (٣٨) .

تجدد النزاع بين الزبير والسلطان تكه :

بعد أن تم النصر للزبير رحمة على محمد البلالى (٣٩) في ربيع أول سنة ١٢٨٨ هـ الموافق أبريل سنة ١٨٧١ م وتمكن من يسط نفوذه على بحر الغزال وما جاورها ، وتكوينه مملكة عظيمة وجيشا قويا ، لم يرق هذا الانتصار وهذا الملك للسلطان تكه ، وفي ذلك الوقت كانت شهرة الزبير كحاجر تفوق شهرة القجار الآخرين ، وقد اكتسب صداقة الزعماء وأهالي البلاد وكانت مصاهرته لهذا السلطان سببا في علو نجمه وسمو مقامه (٤٠) ولذلك أعلن السلطان تكه الحرب على الزبير . وكانت رانبوه مازالت في عصمة الزبير يرسل لها والدها كل عام هدية من العاج تبلغ الخمسين قنطارا إلى جوار مائتي رزق من المعسل ومائة أردب من السمسم ، فلما اشتهر ملك الزبير إلى جواره بدأ يمتنع عن إرسال الهدايا إلى ابنه ، ومناسبة الزبير العداء .

وفي أوائل سنة ١٢٨٩ هـ الموافق سنة ١٨٧٢ م سير جيشا لحاربه بقيادة عمه رانبوه الذي قام بالاعارة على أطراف مملكة الزبير ، غير أن الزبير لم يتحرك لقتاله إلا بعد أن تأكد له أنه يريد الاستيلاء على مملكته ويجعله يعود تاجرا كما كان . كان هذا بعد

أن تبادل الاثنان الرسل الذين أخبرهم السلطان تكمة أن الزبير يذهب ومن معه من حيث اتوا غير أن الزبير قال لهم « اذهبوا الى ملككم هذا وبلغوه بأننى ما كنت لانتازل عن ملك أسسنته بسيفى لمجرد تهديد أو وعيد ، فان كان يستصغرنى الى هذا الحد فليجرب معي قوته التى ان كان قد استطاع ان ينتصر بها على حفنة من المتوحشين وأن يلقى فى قلوبهم الرعب فانه لن يستطيع ان يفعل بقوته شيئا أمام اثنى عشر ألفا من جنود جيش المتشوقين للقتال » (٤١) .

وهكذا بدأت الحرب بينه وبين السلطان تكمة . ولم تنته سريعا كما قرر هو بل استغرقت ثلاثة عشر شهرا باكملها فعلى الرغم من ان اسلحة رجال تكمة لم تتعد السهام والسيوف . فانهم كانوا يتبعون فى نقل أخبارهم من قرية الى قرية طريقة الإشارة التى أرهقت قوات الزبير طويلا . وكانت طريقتهم فى هذا ان يلقب الرجال منهم فى محطات تبعد بعضها عن البعض مسيرة ساعة ونصف فإذا ما رأى الرجل منهم فى واحدة من هذه المحطات قوات الزبير وهى تشرع فى الزحف يادر بقرع أداة خاصة تسمى للرونجا (٤٢) ، فتلقى المحطة التالية هذه الإشارة وتقوم بدورها بترحيلها الى المحطة التى تليها ، وهكذا حتى تصل الى القرية المقصودة بالهجوم ، فيتم بذلك انذارها قبل وصول القوات بوقت طويل .

واستطاع الزبير فى نهاية الامر ان يخوض مع العدو بالرغم من نظام الاشارات هذا عدة معارك حاسمة انتهت بمقتل السلطان تكمة وعيه ماربوه ، ودان له ثمانية من كبار ملوك الفيام الذين كانوا فى حروب مستمرة بعضهم ضد البعض فلما تولى امرهم الزبير ألف بينهم ، وبسط الأمن بين ربوعهم ، فصاروا يتعاملون فيما بينهم بالبيع والشراء والمصاهرة ويسمخ من بجوارهم من

نمسود بأخبار عدل الزبير ، وما نال الذين دخلوا تحت طامته من
راحة والأمن وسعة العيش ، فاقبلوا عليه مقدمين عروض الطاعة
برغبتهم في أن ينصب عليهم الزبير حكاما من قبله فأجابهم الى
لك واتسع نطاق ملكه اتساعا عظيما .

وعلى الرغم من ظروف الحروب التي خاضها مع العديد من
سلاطين وملوك الجنوب ، فإنه لم يهمل أمر تجارته بل على
العكس من ذلك تابعها في توسيع كبير حتى أنه قام برحلة طويلة
الى الجنوب والغرب من ديم الزبير استغرقت ثلاثة عشر شهرا
حفا من العاج في تلك المناطق ، وفي هذه الرحلة وصل الى ارض
يكي فيكي وهي على مسيرة تسعة أيام الى الغرب من إقليم
ونياتو وكان يقطنها قوم من الاقزام ذوي الاجسام الغليظة واللحم
لمسترسلة ، وكانوا يقصونها بطريقة معينة حتى لا تتسلسل الى
لأرض ، وكانت جماعة الزبير في هذه الرحلة تتكون من خمسة
وسبعين رجلا وكانوا يقايضون بالخرز كل ما يلزمهم من الاقوات
يسن الفيل . وقد وصلوا في احدى جولاتهم في تلك المناطق
الى إقليم يسمى أبو دنجا(٤٣) ويقطنه هو الآخر قوم من الاقزام
زرعون الخرز في الأرض على أنه حب من الحبوب ينبت بالزراعة ،
سعلمهم الزبير واتباعه كيف يستخدمونه ، وكانوا يدينون بالاسلام
يخرمون على الصلاة وختان الصبية(٤٤) .

واذا القينا نظرة على حياة الزبير في هذه المرحلة نجد
قد ألقت به ظروف حياته في هذه الرحلة من صمره الى ميادين
القتال والحروب فعاش فيها باحساسه وانفعالاتها . ويتلخص
التغيير الذي حدث في حياة الزبير في تلك الفترة في التمسك
الاحمية :

أولاً : حقيقة يجب أن يذكرها التاريخ والمهتمون به هي أن الزبير كان ضمن أوائل التجار المغامرين الذين طرّقوا أبواب الجنوب وسمّوا إليه مع بداية ازدهار وتجارة العاج ، وغيرها من حاصلاته طلباً للثروة والسلطان ولم يكن لاي فرد أن يقوم بذلك الا من توافرت لديه القوة والشجاعة . لأن ما عرف عن هذه البلاد بما تضمه من قبائل هجيرة اختص بعضها بعادات غريبة منها الجفوح الى النمنية كانت بمثابة الحائق المثبط لهم الكثيرين والتخلي عما يراودهم من أفكار وذلك لعدم توافر الشجاعة والجرأة لديهم . علاوة على الكثير من المساحات الشاسعة التي تكسوها الغابات الاستوائية والأجراش الموحشة ، وما تضمه هذه الغابات والأجراش من مخاطر وأهوال يحسب لها الانسان ألف حساب ، وقد كانت هذه الصفات متوافرة لدى الزبير بدرجة كبيرة .

ثانياً : ان من ينظر الى الجنوب بقبائله وأجراشيه وغاباته وحيواناته يشفق على نفسه من أن يجتازه منفرداً خشية الوقوع ضحية الأخطار التي تكمن في تلك الأصقاع لذلك اصطحب التجار الذين ارتادوا هذه المناطق العديد من الاتباع المسود الذين استأجروهم أو اشتروهم بغرض الحماية لأنفسهم من مخاطر الطرق ، وليكونوا لهم عوناً في نقل ما يحملونه من بضائع ، وليتخذوا منهم مرشدين وأدلاء في رحلاتهم عبر هذه المناطق ، هكذا كان الهدف من شرائهم أو استئجارهم . ولم يكن قصد جميع التجار استرقاقهم كما كان يعتقد . وهذا هو الذي فعله الزبير حينما قصد الجنوب مع رطل من هؤلاء فكانوا له خير عون ، وكان لهم نعم الأخ والصديق . لذا وجب أن ننفي بشدة ما التصق به من تهمة الاتجار في الرقيق . لأن الجنوب بحاصلاته وموارده مثل العاج وربش النعام وغيره كان متسماً لأن يتجر فيه أي انسان دون أن

يمير انتباهها لسلعة أخرى كالرقيق مثلا . وان وجد هناك من التجار
من كان يتجر في الرقيق بالبيع والشراء .

ثالثا : ان من يعرف الاصلاص العربية العريقة التي احدث
منها الزبير يتأكد له مدى حرص هؤلاء القوم على احترام النيس
البشرية ، وهذا يدعنا للقول بأن القصد الذي انتهى اليه مؤرخي
الغرب من أن رحلات الزبير الى الجنوب كان القصد منها الاتجار
في الرقيق (٤٥) ينتهي تماما أمام هذه الحقيقة التاريخية ، لذلك فان
ما اشتراه الزبير من رجال سود أثناء اقامته ببلاد السلطان تكمه
كان معظمهم من المجرمين والمنبوذين من المجتمع ، الذين كانوا
ينفطرحهم القتل عقابا لما اقترفوا من جرائم ثم التهام لحوم اجسادهم ،
تكان القصد من شرائهم هو انقاذ حياتهم أولا ، وفتح سبيل
العيش الكريم لهم . ولأن معظمهم من أشداء القوم وأصلبهم
عودا فكان أن اشتراهم الزبير لكي يكون منهم جيشا مسلحا
بالبنادق يستطيع حمايته وحماية تجارته من بطش سلاطين الجنوب ،
الذين ما برحوا يضربون الخناق عليه في كل مكان فيه أمثال
السلطان تكمه وعدوه شكو . وابنه شيجا ، وغيرهم ممن لم
يذكرهم التاريخ .

رابعا : كان لطبيعة الزبير السمحة وما اتصف به من كرم
ورجاحة في العقل اثره في طبع معاملاته وتصرفاته وسلوكه مع
سلاطين هذه البلاد بالطابع المحمود الذي أدى به في النهاية الى
اكتساب صداقة هؤلاء الزعماء في سهولة ويسر وأدت أيضا الى أن
يعرض هؤلاء السلاطين على الزبير شرف تزويجه من بناتهم
وانتسابهم اليه ، فقد رايناه قد تزوج رانبوه ابنة السلطان تكمه
وابنة الملك كريم . وهذه الرابطة رابطة النسب وصلة الدم
استطاع أن يكسب تأييد وصداقة هؤلاء الملوك والسلاطين ، فقد

منعت حرمة المصاهرة السلطان تكبه من قتال الزبير في المرة الأولى .

خامساً : لم يقصد الزبير عندما دخل بلاد الملك عدوه شكراً الانتقام لما حدث لأخيه ومن معه على يد هذا السلطان ، بل كان قصده التجارة ، ولكن إصرار عدوه شكراً على ضرورة مغادرة الزبير لبلاده — في وقت كانت فيه الأمطار تهطل فيه بغزارة والطرق كلها مغلقة — مما أرغم الزبير على حربه آنذاً لنفسه ومن معه والاستيلاء على بلاده . بل كان هذا سبباً في تكوينه لمملكة عظيمة في تلك المناطق مع جيش قوى وتجارة ناجحة رابحة .

هوامش الفصل الأول

- (١) Shukry M.F. The Khedive Ismail and slavery in the Sudan (1869 — 1879) PP. 104, 147.
- (٢) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ١٦ .
- (٣) Jackson, H.C. : The black ivory and white PP. 5 — 6.
- (٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٦ — ١٧ .
- (٥) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٧ — ١٨ .
- (٦) الجانكاه Janket ويسكنها قبائل الجانكي وهم فرع عظيم من الدنكا وأكبر قبائل بحر الغزال وأشدهم بأسا وأطولهم قلبة وسكانهم السهول الناطقة الشمالية .
- (٧) الجور : ويلادهم بين الدنكا والهنكو وهم يرجعون من أتسبهم إلى الشك ويتكلمون لغتهم ولا يحنون بالثناء الإقرار كثيرهم من السسبود بل يهتمون بالزراعة ويشغلون بالصيد ولهم معرفة بحفر الخشب وحمل التماثيل .
- (٨) الزريبة : من غشاء مسور به مساكن يودع فيها التجار السلع والأمتعة والخيل والملحبة الخاصة بهم .
- (٩) سن النيل : وأكثر وروده من بحر الغزال وخط الاستواء وهي تغطي في الجودة بحسب كبره وسالته من التشقق ومن الأتلى أطرى وأجود من سن الذكر .
- (١٠) ريش النعام : وأكثره من أواسط السودان وأجود أنواعه الريش الأبيض ثم الأسود وكلاهما ريش الذكر ثم الزيدة ولونه رمادي وهو ريش الأنثى .
- (١١) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٨ — ١٩ .
- (١٢) نعوم شعير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج ٢ ص ٦١ — ٦٢ .

Jackson, H.C. : Op. Cit., PP. 9 — 12. (Golo) (١٣)

(١٤) النولو : وهم من غرب قبائل البنغو ويشيبيونيم في هضابهم وأخلاقهم ومساكناتهم .

(١٥) أم الصواب : وهي التسمية التي يطلقها سكان هذه المناطق على أشجار الغاب التي تنمو على سفوح بحر الغزال ويكثر العرب وكان يحدث أن تطلع الرياح التي تصاحب موسم الابطار هناك هذه الأشجار وتلقيها في النهر فتسحب مع مياهه التي أن تصل إلى أحد متصرفاته التي تعوق ثقلها فتقلد وسرعان ما جودت جفورها إلى أسفل حتى تلحق بقاع النهر وهكذا تثبت في مجراه وتعود بنورها أقمار الأشجار والأعشاب المائية في المياه فتتجمع هذه من حولها ويتكون من الجميع سد عريض قد يمتد في النهر لعدة أميال طويلة .

(١٥) البنغو Bongo ويسكنون السهول المرفوعة جنوبهم وهم ارتقوا قبائل بحر الغزال بل هم في رأي كونغورث الآلهة ارتقوا عقلا من سائر قبائل السود ، ويمتازون عنهم بالوداعة ولين الجانب وحب العمل والبرق بينهم وبين جيرانهم الدنكا في اللون كنسبة الفرق بين غربة القبيلة الواحدة وتربة الأخرى تربة البنغو حمراء فاتحة فيما من الحديد وتربة الدنكا سوداء إذ لا حديد فيها . ولذلك ترى لون الدنكا أسود حالكا ولون البنغو أحمر غامقا وهم يستخرجون الحديد ويستغلون به

Jackson, H.C. : Op. Cit., PP. 12 — 14. (١٦)

(١٧) هـ . س جاكسون (ترجمة عزيز يوسف عبد المسيح) فردون باشا من ٦٥ — ٦٦ .

Jackson, H.C. Op. Cit., P. 14. (١٨)

(١٩) محمد عوض محمد (دكتور) : الشعوب والسلالات الأفريقية ص ١٨٨ — ١٩٠ ، ١٩٢ .

(٢٠) إبراهيم فوزي : السودان بين يدي جوردون وكشفه ج ١ ص ٢٢ .

(٢١) نورانجره Nur Angra نيز بطول الغامة والسواد الذي يغرب إلى اللون الأسود النحاسي وعلى خفيه ثلاثة بطون طويلة ، ويتميز بنظرة حادة صارمة تلم من فترة ونشاط ولكنه عندما يتحدث يبدو كأنه أنسان مسالم طيب . وهو متغلب كان قد أحضر بواسطة ملك الشاهية الذي كان يعمل كسفير ، وبدمى نورانجره أنه ينحدر من سلالة ملوك الشاهية عندما انحسرتوه وهو طفل إلى القاهرة . وقد حصل على كثير من السمعة والتوسية الطبية من الحكومة بسبب اتصاله وارتباطه بكل من الوزير رحمه وأبنته من بعده .

(٢٢) Jackson, H.C. : Op. Cit., PP. 14 — 17.

(٢٣) نهر الينقو : واحد فروع بحر الفزال .

(٢٤) نعوم شخير : المرجع السابق ص ٢ — ٦٤ .

(٢٥) النورابين : وهم يسكنون بين بحر ست وبحر الفزال وفي بلادهم يسبح النيل وتكثر السدود والمستنقعات حتى أن بعضهم يسكنون الجزر فيعيشون على الأسماك والنباتات والطيور المائية .

(٢٦) نعوم شخير : نفس المرجع ج ٣ ص ٦٤ .

(٢٧) نعوم شخير : نفس المرجع ج ٣ ص ٦٤ — ٦٥ .

(٢٨) شول : كانت امرأة من أثرياء قبيلة دنكاوية تسمى دنكا ومارال الأمازيغ حتى اليوم يتحدثون عن قوتها وبطشها بل عن بشاعة خطتها أيضا .

(٢٩) السنيورة : وهي الترجمة للكلمة الإسبانية — *Senora* ومعناها سيدة ويقابلها في اللغة الإيطالية كلمة — *Signora* ومعناها أيضا السيدة .

(٣٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٢٦ — ٢٧ .

(٣١) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٢٧ — ٢٩ .

(٣٢) أومخبوء كما ورد في كتاب نعوم شخير ص ٦٦ سطر رقم ٥ .

(٣٣) نعوم شخير : المرجع السابق ج ٣ ص ٦٦ .

(٣٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٤٠ — ٤١ .

(٣٥) سيراو : وهو تل طويل يبلغ مرصه حوالي الميل ويكون من صخور حادة ناعمة تغلفها هنا وهناك مناطق من الأرض الخصبة التي تتجمع فيها الأماني ليقوموا بالزراعة حول مياه الينابيع المنفجرة التي كانوا يشربون منها ويمسكون أرواسهم .

(٣٦) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٤١ — ٤٢ .

(٣٧) ديم الزبير : وقد عرفت باسم بابه أما كلمة ديم — *Dehm*

معناها اللخوي دهم — *Dehm* وهي كلمة يطلقها الخرطوبيون على أسواق تجارة المعيد والمعاج الكبيرة التي يقعونها في الغرب . وهي تعني الزريبة أما ديم الزبير فهي العاصمة التي اتخذها الملك وبنى لنفسه فيها زريبة تقع على ارتفاع ٢٢٨٣ قدما فوق سطح البحر أو على ارتفاع ٤٦٤ قدما من زريبة باسولي وغطاس و ٧٢٧ قدما من ارتفاع المستوطنة الرئيسية لغطاس *Ghattas* وهي أعظم ضياع أو مقاطعات نجار الرقيق . وقد عرفت أحيانا باسم ديم سليمان وهي مقسمة إلى ثمانية أقسام كل قسم منها يرأسه ناظر .

- (٣٨) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٤٢ .
- (٣٩) انظر تفاصيل موضوع حملة محمد البلالي الفصل الثاني .
- (٤٠) عبد الرحمن زكى : اعلام الجيش والبحرية في مصر أثناء القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٢ .
- (٤١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٦٣ - ٦٤ .
- (٤٢) الرونجا : عبارة عن قطعة كبيرة من الخشب المجوف على هيئة البقرة أو الفيل ترفع بواسطة ثلاث شعب من المطاط ويستطاع بواسطتها أن توجه إلى أهداف شاسعة مختلفة الانسارات كالدموع للحرب أو الحصاد أو صيد الفيلة وكان لهم في هذا شجرة خاصة يفهمها الاهلى في مختلف قراهم .
- (٤٣) أبو دنجا : وهو اسم يطلق على شعب زنجى مختلف تماما على نمط شعوب الغيام نيام ويجرى بالاقليم الذى يسكنه هؤلاء القوم نهر يطلق عليه الخرطوميون اسم بحر ابودنجا على مسيرة يومين ونصف من داريندا وكان هذا النهر معروفا جيدا للزبير وجناده الذين كانوا يقومون بزيارة سنوية للكاليم الذى يسكنه هذا الشعب الذى يطلق عليه ابودنجا .
- (٤٤) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٦٤ - ٦٥ .
- (٤٥) انظر الفصل التالي تفاصيل موضوع تجارة الرقيق .



الفصل الثمانى

الدور الذى لعبه الزبير فى بحر الفزال
وبلاد شكا

الدور الذى لعبه الزبير فى بحر الغزال وبلاد شكا

لم يقتصر دور الزبير على المشاركة فى الأحداث التى وقعت فى بحر الغزال فقط ، بل تحمل أعباء فتح هذه المديرية وتأمينها من الأخطار التى كانت تحيط بها من كل جانب ، والعمل على عمارتها ونشر العدل والسلام بين ربوعها ، وهو بعمله هذا أضاع إلى مصر أراضى جديدة لم تكن لها من قبل .

موقف الحكومة المصرية من تجارة الرقيق فى السودان :

كان الرق موجودا فى السودان قبل فتح محمد على ، وكان السودان مصدر الرق إلى مصر وبلاد العرب قبل أن تدخل الجيوش المصرية مملكة سنار ، وكان العمل فى الحقول ورعاية الماشية من عمل الرقيق ، وليس من أعمال السادة العرب ، وكان الرق يمثل نظاما اجتماعيا ، وإذا كان محمد على قد قرع بفتح السودان لتزويد الجيش المصرى بهاجته من المحاربين من السودانيين (١) فإن الحكومة المصرية توقفت بعد ذلك عن إرسال الغزوات إلى السودان للحصول على الرقيق بعد ثبوت عدم إمكان استخدامهم فى الجيش المصرى ، كما بدأت تغير سياستها ، فأتجهت نحو

التوسع بفيية محارية هذه التجارة ، الا ان هذه السياسة لم لها النجاح الكامل وكان ذلك لأسباب كثيرة منها :

أولاً : في الوقت الذي بدأت فيه مصر تنفذ هذه السياسة كانت هنالك بعض حكومات في أوروبا لاتزال تمارس التجارة (٢) .

ثانياً : ظل عدد كبير من التجار الأوربيين يعارضون حكوماتهم مدة ليست بالقصيرة على الرغم من وجود الأساطيل البريطانية في مياه المحيطين الهندي والاطلنطي لضبط السفن تحمل الرقيق ، وتقدم هؤلاء التجار الى المحاكمة .

ثالثاً : كان الرق في السودان جزءاً من نظام اقتصادي عليه الحياة الاقتصادية في هذا الجزء من العالم .

رابعاً : بعد مراكز تجارة الرقيق عن حكومة القاهرة وانعدام المواصلات السريعة مما جعل الأسراف القاهرة سياسة الالفاء وأمر الحكم في السودان يكاد يكون متعدياً (٣)

خامساً : استمرار الصيادين في غزواتهم الموثقة مستخدمين الأسلحة النارية وهي أسلحة فتاكة ليس في الأماكن مقاومتها جانب الرقيق ، الذين كانوا يقاومون بعض المقاومة عندها الصيادون يستخدمون الحرايب والسيوف .

لذلك لم يكتب النجاح لسياسة الحكومة المصرية ، و الحال على ما هو عليه بل ان الأمور أخذت تسير من سيء لسيء ، وفي عهد محمد علي أيضاً اقترح أحمد باشا المنكلى

عدة نظم لاحتكار تجارة النيل الأبيض بواسطة الحكومة فى مصر ، ولكن محمد على لم يوافق عليها منعا لاحتجاجات الأوروبيين الذين بدأوا يمارسون تجارة العاج والمواد الأخرى المصرح بها ، وفى ظل حكم عباس الأول (٥) انشئت القنصليات الأجنبية وتبع ذلك تعمق التجار الأجانب نحو الجنوب بطريق النيل الأبيض ، وزيادة عددهم ، ونشاطهم الذى امتد الى نهر السوبات ، وبحر الغزال ، وغندكرو . وفى عهد سعيد (٦) التحق فى خدمتهم مدد كبير من السودانيين الفارين من دفع الضرائب الباهظة التى لم يكن فى مقدورهم تحملها ، وخاصة سكان دنقلة . انتهز التجار المصريون الفرصة فبدأوا ينشئون الضرائب ، واستخدموا هذه العناصر الجديدة لحمايتهم وحماية تجاراتهم ومحطاتهم وفى البداية كانت التجارة الشرعية فى مواد وحاصلات الجنوب هى المورد الأساسى فى عمليات الكسب ، ولكنهم سرعان ما أدركوا أن اصطياد الرقيق وتصديره للخارج أجدى وأنفع من التجارة المصرح بها ، وتبعاً لذلك أصبح التجار يقومون بغزواتهم بهدف اصطياد الرقيق من الزنوج مستندين فى ذلك الى زرائبهم التى اعتبروها كحصون لهم ، واستعان هؤلاء التجار سواء من العرب أو الأجانب بقبائل موالية للأغارة على قبائل أخرى معادية لها ، وأصبحت المراكب تحمل بدلا من العاج الأبيض عاجا أسود ألا وهو الرقيق ، ومر الرحالة على هذه الأقاليم ، وهى خالية من سكانها الذين اتقدم هؤلاء التجار حريتهم وأديبتهم ، وجعلوهم سلعة تباع وتشترى ، وقد وصل هؤلاء التجار الى القمة من حيث الجشع وحب جمع المال وقد ذكر الرحالة والمكتشفون كل ذلك فى مذكراتهم وتقاريرهم التى قدموها لحكوماتهم (٧) .

تولى اسماعيل باشا (٨) حكم مصر ، وحالة تجارة الرقيق كما هى بعد أن فشلت الإجراءات التى اتخذها من سبقوه فى الحكم ، فعزم على المضى قدما فى سياسة الإلغاء . وبدأ يتخذ

من الوسائل ما رآها كهيئة لتنفيذ السياسة وكان للفاعلية والجدية اللذين تميزت بهما جهود اسماعيل باشا . لتنفيذ ما اعتزم عليه .
الفضل الأول في الحد من هذه التجارة شيئا فشيئا ، بل انها كادت تختفى في بعض المناطق بفضل هذه السياسة ، أما الاجراءات التي اتخذها اسماعيل باشا لتنفيذ سياسته فنتلخص في الآتي :

أولاً : فرض موسى حمد باشا (٩) أول حكام دار في عهد اسماعيل باشا . ضريبة سميت « بالسوبركو » على كل بحار أو عامل على المراكب التي تسير في النيل الأبيض .

ثانياً : تشديد الرقابة على النيل بالوابورات الحكومية ، حتى لا تهرب المراكب المهربة عن انظار الحكومة .

ثالثاً : كان لضرورة السيطرة على المراكب القادمة من بحر الغزال ، وبحر الجبل ، ونهر السوياط ، انشاء مدينة بها حماية قوية في موقع استراتيجي يكون عند ملتقى هذه الطرق الملاحية الثلاث ، فكان انشاء فاشودة كعاصمة لمديرية البحر الأبيض خطوة مهمة .

رابعاً : تم حظر ارسال أو توريد كافة أنواع الأسلحة والذخائر الى هذه المناطق حتى لا يقوى أصحاب الزرائب على المقاومة .

خامساً : منع قنصل الدول الأوربية من اضاء أي نوع من أنواع الحماية على من يسعى استخداما من التجار .

سادساً : العمل على شراء الزرائب من التجار ، وبلغ ما دفعته الحكومة في عهد جعفر باشا مظهر (١٠) ما يزيد على المائة ألف جنيه ، ولكنها لم تستطع الاستمرار في المحافظة عليها .

سابعها : السيطرة على المنافذ الرئيسية لتصدير تجارة الرقيق
بالحقاق ميناءى سواكن ومصوع على البحر الأحمر بإدارة السودان،
وبذلك أكن مضبوط الارسلالات الكبيرة من الرقيق المصدر .

ولم يطق التجار الصبر على هذا الوضع ، بل أخذوا فى
التحايل للتهرب من هذه الاجراءات فكان من نتيجة ذلك ان :

أولاً : استمر التجار فى السيطرة على المنابع الرئيسية لهذه
التجارة البشعة التى لم يكن لسلطة الحكومة فيها أى أثر .

ثانياً : بدأ التجار فى مراوغة الدوريات النهرية المسلحة
التي عينتها الحكومة لضبط هؤلاء التجار ورقيقهم . وينزلون
رقيقهم فى أماكن بعيدة من نقط المراقبة ، ويسوقون سسلعتهم
بعدها عبر الجزيرة الى الشرق عن طريق الموانئ الصغيرة التى
لا تخضع لإدارة الحكومة .

رابعاً : التجا بعض تجار الرقيق الى استخدام الرشوة
لتسهيل أعمالهم ، وخضع لذلك بعض ضعاف النفوس من موظفى
الحكومة بالسودان .

خامساً : أصبح من الصعب على الحكومة فرض سيطرتها
على هذه البقاع الشاسعة التى تضم الغابات والأحراش الكثيفة
والمجارى المائية المتسعة ، يضاف الى ذلك انعدام وسائل الاتصال
والمواصلات بين هذه الأجزاء المتباعدة (١١) .

وعندما عين السير صمويل بيكر — SS. Baker (١٢) .
حاكماً لأعالى النيل نص فى البند الثانى من عقد استخدامه ، أن
يكون القضاء على تجارة الرقيق من اختصاصه ، واستعمل السير
صمويل بيكر التمسى وسائل العنف ضد تجار الرقيق ، مما أثار
عليه نائرة الأهالى الذين لهم مصالح فى استمرار هذه التجارة

البخيفية ، ولكن ما انتهت فترة عقده مع الحكومة حتى أدى ذلك إلى مودة الحال إلى أسوأ ما كان عليه ، وفقدت الحكومة معظم نفوذها وسلطاتها في تلك الانحاء ، فرأت الحكومة أنه لا بد من إيجاد خلف قوى للمسير سمويل بيكر يستطيع أن يجد مخرجا لهذه المشكلة المتفاقمة في الشرق ، فكانت أن عينت جوردون - Gordon (١٣١) حاكما على مديرية خط الاستواء في فبراير سنة ١٨٧٤ وبدأ جوردون منذ لحظة توليه زمام الأمور في هذه المنطقة في اتخاذ الإجراءات الكفيلة بالقضاء على هذه التجارة فكانت كالآتي :

أولا : ادخال السفن الحكومية إلى بحيرتي البرت وفيكتوريا لامكان مقاومة تجارة الرقيق ، وفتح أبواب البلاد للتجارة المصرح بها .

ثانيا : أصدر تعليماته باحتكار تجارة العاج لحساب الحكومة .

ثالثا : حظر السفر إلى الجنوب لأي شخص ماعدا من يحمل تصريحاً بذلك .

رابعا : قام بحل الجماعات المسلحة داخل المديرية .

خامسا : قام كذلك بإنشاء عدد من النقاط والمحطات العسكرية على طول النيل الأبيض الأعلى .

سادسا : أصدرت الحكومة المصرية قرارا في فبراير سنة ١٨٧٢ باحتكارها لكل أنواع التجارة في أقاليم النيل العليا وعادت مشكلة تجارة الرقيق إلى ما كانت عليه ، عندما ترك جوردون وظيفته كحاكم لمديرية خط الاستواء وأصاب الجهود المبذولة للقضاء عليها بعض الجمود والتور ، ماعدا ما قام به الزبير ،

نقد قدم ولاءه للحكومة ، وامتنع عن ممارسة هذه التجارة واشترك مع اسماعيل باشا أيوب (١٤) في فتح سلطنة دارفور باعتبارها مركزا مهما من مراكز تجارة الرقيق (١٥) .

عزم الخديو اسماعيل باشا على مواصلة جهوده من أجل حسم أمر هذه المشكلة الشائكة بجانب ما ظهر من مشاكل أخرى من السودان في هذه الآونة ، وذلك انتقاذا لجهوده السابقة ، وما أنفقته من أموال طائلة في هذا السبيل ، كما أن تراجعه عن مواصلة هذا السعى كان يعنى تنازله عن جزء كبير من نفوذه ، وكان الخديو مثله في ذلك كمثل رجل أعمال تعدى نشاطه حدود امكانياته وأصبح مهددا بالافلاس ، ولكنه يصر على مواصلة نشاطه على أمل أن يواتيه الحظ ، فإذا كانت تجارة الرقيق لم تؤت أى أرباح فلان هناك مصادر طبيعية أخرى يمكن أن تأتى بعائد مثل تجارة العاج ، وعلى الرغم من أن الأميال كانت تصاد بأعداد هائلة إلا أنه كان لا يزال هناك المزيد من الفيلة ، كما أن الطلب شديد على العاج من أجل صناعة كرات البالياردو ، ومفاتيح البيانو ، والتماشيل، وكانت تجارة الصمغ العربى ، وريش النعام تدر ربحا وفيرا بالأضمانة إلى منتجات أخرى عندئذ خيل للخديو اسماعيل أنه لا منقذ للبلاد من هذه المشكلة سوى صديقه جوردون ، فأرسل إليه برقية في السابع عشر من يناير سنة ١٨٧٧م يستدعيه لهذا الغرض ، ولم يأت فبراير من نفس العام حتى كان جوردون في القاهرة ، كانت شروطه أن يكون حاكما على السودان كلها . مليون ميل مربع . وأن تكون له الحرية الكاملة في القضاء على تجارة الرقيق . موافق الخديو على شروطه في الحال ، وكتب سير أيفلين بارتج (١٦) S. Evelyn Barin الممثل البريطانى في القاهرة يقول حتى إذا افترضنا أن الخديو كان مخلصا في رغبته في القضاء على تجارة الرقيق واصلاح السودان ، فقد كان من المؤكد أنه لا يستطيع تحقيق

ذلك . وكتب الخديو لجوردون يطلب منه استخدام كل ما منحه من وسائل القوة ، واتخاذ أى إجراء يراه ضرورياً ، فكان هذا ما قام به جوردون فعلا فى السودان (١٧) .

وفى الرابع من صفر سنة ١٢٩٤ هـ الموافق الثامن عشر من مبرابر سنة ١٨٧٧ م صدر فرمان بتعيين جوردون حاكما لعموم السودان (١٨) ووصل جوردون الى الخرطوم فى مايو سنة ١٨٧٧ م ، وبدأ يمارس مهام وظيفته الجديدة باتخاذ عدة إجراءات منها :

أولا : طرد كل من شك فى إخلاصه من موظفى الحكومة بشأن تحرير الرقيق ، واستبدل بهم موظفين أوروبيين (١٩)

ثانيا : استطاع بالتعاون مع رومولوجسى (٢٠) فى مطاردة تجار الرقيق بمنطقة بحر الفزال ، أحد المراكز الرئيسية لهذه التجارة والقضاء القبض على ثلاث وستين قافلة وتحرير أكثر من ألفى فرد من الرقيق .

ثالثا : طرد حوالى أربعمائة وسبعين تاجرا للرقيق فى يوم واحد أثناء زيارته لأحد الأقاليم (٢١) .

وبينما جوردون يجتهد فى علاج مشكلة الرقيق ، كانت المفاوضات ما تزال قائمة بين الحكومتين البريطانية والمصرية منذ مدة أربع سنوات ، من أجل اتخاذ قرار حاسم للقضاء على هذه التجارة ، وقد انتهت هذه المفاوضات بإبرام معاهدة إلغاء الرقيق (٢٢) فى الرابع من أغسطس سنة ١٨٧٧ م (٢٣) .

ورغم كل هذه الجهود والإجراءات التى اتخذت من قبل « المسئولين فى كل من القاهرة والخرطوم » للقضاء على مشكلة تجارة الرقيق ، إلا أنها لم تسبب عن نتيجة كاملة للنجاح ، بل استمر الكثير من التجار يمارسون هذه التجارة وزاد على ذلك أنهم

كونوا فيما بينهم جماعات مسلحة أشبه بالمعصابات لحماية متاجريهم ،
والضرب بها على الأيدي التي تمس تجارتهم بسوء ، فكان من نتيجة
ذلك أن الحكومة رأت أنه لا حل لهذه المشكلة إلا بضم هذه المناطق
وأخضامها بالقوة العسكرية لسيطرة الحكومة . فكانت بداية ذلك
ضم منطقة بحر الغزال .

التفكير في ضم بحر الغزال (٢٤) :

أصبح ضم منطقة بحر الغزال أمرا لا مئاس منه ، وخصوصا
عندما فشلت الجهود التي بذلتها الحكومة في سبيل القضاء على
تجارة الرقيق في مناطق جنوب السودان ، وخاصة منطقة بحر
الغزال باعتبارها أحد المراكز الرئيسية لهذه التجارة التي يتجمع
فيها كل من التجار والرقيق معا ، وقد ساعد على استفحال أمر
هذه التجارة بعدها من مراكز السلطة الحكومية ، وضعف السيطرة
على طرق تهريب الرقيق منها إلى بقية أجزاء السودان وخارجها .

وحتى سنة ١٨٦٩ م الموافق سنة ١٢٨٦ هـ لم يكن الحكام
المصريون في السودان يميلون إلى استخدام العنف في محاربة
تجارة الرقيق إلا عند الضرورة القصوى ، وكان ذلك يتم بمنتهى
المهارة والحكمة ، وذلك بدفع التجار بهاجمة بعضهم البعض ،
بدون أدنى تضحية من جانب الحكومة ، مؤكدين في نفس الوقت
سلطانهم عليهم . ولكن منذ هذه السنة أحس تجار الرقيق في
بحر الغزال بقوتهم ، غرّبوا في تحدى الحكومة المصرية ، بالامتناع
عن دفع المبالغ السنوية المقررة عليهم للحكومة . وولوا أمرهم
إلى الزبير رحمة ، الذي ذاعت شهرته في جميع أرجاء السودان ،
وأصبح أكبر شخصية سودانية ظهرت في القرن التاسع
عشر (٢٥) .

وقد توالى بعد ذلك الاتهامات الموجهة ضد الزبير على اعتبار أنه المحرك لهذا العصيان ، وأنه عندما أصبح التجار تحت قيادته رفضوا دفع الضريبة السنوية ، وساد شعور في القاهرة في هذه الآونة بأن جرائم هؤلاء التجار قد استفحل أمرها لدرجة يستحقون معها النصاص . وكان للزبير احترامه وتقديره حين كان في أوج قوته وعلى رأس هذا التحالف الذي يجمع تجار الرقيق ، كان يجب أن يتباهى بهذه البطانة من الاتباع ، كملك تهرس على السلطة في أقاليم واسعة بفضل جيش قوى . وفي أوائل سنة ١٨٦٩ م كان الزبير بالفعل الحاكم المستقل بأقليم بحر الغزال وقد صمم الخديو اسماعيل على تأكيد حقوقه في تلك الأصقاع وقمع ثورة هؤلاء التجار الذين تمردوا ورفضوا دفع الضرائب (٢٦)

وقد كان لظهور الزبير رحمة . الذي كان معروفاً بالبائسا الأسود والملك والسيد لثلاثين محطة تجارية ، والذي عاش في قصر باحدى مقاطعاته عيشة فيها ثراء الملوك مع عدد كبير من الزوجات والمحظيات ، مع قيام ثورة هؤلاء التجار ، من الأسباب القوية التي أدت بالحكومة الى تغيير سياستها تجاه هذه التجارة ، وجعلها تسرع الخطى في ايجاد الوسائل الكفيلة بإظهار سطوتها وتنفيذها في تلك المناطق (٢٧) يضاف الى ذلك ما كان ينقله الرحالة والمستكشفون للحكومة من اخبار سيئة عن احوال اقليم بحر الغزال وما جاورها ، واستفحال أمر هذه التجارة بها ، لذلك صمم الخديو اسماعيل أنه لابد من ضم الاراضي التي يتلاعب فيها هؤلاء التجار الى ممتلكاته ضماً نهائياً ، وإيجاد الحماية الكافية لها ، فكان ان أرسلت الحكومة حملة تحت قيادة محمد البلالى (٢٨) لهذا الغرض (٢٩) .

جسلة البسالى :

بدا الزبير حياته كمحتسب بسيط ولكن ذكائه وصفات الزعامة والقيادة التى امتاز بها على من حوله جعلته يتقدم خطوات فى التجارة من ناحية ، والملك والسلطان من ناحية اخرى ، وأصبح له بالتدريج شأن يختلف عما كان عليه أقرانه من التجار ، وصارت جهات بحر الغزال الغربية تحت نفوذه التجارى والادارى ، ومقد له التجار لواء الزعامة التى وصل اليها بأجتهاده وصفاته (٣٠) .

وسرمان ما بدأت سنة الزبير كتاجر تفتى شيئا فشيئا لتخلى مكانه لصفته كحاكم لهذا الاقليم يرم المعاهدات والاتفاقيات وتأتيه الوفود طمعا فى عدله وطلباً للطمأنينة والسلام الذى اشتهر به فى تلك الاقاليم التى اعتادت القسوة والظلم من قبل حكامها ، فبر أن الزبير لم يكدر يصبح الحاكم الحقيقى لاقليم بحر الغزال (٣١) حتى بعث الخديو ب خطاب الى جعفر مظهر باشا حاكم السودان تاريخه الثامن والعشرون من ذى الحجة سنة ١٢٨٥ هـ الموافق الثانى عشر من أبريل سنة ١٨٦٩ م يطلبه فيه بضم هذا الاقليم ، وكان جعفر باشا مظهر سبق ان اقترح ضمه لحاكم حكومة السودان فى خطابه للجناب العالى بتاريخ الخامس عشر من شوال سنة ١٢٨٥ الموافق ٣٠ يناير سنة ١٨٦٩ م (٣٢) وطبقا لأوامر الخديو وضع الحاكم الخطة لأخضاع اقليم بحر الغزال لسيطرة الحكومة وكلف بهذا العمل محمد البلالى وتدعيما لمركزه مينه الخديو مديرا على هذا الاقليم لتوطيد سلطة الحكومة المصرية به (٣٣) .

تحرك محمد البلالى من الخرطوم فى سنة ١٨٦٩ م قاصدا احتلال اقليم بحر الغزال ، وكان الجيش الذى وضعه الحاكم تحت امرته يتكون من مائة وخمسين نفرا مسلحين من أتباع وأقارب

البلالى نفسه بمئة عساكر ، شاة وعليهم ثلاثة رؤساء بلوكباشية من اقربائه ، وكذا مائتا نفر من جنود البيادة من قبل الحكومة تحت ابرة مامور وضباط وتسعين كجوك على انما (٣٤) سرريادة لقسم بحر الفزال ، وهذا ما ورد ذكره بالخطاب الذى بعث به الخديو للحكمدار بتاريخ الثامن والعشرين من ذى الحجة سنة ١٢٨٥ هـ الموافق الثانى عشر من ابريل سنة ١٨٦٩ هـ (٣٥) الا أن سعد الدين يذكر أن هذا الجيش كان يتكون من مائتين من الجنود السودانيين بقيادة الحسناغ محمد انندى منيب وأربعمائة من العسسساكر الباشبوزق (٣٦) بقيادة اليوزباشى كوتشوك على بالاضمانة الى ستمائة رجل من الخطرية (٣٧) .

والملاحظ أنه لم يأت أى ذكر بالوثيقة « لمحمد افندى منيب » والمراجع أنه قد تعين بعد ذلك على المائتى جندى السودانين ، كما لم يذكر بالوثيقة الأربعمائة جندى الباشبوزق الذين تعينوا تحت قيادة اليوزباشى كوتشوك على ولا للستمائة رجل الخطرية ، والمؤكد أن السلطات التى فوضها الخديو اسماعيل للحكمدار لاتخاذ كافة التدابير اللازمة لنجاح الحملة أدت بالحكمدارية الى اضمائة هذه الامداد من الجنود للحملة وتزويدهم باللازم من السلاح والذخائر والذين لم يرد ذكرهم بالوثيقة ، وهى التى أدت بالتالى الى هذا الفارق فى العدد والنوعية بين ما ذكرته الوثيقة وما ذكره سعد الدين فى كتابه . ولم تهمل هذه الوثيقة ذكر ما تعين لهؤلاء الجنود من المرتبات والمؤن اللازمة ، وقد سر الخديو اسماعيل من اجراءات التنفيذ هذه ، غير أنه حذر حكمدار السودان من التساهل فى قوة هذه الحملة ، حتى تستطيع رد أى هجوم قد يقوم به سلطان دارفور (٣٨) .

أبرق الخديو اسماعيل فى السادس عشر من جمادى الاول سنة ١٢٨٦ هـ الموافق الثالث والعشرين من أغسطس ١٨٦٩ هـ

يستفسر من الحكمدار عما تم بخصوص ارسال القوة العسكرية
المعينة لضم اقليم بحر الغزال (٣٩) . ثم بعث ببرقيتين الى حكمدار
السودان في ٢٣ جمادى الثاني سنة ١٢٨٦ هـ الموافق الثاني عشر
من اكتوبر سنة ١٨٩٦ م يستعجل فيها ارسال الموظفين والجنود
والحكّام المقرر ارسالهم الى اقليم بحر الغزال (٤٠) كما صدرت
ارادة سنية في التاسع والعشرين من جمادى الآخر سنة ١٢٨٦ هـ
الموافق الثلاثين من اغسطس سنة ١٨٦٩ م الى حكمدار السودان
بعدم التراخي أو الاهمال في تنفيذ الأوامر الخديوية ، وضرورة
اعطاء الأوامر والتعليمات للحكام المرسلين الى جهة بحر
الغزال لمعاملة الاعالى بالرفق واللين وعدم مرض الضمير
الباهظة التي تثقل كاهل السكان ، والعمل على استمالة السكان
وجلب محبتهم نحو الحكومة (٤١) .

وقد قابل محمد البلالى ثناء وجوده في القاهرة الخديوية
اسماعيل ، وقدم نفسه على انه المالك الوحيد لمناجم النحاس
الموجودة في جنوب دارفور في المنطقة المعروفة باسم حفرة
النحاس (٤٢) ، وأنه قد حصل على تلك الأرض عن طريق الهبة
من سلطان دارفور ، وزير للحكومة وجوب احتلال اقليم بحر الغزال
ووافقت الحكومة المصرية على ذلك الرأي ، ووضعت تحت امرته
القوة اللازمة لتحقيق هذا الهدف (٤٣) .

وكانت حملة محمد البلالى اول عتبة حقيقية تواجه الزبير ،
كما كانت اول اختصار لدهائه السياسي بعد ان استطاع البلالى
تضليل الحكومة المصرية عن حقيقة الموقف في اقليم بحر الغزال ،
واقناعها بان تطلق يده في هذه المناطق ، فكان من الطبيعي ان
يصطدم البلالى بقوة الزبير وسلطانه وحقه في البلاد التي فتحها
بسيوفه (٤٤) .

ولم تلبث الحكومة المصرية أن تبينت أن كل أقوال البلالى لا تعدو أن تكون مجرد ادعاءات كاذبة لرجل مخادع ، فهو لا يمتلك أرضا فى هذه المنطقة ، كما أن سلطان دارفور لم يهبه أى قطعة من الأرض ، ولقد تسبب البلالى بادعاءاته الكاذبة هذه فى كراهية جميع الأهالى هناك له ، وذلك أنه ألقى الشك فى صحة ملكيتهم للأرض التى بنوا عليها مساكنهم وزرائبهم (٤٥) .

وبوصول البلالى أسرع الزبير لاستقباله وتحيته ، فالتقيا عند مشرع الرق ، ولم يرتج إليه الزبير منذ اللحظة الأولى ، وكان اللقاء بينهما غائرا ملاما ، وقد استطاع الزبير من خلال الفترة التى قضها فى معسكره أن يدرك أن العلاقة بين البلالى وعجوك على أنها ليست على مايرام ، وأن الخسلاف بينهما قائم ومتجدد على الدوام . ولم يلبث الزبير أن زود محمد البلالى بكل ما يحتاج إليه من الطعام والشراب ، ثم قفل عائدا إلى الغرب لكى يسهل الطريق أمامه ، غير أن البلالى عاد بعد ذلك فتوقف عند زريبة على أبو صورى (٤٦) وهناك توفى أبو زبىاشى كجوك على أفا ، فاستولى على أسلحته وأمواله بمجرد وفاته معلنا مصادرتها باسم الحكومة (٤٧) .

وفى البرقية التى أرسلها الحكمдар للخديو فى الخامس والعشرين من رجب سنة ١٢٨٧ هـ الموافق الثامن والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٠ م تؤكد أن وفاة كجوك على أفا كانت طبيعية فقد ذكر « سريادة كجوك على أفا الذى .. توفى هناك بأجله الموعود » (٤٨) .

وهذا ينفى ما جاء فى كتاب سعد الدين من أن كجوك على أفا مات مسموما بيد البلالى ، رغم ما ذكر من أنه كان بينهما

خلافات حادة . وقد ساهمت الكراهية التي نشأت بين الاثنين اللذين وجدا للتعاون من أجل نجاح الحملة في فشلها وعدم تحقيقها للأهداف التي أرسلت من أجلها .

اهداف حملة البلبالى :

— كانت حملة البلبالى تهدف الى :

اولا : القضاء على النفوذ الفعلى لتجار الرقيق بمنطقة بحر الغزال ، وتأكيد سلطة الحكومة المزعومة بها بضم هذه المنطقة الى الملكات المصرية ضمما نهائيا .

ثانيا : القضاء على الزبير بما له من نفوذ فى منطقة بصر الغزال ، ومصادرة امواله واملاكه باسم الحكومة التى رأت فى وجوده خطرا على مصالحها فى هذه المنطقة ، لانه كان يمثل الزعيم السياسى والادارى لبقية التجار فى هذه المنطقة ، فبتخلصها منه يكون من السهل التخلص من بقية التجار الا انها صادت بعد ذلك وسلكت اتجاهها عكسيا بعدما وجدت أن بقاء مصالحها فى هذه المنطقة يعتمد اساسا على وجود الزبير ونفوذه وخاصة بعد فشل حملة البلبالى .

ثالثا : تمكين محمد البلبالى من مناجم النحاس الواقعة بمنطقة حبرة النحاس والتي ادمى ملكيتها عندما حظى بمقاولة الخديو فى القاهرة .

والحقيقة ان هدف الحملة الرئيسى كان القضاء على الزبير اما بقية الاهداف فقد كانت تمثل اهدافا ثانوية لعدم ابراز الهدف الحقيقى ، والذي يؤكد ذلك هو الاهتمام الكبير الذى اولاه كل من الخديو والحكمدار فى اعدادها وتجهيزها لمواجهة قوة الزبير

العسكرية التي لم يكن هناك غيرها ، فقد بلغت جملة ما صرف على الحملة قبل ترحيلها من الخرطوم في شهر صفر سنة ١٢٨٦ هـ الموافق مايو سنة ١٨٦٩ م ما يزيد على ثلاثة آلاف كيسة وكسور هذا غير ما تقرر لها من مصروفات سنوية تزيد على ألفين وأربعمائة كيسة وكسور (٤٩) .

بداية الصراع بين الزبير والبلالي :

استمرت حملة محمد البلالي في تقدمها ، ولكنه ظكأ في طريقه وعمل على الاجتماع بالتجار قبل ان يلتقى بالزبير وذلك للاستيلاء على أمتعتهم وأموالهم والبطش بهم ، ولم يكد يصسل محمد البلالي الى الزريبة التي بناها له الزبير خارج « ديم الزبير » حتى يثبت للحكومة صدق إخلاصه وولائه وأنه ليس متمردا ولا ثائرا ضسدها . حتى أمر باستدعاء رؤساء الزرائب المجاورة له ، وطلب اليهم ان يقوموا بتسليمه ممتلكاتهم جميعها باسم الحكومة المصرية ، فرفضوا ذلك حتى يستشيروا شركاءهم اوصحاب الزرائب المقيمين في الخرطوم ، الا ان بعضهم قد قبل في نهاية الأمر ان يتنازل للبلالي الذي كان يتحدث باسم الحكومة عن بضائعه . وطلبوا منه ان يستقدمي الزبير الى مجلسهم مظهرين انهم سسوف يرضون بما يرضى به الزبير ، وقبل ان يحضر الزبير لمقابلة البلالي اجتمع بالتجار واخبرهم ان البلالي لم ترسله الحكومة الا ليستغل مناجم النحاس ، وأنه لا سلطان له عليهم ، ولا شأن له بأمور بحر الغزال ، وفي هذا الاجتماع اتسم جميع التجار على اطاعة أوامر الزبير ، وعدم اطاعة أوامر البلالي ما لم يبرز لهم التعليمات المكتوبة التي زودته بها حكومة الخرطوم . وقد دفع الزبير الى عمل ذلك ان الحكمدار كتب اليه يبلغه ثقته به ، ويترك له حرية الموافقة على

ما يشير به البلالي أو رفضه ، وكأننا أدرك الحكمدار بعد أن سير البلالي في قوة من الجيش النظامي ، أن السلطان الفعلي بمديرية بحر الغزال هو الزبير ومن حوله من التجار ، فإراد الحكمدار برسالته (٥٠) هذه استرضاء الزبير التي حاول فيها أن يقسم شئون هذه المنطقة بين الرجلين ، وأن يعهد إلى البلالي بمهمة استغلال مناجم منطقة « حفرة النحاس » والقضاء على تجسار الرقيق (٥١) ، ومن المؤكد أنه لم يحدث خطأ من جانب الحكمدار عندما قام بتقسيم شئون المنطقة بين الرجلين والدلائل التي تثبت صحة ذلك هي :

أولاً : أن الحكمدار أدرك بعد فترة من وصول الحملة أن البلالي لن يستطيع إنجاز المهمة الرئيسية الموكولة للحملة ، وهي القضاء على تجار الرقيق بهذه المنطقة وعلى رأسهم الزبير ، بجانب تأسيس مديرية بهذه المنطقة واستغلال مناجم النحاس ، فتقسم شئون هذه المنطقة بينه وبين الزبير كي يكسب جانب الزبير وقواته للحملة محققاً بذلك أهدافاً ثلاثة هي :

الأول : عدم تعرض الزبير للحملة .

الثاني : الاستعانة به في القضاء على بقية تجار الرقيق .

الثالث : قيام البلالي باستغلال مناجم النحاس لصالح الحكومة .

ثانياً : أن الحكمدار بعدما وصلت له الأخبار السيئة عن أحوال الحملة وخاصة وفاة كجوك على أفا ، والخلافات التي نشبت بينه وبين البلالي ، وقيام البلالي بالاستيلاء على أموال وبضائع التجار دون وجه حق ومناصبتهم العداء ، والوقوف في وجه الزبير رغم مساعدته له مخالفاً تعليمات الحكومة الخاصة باسترضاء

الاهالى وجلب محبتهم لها . رأى من الصواب تقسيم شئون المنطقة بين الرجلين .

ثالثا : لم يكن بمستطاع الخديو ولا الحكمдар ولا البلاى انكار قوة وتفوذ الزبير على بقية التجار فى هذه المنطقة لذا رأى الحكمдар أن من مصلحة الحكومة عمل ذلك .

رابعا : لم يخالف الحكمдар أوامر الخديو مندمبا فعلا ذلك لان الخديو حمله مسئولية فشل هذه الحملة وفوضه فى اتخاذ ما يراه مناسبا من اجراءات لنجاحها .

خامسا : لم يكن الحكمдар يتصرف بمفرده بل كان يبلغ الخديو أولا بأول بأخبار الحملة والاجراءات التى يتخذها حيالها ثم تأتبه بعد ذلك التعليمات .

سادسا : ان هذا الاجراء الذى اتخذته الحكمдар لم يكن ليتفانى مع أوامر الخديو ولا الاهداف التى أرسلت من أجلها الحملة بل سيكون عاملا مساعدا على نجاح الحملة فى تحقيق هذه الاهداف لو ان البلاى التزم بتنفيذه .

وعنى الاجتماع الذى عقده البلاى . طلب من الزبير تسليم اسلحته متعللا بانها أوامر جعفر باشا مظهر (٥٢) الذى عينه حاكما على بحر الغزال ، ولكن الزبير رفض ذلك ما لم يظهر لهم مرسوم تعيينه هذا ، فراوغ فى الاجابة ، فأبرز الزبير له خطاب الحكمدارية اليه ، وعرفه أنه بالرغم من أنه ضلل الحكومة بمعلوماته الكاذبة فإنه لن يتوانى فى تنفيذ أوامر الحكمдар بتقديم كل مساعدة ممكنة له فيما يختص باستغلاله لمناجم النحاس فقط ، وأبلغه بأنه لن يسمح له بمخاطبة رؤساء التجار الخاضعين لحكمه رأسا ما لم يسمح هو لهم بذلك . بعد ذلك أراد البلاى ان يبيع بضائع كجوك

على أفا التي صادرها باسم الحكومة ، وتوزيع ثمنها على جنوده
إلا أن الزبير ومن معه أجبروه على حفظ ثمن هذه البضاعة التي
بلغت سبعة وأربعين قنطارا لابنه في حجرة خاصة حتى يصل
من الخرطوم لاستلامها ، وأثارت تصرفات الزبير ضيق
البلالي وحنقه الشديد ، غير أنه لم يجد أمامه من وسيلة
سوى التسليم بالأمر الواقع ، ورحل عائدا معه إلى ديم
الزبير وقد أضمر في نفسه البطش به عن طريق الحيلة
والدهاء ، فلم يبال الزبير بذلك وبني له زريبة خاصة ، وأمر
أن توزع على رجاله الملابس والأقوات ، كما سلم البلالي ألفا
وخمسمائة كيس من الذهب ، ومثلها من النحاس المستخرج من
مناجم حفرة النحاس (٥٣) .

في هذا الوقت كان الزبير يحتفظ لنفسه وتحت يده بجيش
قوى وأمر العدد والعدة يمكنه من مواجهة البلالي وتحدياته ،
وكان يتكون من الأمراد الذين اقتادهم الزبير وأنقذهم من أحكام
الموت الصادرة ضدهم أثناء وجوده في بلاد النيام نيام ، وهم
الذين نبذهم المجتمع نتيجة الجرائم التي ارتكبوها ، فكان منهم
الزبير جيشا لحمايته وحماية تجارتهم . أما الدلة الثانية التي
ضمها جيشه فكانوا من العبيد الذين التقى بهم أثناء زيارته
الأولى للمناطق الواقعة غرب بحر الغزال ، وهم الذين آثروا
الفرار من أسبيادهم ، وأقبلوا عليه يطلبون الانضمام إليه ،
ولكن أسبيادهم لم يرضوا عن ذلك وعملوا على حرب
الزبير ، فطلب الزبير من العبيد العودة إلى أسبيادهم فأبوا ذلك
وصعدوا على قتل ساداتهم أن هم عادوا ، فاضطر الزبير
لإرضاء الجماعتين بأن يبادل على هؤلاء العبيد بمئات من أتباعه
وبذلك تم حل المشكلة . وسلح الزبير حوالى ستمائة منهم
وجعل قيادتهم لأربع (٥٤) وبهم أحرز الكثير من الانتصارات ، وأم

يلبث اقارب هؤلاء واصدقاؤهم ان انضموا لجيش الزبير بعد ان ذاع حسن معاملته لرجالهم في جميع الجهات ، وهكذا تجمع للزبير جيش كبير بلغ تعداده حوالي اربعة آلاف رجل تحت قيادة قوادهم وزعمائهم ، والجميع يخضعون للقيادة العليا التي وضعها الزبير في يد رابع ، وحين حدث الخلاف الذي تقدم ذكره بين البلالي والزبير ، عمد البلالي الى اغراء جنود الزبير بتركه والتبريد عليه واعدا اياهم بمنحهم الكثير من الامتيازات في مقابل هذا ، ورغم كل ما قدمه لهم الزبير فقد خدع الكثير منهم بوعود البلالي ، ولما كان الزبير غير مستعد للتضحية بجنوده هؤلاء ، فقد بذل كل ما في وسعه للملاينة البلالي بالهدايا والقول الطيب ليعيد اليه رجاله فرفض ، عندئذ عرف انه لا مفر من استخدام القوة والحيلة لاجباره على ذلك . . فانطلق بجواده ، ومعه اثنان من اخلاص رجاله هما جاك ودوليب نحو زريبة البلالي . وفي الطريق اطلع صاحبه على خطئه ، وما بلغ زريبة البلالي حتى اقتحم الزبير عليه فرقتة وهو جالس . وخيره بين ان يرد له رجاله او ان تصعد روحه الى بارئها مصحوبا مسدسه الى راسه وهو واقف الى جواره ، غير ان البلالي كان قد اشترى بيده الى خادمه ، فهدده الزبير بان يأمر خادمه بالانصراف وان يعيد اليه رجاله ، والا قتله بمسدسه ، فخضع البلالي لطلب الزبير . ولم يترك الزبير البلالي حتى اقبل واحد من رجاله عليه بيلفه نبا اطلاق سراحهم ، عندئذ اسرع الزبير بمغادرة معسكر البلالي عائدا الى زريبته ، وفي اثناء عودته علم ان رجاله مستبكون مع رجال البلالي ، فأتجه نحو ساحة المعركة ، ففوجيء برجال البلالي وهم عائدون من المعركة التي انتهت بهزيمتهم يطلقون عليه الرصاص ، فاستبكت معهم الزبير بمن معه من الرجال الذين بلغوا حوالي ثلاثين رجلا بينما كان رجال البلالي اكثر عددا وعدة . ولم تلبث الامدادات ان وصلت لنجدة الزبير ،

فاستطاع بعد جهد يسير أن يوقع بالاعداء هزيمة ثانية . انتهت بمصرع تسعة عشر رجلا من رجال البلالي مقابل تسعة من رجال الزبير . وبعد هذه الهزيمة حرص البلالي على مهادنة الزبير ولكي يأسن جانبه قام بوقوع معاهدة سلام معه ، وأرسل يطلب من الحكمدار سيرا بعض القعدات نجحت بعد حوالى العام من يوم حدوث المعركة (٥٥) .

وعندما وردت أخبار هذه المعركة الى الخرطوم أرسل الحكمدار معاوننا من الحكمدارية وكتبا مع بلوك من العسسسكر الجهادية وأسلحة وذخائر وطاقم مدفع بذخيرته لأجل تحقيق النصر في هذه المعركة (٥٦) .

ولم تكد تصل البلالي الامدادية التي طلبها وهي عبارة عن فرقتين من الجنود معها مدفع واحد حتى بدأوا في إطلاقه في الهواء ، فراع الأهالي الذين لم يشاهدوا المدفع من قبل واقتنعوا تماما بأن البلالي هو مثل الحكومة الفعلى برغم أنه لم يطلق أمرا بتعيينه حاكما على بحر الغزال ، ثم لم يلبث البلالي أن دعا الزبير للاجتماع به لتوقيع معاهدة السلام التي بينهما ، وبعد انتهاء الاجتماع أعلن البلالي عن عزبه على الارتحال لمحاربة تجار الرقيق والقضاء على هذه التجارة البغيضة تنفيذا لأوامر الحكومة التي أبلغ بها أخيرا ، فعرض الزبير عليه كل مساعدة ممكنة واتفق الاثنان على أن يقوم الزبير بتوديعه وحماية مؤخره قواته ، بعد أن يعلنه بموعد قيامه . وكانت الخطة أن يرسل البلالي رجاله قبله ثم يلحق هو بهم بعد ذلك ، ولكنه أخل باتفاقه ورحل بعد عدة ساعات من رحيل رجاله . خيا ذلك عن الزبير . وكان النبا قد وصل الى علم الزبير قبل أن يقارب اليوم على الانتهاء فلم يمنعه هذا من ضرورة توديعه واللاحاق به قبل

حلول الظلام ، ولكن الزبير فوجيء بمرض جواده ، وكان سريعا
مقيد بذلك كل أمل في اللحاق به ولكن الاقدار كانت تدحر له
مفاجأة كبرى ، فقد كان البلالي واثقا من أن الزبير سوما يتبعه
لتوديعه ، لذلك خلف وراءه في الطريق الذي قدر له أنه سوف
يسلكه كميناً من أربعين رجلاً أوصاهم بقتله واللحاق به (٥٧) ولكن
كتب للزبير النجاة من مكيدة البلالي . وكان البلالي قد وصل
الى قرية موجومنجى - Mugmngi وأخذ في مهاجمة التجار
إلا أن رجاله أثاروا عليه بمهاجمة الزبير أولاً والقبض عليه فإذا
ما تم له ذلك فإن جميع الزرائب الأخرى سوف تستسلم له (٥٨) ،
وهكذا تنكر البلالي لمعاهدة السلام التي وقعتها مع الزبير ، بل
زاد على ذلك أنه حاول اغتياله بغتة مما لوث صفحته في هذه
المنطقة .

المعركة الناصلة ونهاية الصراع بين الزبير والبلالي

وقته في (سنة ١٢٨٦ هـ - سنة ١٨٦٩ م) :

بدأ كل من الزبير والبلالي بأعداد نفسها وقواته للمعركة
الفاصلة ، فوضع البلالي الخطة لمهاجمة الزبير في أكثر من مكان
لتضليله عن اتجاه الهجوم الرئيسى له ، وفي نفس الوقت لكي
يتجنب المواجهة المباشرة معه حتى لا يتعرض لخسائر أكثر سواء
في الأفراد أو المعدات ، وكانت خطة البلالي ترمى الى مهاجمة
مخازن ومستودعات الزبير التي يحتفظ فيها بأسلحته وتخزينه
ومؤنه حتى يمكن له أحداث أكبر خسائر ممكنة بها دون أن يتعرض
له الزبير ، حينئذ يمكنه أجبار الزبير على الاستسلام إذا ما فكر
في مهاجمته لأنه لن يكون لديه من المؤن أو الأسلحة والذخائر ما
يكفى لصموده أمام البلالي كثيراً . وطبقا لهذه الخطة عهد البلالي
لأحد تجار الرقيق وهو جلباوى بمهاجمة مخزن من مخازن الزبير

كان قد تركه في حراسية عشرين رجلا ، وكان الهدف من ذلك هو العمل على شغل الزبير بينما يتم البلالي هجومه الرئيسي على عاصمة الزبير بعد احراقها ، إلا أن هذا الجرس على قلته استطاع أن يصد هذا الهجوم ، ونجحت الخطة فما علم الزبير بنبا هذا الهجوم على مخزنه ومصرع ابن عمه عبد الله بن الزبير ، حتى أسرع بالتوجه على رأس مائة رجل الى هناك لتأديب جلاوى ، وما كاد الزبير يعيد الأمور الى نصابها ويؤمن مخزنه ، حتى بلغه عن طريق عيونه ورجاله أن البلالي يستعد لمهاجمة عاصمته منتهزا فرصة انشغاله في الهجوم الذي شنته جلاوى فأسرع الزبير على رأس قوة من جيشه الى عاصمته فرأى النار مشتعلة فيها والحرائق التي نجح رجال البلالي في اشعلها هنا وهناك تلتهم كل مخازنه وتآنى عليها ، وعلى الرغم من أن الحرائق ملأت المدينة كلها فانها لم تصل الى مخازن السلاح والذخيرة ، التي كانت موجودة تحت سطح الأرض (٥٩) ونجت بذلك من الحريق وبقيت كما هي ، ولو كان قد توصل الى علم البلالي وجودها في هذا المكان ، لكانت النتيجة قد تغيرت لصالحه وقد دلت هذه العملية التي تشبه عمليات قوات الكوماندوز في الجيوش الحديثة على مدى ضعف المعلومات التي استقناها أو جمعها جواسيس البلالي من عاصمة الزبير ، فكانت هذه بمثابة ضربة قاصمة للخطة التي رسمها البلالي للقضاء على الزبير وشل مفاعلية قواته معنويا .

استطاع الزبير بعدما رأى الحرائق التي اشعلها رجال البلالي في المدينة ، والهجوم الذي قام به جلاوى على أحسد مخازنه ، أن يدري تفاصيل الخطة التي رسمها البلالي التي كانت تهدف الى مهاجمة المدينة بقواته بعد أن تكون الحرائق قد آتت على جميع ما بها من مخازن وقلاع لا تستطيع قوات الزبير

ولا أى قوات أخرى الاحتباء فيها أو المدافعة عنها ، ولكن الزبير وطد العزم على الانتقام لما أصابه على يد البلالى ورجاله ، ورغم قلة قواته التى لم تكن تتجاوز الثلاثمائة رجل ، فإنه لم يستسلم لليأس والنشأوم ، بل أسرع فى تقسيم قواته الى خمسة أقسام بثها فى كل جانب من المدينة خشى ينخدع العدو بقواته ، وقد دلت هذه الأفكار على أن الزبير كان يتمتع بفكر عسكري متقدم اكتسبه بخبرته الطويلة فى المعارك والحروب التى مرت به دون دراسة .

أرسل الزبير عيونه يستطلعون له الأخبار ، فعادوا وأخبروه بأن البلالى قد قرر مهاجمته خلال ساعات الفجر مستغترا فى الظلام ، وفى مساء ذلك اليوم ظهرت قوات البلالى التى قدر الزبير عددها من وثيقة وقعت فى يده بحوالى أربعة آلاف رجل مزودين بالعتاد والذخيرة تحت قيادته ، حينئذ وقع الرعب فى قلوب رجال الزبير ، وساءه أن يحدث هذا لرجاله . فى وقت اقتربت فيه المعركة ، فنشط للمرور عليهم فى مراكزهم وتشجيعهم ، وتقوية عزائمهم للقتال ، ثم أمر بإعدام ما تبقى لديه من العساج خشية أن يقع غنيمة فى يد البلالى ، وكان يقدر بحوالى سبعة مئطير . والحقيقة أن الزبير نفسه كان متخوفا من هذه المعركة نظرا لعدم تساوى القوتين سواء من حيث العدد أو التسليح ، خشى الزبير على مصير رجاله ، وكيف فكر البلالى فى مهاجمته رغم أن الأوامر الصادرة له من جعفر باشا مظهر واضسحة ومحددة . بعد أن وصلتته النجدة الأخيرة . وتقضى بمهاجمة تجار الرقيق فقط ، وقام الزبير بتقديم كل مساعدة ممكنة له لتنفيذ ما أمر به ، وبهذا يكون البلالى هو المخالف لأوامر الحكومة . ولو أن رجال الزبير كانوا ينظرون الى البلالى بعد وصسول النجدة اليه على أنه الممثل الفعلى للحكومة ، التى لم يكونوا يرغبون

فى تحديها او التمرد عليها حتى لا يتهموا بالمعصيان او الثورة على قوات الخديو واستقر رأى الزبير على تسليم نفسه ، ثم سار بعد ذلك فى اتجاه قوات البلالى ل تنفيذ ما عزم عليه ، ولكنه ما كاد يقترب حتى وجد نفسه امام ميمنة قواته ، وبمجرد أن راوه ظنوا أنه قد أتى لمهاجمتهم ، فاطلقوا الرصاص عليه . فأسرع رجاله لنجدة من كل مكان ، وهاجم موسى ود الحاجى أحد قواد الزبير جيش البلالى فذهب الذعر فى صفوفه ، وعمت الفوضى ، وفقد البلالى كل سيطرة على قواته ، لأن أوامره لم تصل اليهم . وبعد أن أيقن من هزيمته فر هاريا الى دارموفيو ، وفى اليوم التالى أقبل حامد ابن عم الزبير على رأس ثمانمائة رجل ، وبعده أقبل رابع وكان فى مهمة فأرسله الزبير فى أثر البلالى ، فأدركه عند ديم جوجو بالقرب من دارموفيو وهناك دارت معركة بين الاثنين انتهت بمصيرع البلالى والتخلص منه نهائيا ، وبذا ملوت صفحة البلالى فى بحر الغزال الى الابد (٦٠) .

وبهذا الانتصار الذى حققه الزبير على حملة البلالى ، أكد دون تردد أنه الرجل الأول بمنطقة بحر الغزال الذى له السيطرة الادارية والعسكرية ، كما عكس مقتل البلالى وهزيمة الحملة اثره السبىء فى دوائر الحكومة بكل من القاهرة والخرطوم نتيجة ما يأتى :

أولا : فشل الحملة فى تحقيق الاهداف التى أرسلت من أجلها برغم الاهتمام الواضح الذى أولته الحكومة فى اعدادها وتجهيزها من حيث العدد والسلاح والذخائر .

ثانيا : فشل قادة الحملة فى توجيهها التوجيه السديد الذى يحقق اهدافها التى ترمى أساسا الى تأكيد سلطة الحكومة وسيطرتها السياسية والادارية والعسكرية فى هذه المنطقة نتيجة

سيطرة روح العداء والجناء بين البلالى وكجوك على أفا واختلاف
الرأى وعدم الانسجام الكامل بينهما .

ثالثا : حرص البلالى على تحقيق مصالحه الذاتية ، التى
كانت هدفا من أهداف الحملة ، وهى العمل على الاستيلاء على
الأراضى التى ادعى ملكيتها فى المنطقة المسماة بحفرة النحاس
جنوبى دارفور واستغلالها لمصالحه دون الاهتمام بتحقيق الأهداف
الجوهرية للحملة .

رابعا : أكدت هذه الهزيمة سيطرة الزبير العسكرية والإدارية
فى هذه المنطقة ، وأنه الرجل الذى يجب أن تحرص الحكومة على
اكتساب تأييده لها واستشارته فيما يجب أن تفعله مستقبلا حتى
لا تتعرض مصالحها للانحياز فى هذه المنطقة .

التحقيق فى مقتسل البلسالى :

وصلت أبناء انتصار جيش الزبير ، ومقتل البلالى ، وهزيمة
جيشه إلى حكمدار السودان بالخرطوم فأسرع إلى مكان الحادث
معاونين الحكمدارية ، ومعه بلوك من العساكر لأجراء التحقيق
فى أمر مقتل البلالى وعصيان الزبير ، وعندما وصل إلى منطقة
بحر الغزال كان التجار هم سادة الموقف ، فقام بما ندب من أجه
من تحقيقات وأرسل تحرياته إلى الخرطوم (٦١) .

وفى الوقت الذى أبلغت فيه الخرطوم بنتائج المعارك الناشئة
بين الزبير والبلالى ، بعث الزبير نبأ انتصاره على البلالى إلى
الحكمدار شارحا تفاصيل ما دار بينه وبين هذا الرجل مبينا تعديه
ومحاربه له دون وجه حق . وكان الحكمدار قد سبق أن نصح
الحكومة المصرية بضرورة عدم اظهار العداء للزبير الذى شاع

خبر انتصاره في أرجاء السودان كلها مما أدى إلى زيادة عدد أتباعه وبالتالي زيادة عدد جيشه حتى أنه بلغ في نهاية سنة ١٢٨٩ هـ الموافق سنة ١٨٧٢ م اثني عشر ألف رجل ، وأصبح إقليم بحر الغزال كله يدين له بالولاء (٦٢) .

وصلت التحقيقات التي أجراها معاون إلى الخرطوم (٦٣) وقد ورد للمعية من آدم باشا (٦٤) القائم بعمل مدير عموم قبلى السودان في السابع عشر من جمادى الآخر سنة ١٢٨٩ هـ الموافق عشرين من أغسطس سنة ١٨٧٢ م بطلب التنبية إلى مديرية كردفان بإرسال عسكري ، ونخيرة ، ومدافع إلى مشارع الزبير لضبطه بما معه في مشارعه ، وإرساله لأجل التحقيق معه فيما نسب إليه لأن المسافة من الخرطوم بعيدة كإشارة مدير عموم قبلى السودان في كتابه وإلى المعية السيسنية بتاريخ الخامس والعشرين سنة ١٢٨٩ هـ الموافق ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٧٢ م الذي شرح فيه تفصيلا قصة البلالي منذ توجيهه إلى بحر الغزال حتى مصرعه على يد جيش الزبير ، كما أشاد بقوة الزبير العسكرية وتفوذه الواسع في منطقة بحر الغزال ، وأوضح كذلك مدى التعب والمشقة التي سوف تحصلها الجنود إذا ما أرسلوا للقبض على الزبير هذا غير ما يحتاجون إليه من المصاريف ، فضلا عما يترتب على ذهابهم إلى خراب هذه المناطق نتيجة المعارك التي قد تنشب بينهم وبين قوات الزبير ، وقد أوصى المدير أخيرا بالكتابة للزبير للحضور للخرطوم للنظر في أسباب حدوث تلك الواقعة والتحقيق معه في ذلك (٦٥) وقد كان هذا الخطاب بمثابة وثيقة تشرح تفصيلا ما حدث منذ مجيء البلالي وحملته حتى مصرعه .

وجد الزبير أن هذه التحقيقات إذا ما سسست في طريقها الرسمي فسوف تعدد الحكومة أثرا ، ولا تستطيع أن تدرك الظروف التي تحت ضغطها دافع عن نفسه وأمواله ، فرأى أن يوسط

« حسنين بك خليفة العيادى » مدير بربر ودنقلة آنذاك لدى الحكومة ، فشرح له الحالة شرحا وافيا ، وأظهر الخفسسوع والامثال لسلطان الحكومة ، مما كان الزبير يريد أن تنسب اليه الثورة أو العصيان (٦٦) .

ونتيجة هذه الوساطة ، رأى الخديو أن يعفو عنه ، وأصدر أوامره الى مدير قبلى السودان باعطاء الزبير الأمان ، اذا ما حضر للخرطوم ، ولادامى لحضوره مصر (٦٧) وذلك بتاريخ السابع والعشرين من رمضان سنة ١٢٨٩ هـ الموافق الثامن والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٧٢ م .

وفى نفس الوقت وصلت برقية من خيرى باشا (٦٨) مهردار الخديو الى مدير عموم قبلى السودان بتاريخ السابع والعشرين من رمضان سنة ١٢٨٩ هـ الموافق الثامن والعشرين من نوفمبر ١٨٧٢ م يبلغه فيها بالموافقة على ما جاء فى برقيته الى المعية بتاريخ الخامس والعشرين من شعبان سنة ١٢٨٩ هـ الموافق الخامس والعشرين من اكتوبر سنة ١٨٧٢ م فيها يتعلق بمأورية بحر الغزال (٦٩) .

أطبان الزبير الى جساتب الحكومة بخصوص مسسؤوليته عن مصرع البلالى ، الا أنه حتى هذه اللحظة لم يضمن جانب اقارب البلالى نفسه ، ففى السابع عشر من ربيع أول سنة ١٢٩٠ هـ الموافق السادس عشر من سنة ١٨٧٣ م أبلغت المعية السنية مديرية عموم قبلى السودان بأن جماعة من اقارب البلالى قد حضروا الى مصر للشكوى فى مقتل البلالى ، وأنه بعد عرض الموضوع تم ابلاغهم بانتهاء التحقيق فيه وأنه لم تكن هناك أى مسسؤولية على شخص معين لذلك فلادامى لوجودهم بمصر بل العودة الى بلادهم (٧٠) .

لم يكتفى الخديو بالعفو عن الزبير بل رأى فيه الرجل القوي الملم بأحوال وشئون منطقة بحر الغزال ، وأنه يمكن للحكومة أن تستعين به في توطيد سسلطاناتها وسيطرتها المزعزعة في هذه المنطقة ، ولذلك صدرت الأوامر من القاهرة لاسماعيل باشا أيوب حاكم دار السودان بتشكيل مديرية بحر الغزال ، وتعيين الزبير مديرا عليها وبحث أمور هذه المديرية الجديدة وما يلزمها من المستخدمين من الجنود والموظفين مع الزبير لحين حضوره إلى الخرطوم وقد أرسل الحاكم هذه التعليمات إلى الزبير مع رسول خاص بطريق كردفان - دارفور ، ولكن الرسول تأخر في الطريق لأن عربان الرزيقات تصدوا له أثناء توجهه إلى الزبير ، وفي هذه الأثناء كان الزبير قد صمم على الذهاب بنفسه إلى الخرطوم ، لإعلان ولائه وإخلاصه حسب ما اتفق عليه مع الحكومة ، فسير قبل قيامه بعض مراكبه تحمل السن والريش وغيرها ريثما يتم استعدادده هو للسفر . وقبل أن يغادر مقره علم أن عربان الرزيقات (٧١) قد أغاروا على حدود منطقة نفوذه ، وقطعوا الطريق الذي بينه وبين دارفور ، فرأى أن يقوم بتأديبهم أولا ، ثم يواصل سيره شمالا إلى كردفان ومنها إلى الخرطوم ، إلا أن الأمور سارت على غير ما أراد ، بل قادته إلى حرب الرزيقات (٧٢) .

وفي غرة رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الخامس والعشرين من أغسطس سنة ١٨٧٣ م بعث مدير عموم قبلى السودان بمكاتبة إلى الجمعية السنية أوضح فيها تعذر حضور الزبير للخرطوم لبحث مسألة تنصيبه على مديرية بحر الغزال إذا وافق على شروط الحكومة ، وبحث مسألة المبالغ التي صرفها على العسسسكر الطوبجية بجهة بحر الغزال بسبب قطع عربان الرزيقات الطريق عليه وقيامهم بارتكاب الحوادث وبعض الأمور غير اللائقة (٧٣) .

أرسل الزبير مندوبا عنه الى الخرطوم يحمل بعض الهدايا ومبلغ ثلاثة آلاف جنيه الى مدير عموم قبلى السودان على سبيل الهدية ، وعندما وصلت هذه الهدايا والمبلغ المذكور مع الرسول الى الخرطوم قام الحكمدار بإبلاغ القاهرة بما أرسله الزبير يستفسرها عن كيفية التصرف ، فجاءه رد القاهرة بأعادة الهدايا والمبلغ المذكور الى الزبير وشكره باسم الجناب العالى الخديو ورضاه عنه وبإبلاغه باستغلال هذا المبلغ فى انشاء مكتبة ومسجد باسمه فى منطقة بحر الغزال كى يستفيد منها الناس هناك (٧٤) .

قيام الزبير بتنظيم أهـور مديرية بحر الغزال :

بدأ الخديو يغير من طريقة معاملته للزبير فترك سياسة العنف التى تمثلت فى حملة البلالى التى سبق الإشارة اليها . وبدأ يسلك فى معاملته سياسة اللين والدهاء ، فعفا عنه وعينه مديرا على بحر الغزال ، فشرع الزبير فى اعادة تنظيم الأمور للمديرية الجديدة ، وبحث وسائل العمل على تدينها وتأسيسها ، ولم يلبث ان وفد عليه الناس من جميع جهات المديرية يطلبون الانتظام فى جيشه أوالاتجار فى بلاده . فكان لهم ما أرادوا . وساد البلاد الهدوء والسكينة (٧٥) .

رأى الزبير انه لا ضرورة للابقاء على هذه القوة الكبيرة من جيشه متجمعة فى مكان واحد ، بل انه فى سبيل نشر السلام والأمن فى روع وأنحاء البلاد لابد من العمل على توزيعها فى أنحاء الاقليم فأبقى على ثمانية آلاف رجل فى « سايونجا - Sabunga » بينما قام بتوزيع باقى الجيش على بقية المناطق ، فى مجموعات يتراوح عددها ما بين خمسين ، ومائة ، ومائة وخمسين رجلا ، فوضع مجموعات منهم فى باية (٧٦) - Baia وبونت . . . Bunet وأبودنجا (٧٧) - Abu Dinga .

وقد أحاط الزبير نفسه ببلاط لا يقل في روعته عن بلاط الملوك، وكان سكنه الخاص يتألف من عدة أبنية ضخمة مربعة الشكل متينة البناء يحيطها سور مرتفع ويقف على أبوابها الحراس على تمام الابهة ليلا ونهارا ، وكانت هناك حجرات خاصة مزودة بأغلى الطنافس والرياش ، معدة لاستقبال ضيوف الزبير يقودهم اليها عبيده وغلبنه وقد أُرِدُّوا أبهى الحلل ، وخلف ستار ضخيم في إحدى الحجرات الداخلية كان يوجد عرش الزبير حيث يجلس وقد حُفَّ به عدد من الأتباع على استعداد لتلبية اشارته في أى وقت بينما يجلس جماعة من الفقهاء على ديوان خارج الستار (٧٧) .

دور الزبير في فتح تشكا (٧٨) وتاديب عرب الرزيقات :

بعد أن تم للزبير الانتصار على ملوك وسلطين بلاد النيام « وما جاورها وخضوع تلك البلاد حتى بحر العرب لحكمه ، واتخاذها باية التي عرفت فيما بعد باسم ديم الزبير عاصمة له ساد السلام والأمن في البلاد ، وبدأ يتجه الى الاهتمام بشئون التجارة بالاقليم ، التي كانت قد توقفت حركتها بسبب الحروب المتوالية التي خاضها . واتجه اهتمامه في هذه الفترة الى فتح طريق جديد للتجارة بدلا من طريق النيل . الذي كانت الرحلة فيه تعترضها الكثير من الصعاب ، كان الطريق الجديد الذي سمي الزبير الى فتحه هو الطريق البرى الواصل بين بحر الغزال وكردفان والمار ببلاد تشسكا موطن عرب الرزيقات ، وكان لهذا أهمية كبيرة نظرا لبعد طريق النيل وكثرة أخطاره ومشاقه ففي مارس سنة ١٨٦٦ م الموافق شوال سنة ١٢٨٢ هـ بدأ الزبير في الاتصال بمشايخ عرب الرزيقات المقيمين على طريق التجارة ، وذلك من أجل عقد معاهدة معهم لفتح هذا الطريق وحمايته حتى تستطيع قوافل التجارة أن تعبر في أمان ، وذلك في مقابل رسوم

محدودة يدفعونها الزبير ولعرب الرزيقات ، فأوفد الزبير لهم رسلا بالهدايا ، فجاء إليه مشايخهم وأقسموا له على القرآن بالمحافظة على هذه المعاهدة ، ولم يلبث هذا الطريق لقصره وسهولته وأمنه أن جذب إليه العديد من قوافل التجارة من كل مكان حاملين معهم الكثير من البضائع التي تروج في المناطق التي خضعت لحكم الزبير ، فازدهرت التجارة في البلاد وانتعشت الأسواق وتجمع الناس حول الزبير . وظلت هذه المعاهدة سارية المفعول بين مشايخ عرب الرزيقات والزبير لمدة طويلة . إلى أن نقضوا هذه المعاهدة بعد انتصاره على الבלالي ، وفي أثناء حربه مع الملك « تكه » وهي الحرب الثانية . قطعوا الطريق وقتلوا بعض التجار فأرسل لهم الزبير رسلا يسألهم تنسيرا لما حدث ، ولكنهم لم يجيبوا بشيء عليه سوى السباب والشتائم ، وأقسموا ألا يدعوا مسافرا واحدا يمر إلى بلاده عن طريق بلادهم إلا قتلوه وسلبوه أمواله (٧٩) .

وأمعانا في تقديمهم قطعوا الطريق على رسول حكومة الخرطوم ، الذي أوفدته إلى الزبير حاملا معه التعليمات الجديدة الخاصة بتشكيل مديرية بحر الغزال ، وتعيينه هو مديرا عليها . في هذا الوقت كان الزبير نفسه يستعد للسفر للخرطوم لتقديم ولائه للحكومة ، إلا أنه علم قبل أن يغادر مقره أن عرب الرزيقات أغاروا على حدود منطقة نفوذه وقطعوا الطريق ما بينه وبين دارفور حينئذ رأى الزبير أن من الصواب أن يقوم بتأديبهم أولا ثم يكمل مسيرته إلى كردفان ومنها إلى الخرطوم (٨٠) .

وقد تعهد عرب الرزيقات نقض معاهدتهم مع الزبير عقب انتصاره على الבלالي وفي أثناء حربه الثانية مع الملك « تكه » للأسباب الآتية :

أولاً : كان معنى انتصار الزبير على حملة البلالى هو تأكيداً لسيطرته ونفوذه السياسى والإدارى على منطقة بحر الغزال دون غيره وهو الشيء الذى لم يكن عرب الرزيقات ينتقصونه مخافة أن تمتد سيطرته على بلادهم .

ثانياً : أنه فى سيطرة الزبير السياسية والإدارية على منطقة بحر الغزال وأماكن سيطرته على جميع المناطق المتناحسة التجارية والاقتصادية الواردة أو المصدرة للأقليم ، فى ذلك تقليم لأنشطتهم ونفوذهم التجارى فى هذه المنطقة التى كان لهم تعاملاتهم التجارية معها منذ مدة طويلة .

ثالثاً : رأى عرب الرزيقات أن نصيبهم من الضرائب المفروضة على قوافل التجارة والتجار طبقاً للمعاهدة التى عقدها مع الزبير لم تعد مناسبة نظراً لزيادة عدد هذه القوافل نتيجة الاستقرار والهدوء الذى ساد منطقة بحر الغزال وما جاورها ، فكان هدفهم هو الانفراد بالسيطرة على طرق التجارة بنقض المعاهدة .

رابعاً : كان التوقيت الذى اختاروه لنقض المعاهدة فيه حرج لموقف الزبير وخاصة أنه كان فى حرب مع الملك تكبه ، فكانوا يريدون له الهزيمة حتى لا تتسع مناطق سيطرته ونفوذه السياسى والتجارى على حساب مصالحهم التجارية فى هذه المناطق .

خامساً : كان من المؤكد أنهم يريدون الوقعسة بين الزبير وسلطان دارفور لكي يتخلصوا من الزبير إذا ما فكر فى غزو بلادهم التى كان السلطان يعتبرها جزءاً من مملكة دارفور .

رأى الزبير أن يستعين بالسلطان ابراهيم سلطان دارفور فى تأديب هؤلاء العرب حتى يثوبوا الى رشدهم ، فأرسل إلى

السلطان خطابا في أول جمادى الأولى سنة ١٢٩٠ هـ الموافق السابع والعشرين من يوليو سنة ١٨٧٣ يخبره فيهم بنقضهم للمعاهدة التي عقدها معهم ، وقيامهم بقطع الطريق على قوافل التجارة لبعض التجار. وطلب منه إمداده بسرية من جيشه كي يستعين بها في تأديب هؤلاء العرب أو أن يتحمل مصاريف الحملة الذي يعدها هو لتأديب هؤلاء العرب ، وقد خاطب الزبير السلطان قبل أن يفعل أي شيء لسببين هما :

أولا : حرص الزبير على مشاعر السلطان الذي كان يعتبر بلاد الرزيقات جزءا من مملكته .

وثانيهما : تعريف السلطان بالدور الذي يجب أن يؤديه تجاه هؤلاء العرب بتأديبهم أو تقديم المعونة لمن يستطيع ذلك ، لأن الزبير كان يخشى أن يقوم بتأديب هؤلاء العرب دون علم السلطان ، فيعتبر ذلك السلطان تحديا وتعديا على سلطته (٨١) .

ولكن السلطان لم يجب على هذا الخطاب ، فلم يلبث الزبير أن وجه خطابا آخر للسلطان في غرة جمادى الآخر سنة ١٢٩٥ هـ الموافق السادس والعشرين من يوليو سنة ١٨٧٣ م مذكرا أياها بأنه ليس له اطلاع شخصية في هذه البلاد وإنما الهدف من ذلك تأمين حياة الأهلين فيها بما يوفر لهم القيام بنشاطهم التجاري ، وتوفير جو السلام هناك بالقضاء على الخارجين وقطاع الطرق من مرب الرزيقات ومن على شاكلتهم ، ويكرر طلبه الأول بخصوص إمداده بالمساعدات العسكرية اللازمة من جنود وأسلحة وفخائر للاستعانة بها في تأديب هؤلاء العرب . وقد حمل الزبير السلطان مسؤولية ما يسفك من دماء المسلمين على يد مرب الرزيقات ، إذا لم يؤد واجبه نحو قتالهم والقضاء على صلبهم وفرورهم وتوفير جو الأمن والسلام في هذه البقاع (٨٢) .

وينبغي ألا تفصل بين تمرد عرب الرزيقات على الزبير ،
وضرورة تدخل السلطان إبراهيم للقضاء على هذا التمرد أو الأعمال
الاجرامية التي كانوا يقومون بها فسد التجار والتجارة وذلك
للسباب الآتية:

أولا : كان السلطان يعتبر بلاد الرزيقات (شكا) جزءا من
سلطنة دارفور وإن لم تكن تحت حكمه أو سلطته وإن كان التاريخ
قد شهد فترات انضمام وانفصال لهذه البلاد مع سلطنة دارفور ،
لذلك فقد اعتبر الزبير السلطان مسئولا عن كبح جماح هؤلاء العرب
وكسر شوكتهم .

ثانيا : كان الزبير يريد من قيام السلطان بتأديب هؤلاء العرب
اختبار مدى صلة أو عدم صلة السلطان بهذه الأعمال التي
يقوم بها عرب الرزيقات وقد ثبت للزبير مدى الكراهية التي يكنها
السلطان له وصلته بهذه الأعمال عندما وجه إليه أكثر من خطاب
ولم يجيب السلطان عليها .

ثالثا : كان الزبير يريد من وراء مطالبة السلطان بتأديب هؤلاء
العرب أو تقديم ما يمكنه من مساعدات لتأديبهم ، وقطع خط
الرجعة عليهم حتى لا يتحالفوا مع السلطان ضده كذلك ، فقد رأى
الزبير أن المصالح التجارية لمديرية بحر الغزال وسلطنة دارفور
مصلحة مشتركة ينبغي أن يعمل هو والسلطان معا كيد واحدة
للقضاء على الأخطار التي تهدق بهما .

اندلاع الحرب بين الزبير وعرب الرزيقات :

أخذ الزبير في استكمال استعداداته الحربية تمهيدا لغزو
بلاد الرزيقات ، تجهز ما يقرب من أربعة آلاف رجل وتقدم شمالا
قاصدا شكا مقر عرب الرزيقات . وكان مقررا أن تقطع الحملة

هذه المسافة في خمسة عشر يوما ، ولكن نظرا لطول الأمطار ، فقد أدى ذلك إلى إبطاء سير الحملة ، فاستغرقت أربعين يوما حتى وصلت جنوبى شكا بعد أن استنزفت معظم مؤننها ، ومات من رجال الزبير مالا يقل عن المئاة رجل ، عندما اقتربت قوات الزبير من عرب الرزيقات شنوا عليهم هجوما بقوات كثيرة العدد (٨٣) .

ورغم تنبؤ الزبير في العدد ، فإن تقدمهم كان بطيئا . وذلك لأن عرب الرزيقات كانوا يستعملون الخيل في قتالهم ، ولم يكن رجال الزبير قد اعتادوا هذا النوع من الحرب السريعة الخاطفة واستمرت المعارك بين الجانبين ابتداء من العاشر من يوليو حتى الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٨٧٢ م وهو اليوم الذى استطاعت فيه قوات الزبير أن تضع حدا لهذا الصراع بانزال الهزيمة الساحقة بعرب الرزيقات . وقد ساعدهم في ذلك طبيعة بلادهم التى كانت تخلو من الانهار ، مما يضسطنهم إلى اللجوء إلى بحر الغزال طلبا للماء ، وعندما فطن الزبير إلى هذا الأمر رأى أن يكمن لهم بقواته عند شاطئ هذا النهر وأخذهم على غرة بعد أن أعياهم قتالهم ، وتمكن الزبير بذلك من انزال الهزيمة بهم وقتل الكثير منهم ، والاستيلاء على الكثير من الغنائم من سلاح وذخائر ومؤن ، والواقع أن جيش الزبير لم يستطع التغلب على عرب الرزيقات ، إلا بعد أن بلغت خسائره أكثر من سبعمائة رجل بسبب مهارتهم في استخدام الجياد السريعة وفنون الحرب ، بالإضافة إلى اعتمادهم الانتقضىاض على قوات الزبير وهجمتها على حين غرة من جهة لا يتوقعون أن يهاجمهم منها . وهكذا كان الأمر منذ بداية الحرب إلى أن استطاع الزبير الانتصار عليهم ودخول بلادهم وادخالهم تحت طاعته وحكمه (٨٤) .

بعد هزيمة عرب الرزيقات ودخول الزبير شكاً في غرة رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الخامس والعشرين من أغسطس سنة ١٨٧٣ م ، فر عدد من مشايخهم والتجأوا الى السلطان ابراهيم سلطان دارفور . بشوا له شكواهم من احتلال الزبير وجيشه لبلادهم وعاهدوه على الخضوع له ، بعد أن كانت بلادهم مستقلة من دارفور منذ ثلاثين عاماً فرحب السلطان بهذا الذي رد الى مملكته ما فقدته منذ مدة ، وكامر طبعي أن يحمي السلطان جارا التجأ اليه ، واحتفى فيه (٨٥) .

أبرق الزبير في الثامن والعشرين من شعبان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الحادي والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٣ م غداة انتصاره على عرب الرزيقات الى مدير عموم قبلى السودان يشـرح له تفاصيل المعارك التي دارت بينه وبين عرب الرزيقات ونبا انتصاره عليهم ويطلب منه ارسال اورطتين عساكر واوردى باشاـسبوزق للكتابة بهر كز شكاً على أن يرسل بدلا منهم أربع اورطات من العساكر المستجدين . وقد صدق يوزباشي لبلوك ووكيل الاوردى الباشاـسبوزق على ما رواه الزبير ، للمحافظة على الأمن بها ، وقد قام الحكمدار في نهاية شعبان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثاني والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٣ م بعرض ما ذكر على خيرى باشا مقترحا ضرورة التأكيد من صدق رواية الزبير قبل ارساله للنجدة التي طلبها . كما اوضح الحكمدار انه أمر الزبير بالابقاء على العساكر ومن معهم بجهة مؤمنة وتنصيب وكيل على جهة شكاً من طرفه ممن يراه صالحا لذلك (٨٦) .

وفي الثاني من رمضان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الرابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٣ م أبلغ خيرى باشا مدير عموم قبلى السودان بالموافقة على مطالب الزبير وارسال اورطة عساكر

جهادية وأوردى باشبوزق ومنغين وتبليغه بمنونية الحضرة الخديوية والانعام عليه برتبة قائمقام (٨٧) مكافأة له مع البقاء بجهة شكا لقمع العصاة والعمل على تأمين تلك الجهات ثم الحضور للخرطوم بعد ذلك للمداولة في أمر تلك الجهات (٨٨) .

وقد وجد الحكمدار بعض الصعوبة في توفير ما يحتاج اليه الزبير من العساكر والمدافع رغم موافقة الحضرة الخديوية من الخرطوم ، فأرسل الى خيرى باشا في الرابع من رمضان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق السادس والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٣ م يقترح ارسال القوة المطلوبة من مديرية كردفان وذلك لقربتها من شكا وتوافر أدوات ووسائل ترحيل العساكر بها او الانتظار ريثما يحضر الزبير الى الخرطوم للمداولة معه في أمر هذه العساكر وتسليمها له (٨٩) ، فجاءت الموافقة على اقتراحات الحكمدار في السادس من رمضان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثامن والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٣ م (٩٠) .

وفي الثامن من شوال سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثلاثين من نوفمبر سنة ١٨٧٣ م أبرق خيرى باشا الى مدير عموم السودان يطلب منه تعسيفه باسماء اصحاب المشسارح ببحر الغزال الذين لم يقدموا المساعدة للزبير في حربه ضد عرب الرزيقات . وذلك تمهيدا لتكليف الزبير بطردهم من هذه المناطق بعد حضوره للخرطوم (٩١) . وفي العاشر من شوال سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثاني من ديسمبر سنة ١٨٧٣ م أبرق مدير عموم قبلى السودان لخيرى باشا موضحا له اسماء اصحاب المشسارح الذين لم يقدموا مساعدتهم للزبير اثناء حربه مع الرزيقات (٩٢) .

وكان خيرى باشا قبل أن يصله هذا الخطاب الأخير قد أبرق لمدير عموم قبلى السودان فى الثامن من شوال سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثلاثين من نوفمبر سنة ١٨٧٢ م بتعليمات تقضى بضرورة اجابة الزبير لجميع مطالبه ومحاولة استيفائه بكل الطرق ، وتشويقه وترغيبه من جهة الحكومة عند حضوره للخرطوم للتشاور والتباحث بشأن المناطق الجديدة (٩٣) .

وفى الثانى من ذى القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثالث والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٧٢ م أبرق خيرى باشا الى حاكم السودان يؤكد له ما سبق بخصوص استعمال الحزم والاحتياط باجراء كافة الوسائل والوسايط اللازمة لاستيفاء الزبير لجانب الحكومة وتجنب ما يغيره من جهتها والاحسان عليه برتبة العائمقام وتقليده مديرا على جهة بحر الغزال ، وارسل مقدار من العساكر والجبخانه لاعانتته فى ذلك (٩٤) . وفى السادس من ذى القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق السابع والعشرين من ديسمبر ١٨٧٢ م أبرق حاكم السودان الى خيرى باشا يعلمه بأنه كتب الى مدير مديرية كردفان بارسل أربعة بلوكات جهادية ومائة خيل باشبوزق ، ومدفع بجبخانه كافية للزبير بجهة شكا هذا بخلاف ما عنده من بلوك جهادية ومدفع ومائة ندر باشبوزق بالاضافة الى ما تحت يده من قوات أخرى ، وأنه سوف يرسل للزبير الفرمان العالى بالترتبة التى منح اياها . كما ان التعليمات اللازمة لادارة المديرية وتنظيمها ارسلت اليه (٩٥) .

الزبير وعبد الله التعايشى :

كان من بين الاسسرى الذين وقعوا فى يد الزبير بحلة السروج (٩٧) رجل يدعى عبد الله ود محمد آدم توشين ثم يتردد الزبير فى الامر باعدامه اول الامر ، ولكن العلماء المرافقين للزبير

اعترضوا حين امر الزبير باعدام عبد الله بحجة أن الشرع لا يجيز له قتل أسير من أسرى الحرب ، فضلا عن أن السياسة تنكر ذنبه اعدام رجل يعتقد الناس في صلاحه ويؤدي إلى اعتقاد الناس أن الزبير رجل طاغية . وأمام هذه الأسباب عما عنه الزبير . وعند فتح دار نور طلب عبد الله من الزبير أن يقطعه قطعة من الأرض ، فاقطعه الزبير : أياها على أن يكف عما فيه من الدجل والشعوذة ولم يمس سوى القليل حتى بعث للزبير بكتاب وهو في دارا يقول له فيه : « رأيت في الحلم أنك أنت المهدي المنتظر وأنا أحد أتباعك فأخبرني أن كنت مهدي الزمان لاتبعك » فرد عليه الزبير بالرد التالي « استقم كما أمرتك والا عملت السيف في رقبتك أننى لست بالمهدي المنتظر ، وإنما أنا واحد من جنود الله يحارب من طغى وتمرد » ورغم ذلك لم يكف عبد الله عن الدجل والشعوذة حتى اشتهر أمره مع محمد أحمد المهدي في جزيرة آبا (٩٨) .

هذا ما كان من أمر رجل احترف الشعوذة والاتجار بدين الله وعلمه لينال قوت يومه ، وكاد أن يختنق اسمه من الوجود عندما أمر باعدامه بعد أن أسره واودعه السجن في شكا جنوبى دارفور سنة ١٨٧٤ م لولا أن منعه العلماء من ذلك باسم الدين والسياسة (٩٩) .

الزبير والشيخان منزل وعليان :

بعد أن دخل الزبير بلاد الرزيقات فاتها منتصرا في غرة رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الخامس والعشرين من أغسطس سنة ١٨٧٢ م فر هذان الشيخان ، والتجأ إلى السلطان إبراهيم في الفاشر عاصمة دارفور للاحتباء به وكان الشيخ عليان هذا واحدا من عبيد الزبير ، اثنى بعد ذلك ثراء فاحشا بسبب اشتغاله

بالتجارة مع الزبير . وقد عبدا هذان الشيخان الى اثاره ثائرة
من تبقى حيا من مشايخ عرب الرزيقات على الزبير للتمرد عليه
قبل التجائهما للسلطان ابراهيم سلطان دارفور (١٠٠) .

وحين بلغ مسامع الزبير ذلك . ارسل الى السلطان ابراهيم
خطابا في الخامس عشر من رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثامن
من سبتمبر سنة ١٨٧٢ م يشرح له فيه :

اولا : موقف عرب الرزيقات قبل نشوب الحرب بينهم وبينه
وتعمدهم نهب اموال التجار وقتل البعض الآخر ومنعهم من المرور
الى منطقة بحر الغزال ، وعدم استجابتهم للانذارات المختلفة التي
وجهها اليهم الزبير حتى يكفوا عما يفعلوا بالمسلمين .

ثانيا : تفاخر هؤلاء العرب بما يظنون من نرسان وجياد
سريعة واسلحة لا قبل للزبير بها . قبل ان يقول على حريهم .

ثالثا : تفاصيل المعارك التي دارت بين قواته وعرب الرزيقات
والتي انتهت بهزيمتهم .

رابعا : المعلومات التي وصلتته عن التجاء الشيوخين منزل
وعليان له وتحريضهما له على الدخول في حرب مع الزبير لاستعادة
بلادهم .

خامسا : مدى الخطر الذي سوف يلحق به وببلاده ، اذا
ما أخذ بكلام هذين الشيوخين ودخل في حرب معه فانه بذلك سوف
يقع في حرب مع الدولة المصرية ذات القوة الغالبة والمدد غير
المنتقطع وان الهزيمة سوف تلحق به .

سادسا : ضرورة تسليم الشيوخين منزل وعليان له وارسلتهما
تحت حراسة مشددة كي يستطيع ان يستخلص منهما حقوق
المسلمين التي اهدراها .

سابعاً : أوضح له في خاتمة الخطاب ما كان من عظيم المودة وحسن العلاقة بين كل من خديو مصر ووالده السلطان حسين ، وطالبه بضرورة استمراره في نفس العلاقة ، وألا يعمل على انعكاسها (١٠١) .

وعلى الرغم مما ورد في هذا الخطاب من جملة نصائح وتحذيرات . فإن السلطان ابراهيم ظل حاقداً على الزبير لدخوله بلاد عرب الرزيقات التي كان يعتبرها جزءاً من مملكته ، فلم يرد على خطاب الزبير . بل أرسل إلى الشيخ ماديو بن علي (١٠٢) وغيره من مشايخ عرب الرزيقات خطاباً مشحوناً بالسباب والشتم في الزبير يقول لهم فيه : « لا تظنوا أنني أنكرت البلاد لهذا الطاغية الجلابي ، وها أنذا أعد الجيوش للزحف عليه وطرده من البلاد بالخزي والخسران » (١٠٣) .

وقد وقع هذا الخطاب في يد الزبير . وبعد اطلاعه عليه أرسل للسلطان خطاباً مؤرخ في الواحد والعشرين من رمضان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثاني عشر من نوفمبر سنة ١٨٧٣ م يطلب منه فيه :

أولاً : إبداء الأسباب التي دعت إلى الاكثار من الفاظ الشتم والسباب ضده في خطابه للشيخ ماديو بن علي حيث اتهمه بأنه طاغ وجلابي أي ظالم وتاجر رقيق ، وأوضح له أن دخوله بلاد عرب الرزيقات كان من أجل تأديبهم نتيجة الأعمال التي اقترفوها ضد قوائم التجارة والتجار .

ثانياً : تسليم الشيخين منزل وعليان ، سببي الفتنة والوقية كما سبق أن طلب ذلك في خطابه السابق .

ثالثا : عدم المخاطرة بدخول حرب ضده والا فمستلحقه الهزيمة .

رابعا : عدم توقع خروجه (أى الزبير) من بلاد الرزيقات بالقوة أو الحرب ، بل أن أراد السلطان ذلك فيكون بالتراضى والاتفاق بينه وبين السلطان وجناب الخديو ، على شرط دفع نفقات الحملة ، فإذا فعل ذلك وأمره الخديو برفع يده عن البسلاد . حينذاك سوف يخرج منها (١٠٤) .

وقد ذكر عبد الرحمن زكى أن الزبير أراد بهذه الحيلة فى المراسلات السياسية أن يضح السلطان أمام الأمر الواقع ، وأن يثقل عليه بالمطالب فلا يستطيع تنفيذها . حينئذ يجد الزبير سببا فى قتاله وغزو دارفور (١٠٥) .

من المؤكد أن الزبير لم يكن يريد ذلك . بل تمسكدى حرب الرزيقات فى أعمالهم الاستفزازية واحترامه لسيادة السلطان على الأراضى التى كان يدعى ملكيتها وهى شكا . . هى التى دفعته الى الكتابة الى السلطان لكى يقوم بتأديبهم أو يقدم ما يمكنه من المساعدة للزبير لكى يقوم بتأديبهم . ولكن السلطان لم يابه بكل هذا ، فكان من الزبير أن قام بهذا العمل منفردا حتى أمكن الأمن والسلام أن يعودا لهذه البلاد . وأن تستمر حركة التجار دون توقف وهى عصب الحياة وشرائها فى هذا الوقت . وقد كان الدافع لقيام الزبير بمراسلة السلطان فى المرة التالية هو الفتنة التى بثها للسلطان كل من الشسيخين منزل وعليان ، والتى كان من نتيجتها وقوع الحرب بين الزبير والسلطان كما سيجىء فى الفصل التالى .

تعيين الزبير حاكما على بحر الغزال وشكا :

(سنة ١٢٩٠ هـ — سنة ١٨٧٢ م) :

أراد الزبير أن يستوثق من معاونة الحكومة له ، وأنها لن تسدد له طعنة من الخلف ، وهو يتقاتل عرب الرزيقات ، فأرسل إلى حاكم السودان الجديد اسماعيل باشا أيوب يبلغه بتفاصيل ما حدث ، ويطلب منه أن يرسل حاكما يتولى حكم البلاد التي فتحها في بحر الغزال وتخدم دارفور (شكا) بالنيابة عن خديو مصر (١٠٦) وختم رسالته « فإذا ما وصل الحاكم واستلم البلاد عدت أنا إلى تجارتي تاركا كل ما انفقت من الأموال في الفتح هدية لحكومتي السنية ، وانتظرت مكافأتها الأدبية حسبما تقتضيه عدالتها وكرمها » (١٠٧) . وقد قام الحاكم بإبلاغ القاهرة برغبة الزبير ، فلم تلبث الحكومة المصرية أن بعثت إلى الحاكم ببرقية في الصادي عشر من محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق السابع والعشرين من فبراير سنة ١٨٧٤ م تمنح فيها الزبير الرتبة الثانية مع لقب بك مع التوصية بإبلاغه هذه الرتبة واعتباره بها اعتبارا من تاريخ صدورها (١٠٨) . وقام الحاكم بإبلاغه بها جاء ببرقية الحكومة بعد توجيه شكر جناب الخديو له على حسن ولائه ورغبته في وضع البلاد التي فتحها بين يديه ليولى عليها من يشاء . ماتحا إياه الرتبة الثانية مع لقب بك ويتولى أمر مديرية بحر الغزال وشكا نظير جزية يدفعها لخزانة الحكومة المصرية قدرها ١٥٠٠٠ جنيه سنويا . فقبل الزبير دفع هذه الجزية وتولى أمر البلاد رسميا وشرعا ، وشرع في تنظيمها وعمارتها والعمل على اشاعة العدل بما يتناسب مع مننمة الحكم المصري في هذه البقاع ، ولكن السلطان إبراهيم لم يطلق صبرا على بقائه في شكا فلم يلبث أن أصدر أوامره إلى أحمد شمسطة قائده في دارا التي تقع على الحدود الجنوبية لمملكته ، وسعد النور قائده في الشرق . فأخذا

فى حشد الجيوش واعداد العدة لآخراج الزبير من شكا . ولكن
حركات هذين القائدين لم تغب عن عيـون رجال الزبير
فكان رجاله يبلغونه أولا بأول بهذه التحركات ، فيقوم بإبلاغها
بالتالى الى الحكمدار فى الخرطوم ، فيرفعها الى الخديو اسماعيل
فى القاهرة (١٠٩) .

ومما يذكر ان حكمدار السودان كان قد بعث الى خيرى باشا
ببرقية فى السادس من ذى القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق السابع
والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٧٣ م يستأذنه فى الكتابة الى
سلطان دارفور لتبليغه بأن الزبير قد صار تعيينه بصفة رسمية
مديرا على جهات بحر الغزال وبحر العرب والقبائل التابعة لها
حتى لا يظن السلطان بأن الزبير يقيم بجهة شكا من تلقاء نفسه ،
كما أبلغ الحكمدار خير باشا بأنه قد تأكد على الزبير بعدم التمرد
على حدود دارفور حتى يكون هناك مودة وحسن جوار ولا تنقطع
التجارة بين البلاد . وقد جاء رد خيرى باشا فى التاسع من ذى
القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثلاثين من ديسمبر سنة ١٨٧٣ م
بعدم الكتابة للسلطان فى هذا الخصوص وذلك حسب ما تقتضيه
الإرادة السنية (١١٠) .

هذه هى قصة الزبير منذ غادر مقره فى بحر الغزال
لتأديب عرب الرزيقات ، وفتح الطريق بين مدينته ومديرية كردفان
ليحضر بعدها الى الخرطوم ، حيث يتفق مع الحكمدار على إدارة
مدينته الجديدة ، ولكن الظروف ساقته من حرب عرب الرزيقات
الى حرب مع سلطنة دارفور .

هوامش الفصل الثاني

- (١) مكي شيبكة (دكتور) : السودان عبر القرون من ١٦٤ .
- (٢) مثل الحكومة البلجيكية والبرتغالية .
- (٣) زاهر رياض (دكتور) : السودان المعاصر منذ الفتح المصري حتى الاستقلال من ٨٥ - ٨٦ .
- (٤) أحمد باشا المنكلي : تولى منصب الحكمدارية في السودان في عهد محمد علي من سنة ١٨٤٣ م الى سنة ١٨٤٥ م الموافق سنة (١٢٥٩ هـ - ١٢٦١ هـ) .
- (٥) عباس الاول : حكم مصر بعد محمد علي ابتداء من سنة ١٨٤٩ الى سنة ١٨٥٢ م ، وفي عهده انقضى احتكار الحكومة لتجارة التبغ ، وضعت سلطة الحكومة على السودان التي لم تمتد جنوب الخرطوم حتى زالت نهائيا في الاجزاء البعيدة حين ظهرت الجماعات المسلحة وانتشرت الزرائب والمحطات التي انشأها التجار الاوروبيون وغيرهم .
- (٦) سعيد باشا : حكم مصر ابتداء من سنة ١٨٥٤ حتى ١٨٦٢ م وحاول سعيد باشا اصلاح الحالة التي انتهزت حتى كانت تعود الى ما كانت عليه قبل محمد علي وذلك بسبب ضعف الدولة العثمانية .
- (٧) مكي شيبكة : (دكتور) : المرجع السابق ، من ١٦٤ .
- (٨) اسماعيل باشا : وهو ثاني ائجال ابراهيم باشا ، تولى الحكم بعد وفاة سعيد باشا من سنة ١٨٦٣ الى ١٨٧٩ م وقد اخلت سياسته من كل من سبقت ، فاتجه نحو ادخال مصر ضمن نطاق الدول الاوربية ، فدخل الحضارة الاوربية اليها ، فغيرتها المدنية والتقدم وخاصة بعد ان حصل على فرمان الوراثة الصالحة على مصر وجميع ملحقاتها في سنة ١٨٦٦ م .
- (٩) موسى حدي باشا : تولى الحكمدارية سنة ١٨٦٢ م ولدة ثلاث سنوات انتهت بوفاته في ٦ مارس سنة ١٨٦٥ وقد سر الخديو اسماعيل باشا من اعماله وفي عهده صارت السودان في احسن حال .

(١٠) جعفر باشا مظهر : تولى حكمة السودان من ١٨٦٦ إلى ١٨٧١ م .
الموافق ١٢٨٢ - ١٢٨٧ هـ في عهد الخديو اسماعيل باشا أتمم عليه الخديو برتبة
اللواء وبالقنصلين المجدي . الثاني وسمى جعفر باشا مظهر حاكما عاما للسودان .
(١١) مكى شبكة (دكتور) السودان في ثمن من ص ٨٠ - ٨٢ .

(١٢) السير سمبول بيكر : B.S. Baker ولد سير سمبول هوايت
بيكر في ٨ يونيو سنة ١٨١١ ونشأ في مزرعة أبيه وأتم علومه في أيرلند
بالماتيا حيث هوى الصيد واستخدام السلاح الناري إلى درجة الإجادة ثم سافر
إلى جزيرة سيلان حيث قضى زهرة شبابه (١٨٤٥ - ١٨٥٥ م) وبدأ في عام
١٨٦١ رحلته الكشفية من القاهرة للبحث عن منابع النيل وكشف بحيرة الجريت
في ١٨٦٤ م ، ويعودده إلى لندن احتلت به الجمعية الجغرافية ومنحته ميداليتهما
الذهبية كما منحته الحكومة لقب فارس . وقام ببعثة الشهبيرة في أعالي
النيل ١٨٦٩ - ١٨٧٣ م ثم خدم الإمبراطورية البريطانية كمستشار لها في قبرص ،
وتوفي في ٣٠ ديسمبر ١٨٩٣ م .

(١٣) ولد شارلس جورج جوردون في مدينة ولويتش بإنجلترا سنة ١٨٣٣ م ،
وانضم في سلك العسكرية بعد أن درس علومها في المدارس الحربية سنة ١٨٥٢ ،
واشتراك في حصار باسبول سنة ١٨٥٥ م وفي ١٨٦٠ سافر إلى حرب الصين
وبقى هناك إلى سنة ١٨٦٥ م ، ثم عاد إلى إنجلترا وقد رقى إلى رتبة الكولونيل
في الجيش ، وفي ١٨٧١ أثنى عليه ولى عهد إنجلترا عند مروره من بحر ذاها
إلى الهند أمام الخديو اسماعيل . وأشار بترقيته ونعيته مكان سمبول بيكر حاكما
بحرية خط الاستواء تصدرت الأوامر ببعثته .

(١٤) اسماعيل باشا أيوب : تولى حكمة السودان ١٢٨٩ هـ -
١٢٩٣ هـ ١٨٧٣ - ١٨٧٧ م « قضت البلاد في عهد إلى مديريات وجمل كل
مدير مسئولاً عن مديريته ومستقلاً عن باقي الحكمدارية وفي عهد تم فتح منطقة
دارفور بفضل مساعدة الزبير باشا رحمة للحكومة .

(١٥) زاهر رياض (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٦ - ٨٧ .

(١٦) ايفلين بارنج : وهو القنصل العام لإنجلترا في مصر وقد عرف بها
بمد باسم اللورد كرومر .

(١٧) Moorehead, Alam : The White Nile PP. 183 - 185.

(١٨) شوقي الجبل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر في
البحر الأحمر ص ٢٣١ انظر الوثيقة رقم (١٠) يلحق وثائق نفس الكتاب .

(١٩) زاهر رياض (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٧ .

(٢٠) رومولو جيسى Romolo Gessi وهو ايطالى الجنسية ولد فى سنة ١٨٢٢ م فى القسطنطينية لام امريكية واب ايطالى وكان تصير القامة ، تولى الابنية ، هاشا ، سليا ، هيقريا بطرته فى اعمال الميكانيكية ، شغال كثيرا من الوظائف السياسية البسيطة ، وكان مترجما للقوات الملكية فى كريبا ، وكان يمتد فى المدفعية الملكية وبينه وبين جوردون شبه كبير فكلاهما رجل حرب وكان جيسى قد التحق بخدمة الحكومة المصرية فى السودان ومكث فى منطقة بحر النزال عاما او اكثر بعد رحيل جوردون ، وفى اثناء عوفته الى الخرطوم وبرتقته ٢٠٠٠ شخص شعرت الرحلة لمدة ثلاثة شهور مخبئة فى منطقة السودان مكث اثناءها اغلب رجاله ، اما هو فقد مكث نور وصوله لمصر . وكان جيسى قد نقل السودان برأس مال قدره عشرة جنيهات فقط وخرج منها معه ٥٠٠.٠٠٠ الف جنيه وعشرة آلاف اوقية من الذهب عدا الاشياء النفيسة الا أن رفاقه اقتسبوها عندما لماش روحه عند وصوله السويس فى ٢٨ مارس سنة ١٨٨١ م الموافق ٢٦ ربيع الثانى سنة ١٢٩٩ هـ .

(٢١) جاكسون . س : (ترجمة عزيز يوسف عبد المسيح) ، جوردون باشا من ص ٥٥ - ٥٦ .

(٢٢) معاهدة الغاء تجارة الرقيق : واهم ما جاء بها :

- ١ - منع تصدير الرقيق
- ٢ - ازال العتوبة بالمجنين وتسلم الاجانب منهم الى قناصلهم من أجل محاكمتهم .
- ٣ - تزويد الرقيق المحرر بأوراق العتق .
- ٤ - استخدام الرقيق المحرر فى اعمال مناسبة .
- ٥ - اهنلم الحكومة بتربية اولادهم .
- ٦ - اعطاء الطرادات البريطانية حق شتوش سجن مصر فى البحر الاحمر وظلمج عدن .

٧ - تحريم بيع الرقيق فى مدى سبعة احوام .

(٢٣) زاهر رياض (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٨ .

(٢٤) منطقة بحر النزال : وهى من مديريات السودان ومن اهم مدنها واو التى تقع على نهر النيل ١١١ ميلا من مشرع الزيك وهى عاصمة البلاد بعد الفتح الاخير وكذلك ديم الزبير وهى عاصمة البلاد فى الفتح الاول وبها حفرة النحاس .

(٢٥) محمد صبرى (دكتور) : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٢١ .

Churchill, W. : The River war P. 16. (٢٦)

Sparrow, G : Gordon Mandarin and Pasha P. 94. (٢٧)

(٢٨) ورد ذكره في بعض الوثائق على أنه « محمد البلالى » وفي البعض الآخر ذكر أنه محمد الهلالى .

Puncan, J.B.R. : A Record of a Chievement P. 12. (٢٩)

(٣٠) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق من ص ٨٢ - ٨٣ .

(٣١) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ١٥٤ .

(٣٢) انظر الوثيقة رقم (١) دفتر رقم (٥٧٣) عابدين صادر معية سفيرة

مكاتب تركي من ص ١٦٨ ، ١٨٤ مكتبة رقم (٤) .

(٣٣) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٣ .

(٣٤) كهوك على ادا او كوتشوك على : كما ورد ذكره في بعض الوثائق .

(٣٥) انظر الوثيقة رقم (١) .

(٣٦) المسافر الباشبوزق اى الجنود غير النظاميين .

(٣٧) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٣٨) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق ص ١٦٤ .

(٣٩) انظر الوثيقة رقم (٢) دفتر رقم (٧) عابدين صادر لظفرامك سفيرة

تركي من (٢٢/٢٤) ظفرامك رقم (٣٣٠) .

(٤٠) انظر الوثيقة رقم (٣) دفتر رقم (٨) عابدين صادر لظفرامك عربي

سفيرة من (١٣/٢٥) ظفرامك رقم ١٥٣ .

(٤١) انظر الوثيقة رقم (٤) دفتر رقم (٥٨٣) صادر معية سفيرة مكاتب

تركي من (١٤) مكتبة رقم (١) .

(٤٢) حارة النحاس : تقع على مسيرة ستة ايام الى الشمال من منطقة

منجة . وعلى الحدود الجنوبية لدارفور وكان النحاس ينقل منها الى الاسواق

على صورة حلقات رفيعة المصنوعة الزوايا يثراوح وزنها ما بين خمسمائة

وخمسين رطلا او ما يزيد ، او صورة أشكال بيضاوية الشكل غير مثقنة الطرق .

وكانت الفئة رطل من النحاس تساوى ألفا وخمسمائة قرش اى ما يوازي خمسة

عشر جنيهها انجليزيا وكان بالغ النقاء حتى انه يفوق ذلك المستورد من أوروبا ،

وكان بالإمكان استخراج تسعة وتسعين لظفرا من النحاس من الفضة تقطران من

النحاس الخام ، ولم يكن هذا العمل شائعا ، فقد كان من بين اتباع الزبير من اعداد

العمل في هذه المناجم وكان الزبير قد أرسل عينه من النحاس المستخرج الى

القاهرة لفحصها عندها من مديرا لبحر الغزال فوجدوا أن النحاس المستخرج منها نقي وصالح للاستغلال ، وكان بنقص الأعالى يستعملونه بالطرق البدائية ويستعملونه بعد ذلك في عمليات المعالجة .

(٤٣) شوقي الجبل (دكتور) : تاريخ السودان وادى النيل ج ٢ ص ١٧٠ .

(٤٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(٤٥) Schweinfurth, G. : The heart of Africa PP. 195 — 197

(٤٦) تقع على مسيرة خمسة أيام من ديم الزبير .

(٤٧) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٤٦ — ٤٧ .

(٤٨) انظر الوثيقة رقم (٥) دفتر رقم (١٢) وارد هابدين ظفرانك مرس

من (١٨/٣٦) ظفرانك رقم (٢٨٠) .

(٤٩) انظر الوثيقة رقم (٦) دفتر رقم (١٨٥) وارد هابدين بحية سبية

بكاتبات من (٤٢) بكتابت رقم (٨) .

(٥٠) لم يتم العثور على هذه الرسالة ضمن الوثائق المحفوظة بدار الوثائق

التاريخية أو في مراجع السودان .

(٥١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٢٧ — ٤٨ ، ١٥٥ .

(٥٢) جعفر باشا مظهر : (١٢٨٢ — ١٢٨٧ هـ الموافق ١٨٦٦ — ١٨٧١ م)

انتم عليه اسماعيل باشا برتبة اللواء والثيقان المجهدي الثاني وسعى جعفر باشا مظهر حاكما عاما للسودان فدخل الخرطوم في ٧ شوال ١٢٨٢ هـ الموافق ٥ مارس ١٨٦٦ م وحدث في هذه غلاء فاحتل بالخرطوم حتى هاج الناس ، وفي ١٨٦٦ م ذهب الى سنار غازي غلى وكورمان فاستطلع أحوالها وعاد الى الخرطوم وطلب رد العساكر السودانية الى مصر وفي ١٨٦٧ م أرسله اسماعيل باشا في مهمة الى البحر الأحمر فعاد منها في سنة ١٨٦٨ م وفي هذه كانت حملة البسلاكي المشنورة واكتشاف سير مسمويل بيهك لبحيرة البرت .

(٥٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٤٨ — ٤٩ .

(٥٤) رابع غشل الله : ولد في حي سلامة باشا بالخرطوم سنة ١٨٤٦ م

منحدر من قبيلة البق ، وكان والده غشل الله يعمل في الجيش المصري ، وعلى يدى المصريين من موظفي الحكومة بالخرطوم تعلم رابع القراءة والعلوم الأولية كما حفظ القرآن ، وحين اشتد ساعده عمل في الشركات حتى وصل الى وكيل شركة وهي الشركات التي كونها تجار الرقيق ، وقد لبع اسم رابع مقترنا باسم الزبير لانه كان سيفه المنتصر في حروبه في كل من بحر الغزال ودارفور وحين حضور

الزبير الى مصر نراه يخلص لابن رعيه سليمان في هرويه ضد السيطرة الاجنبية في السودان ، ولكن حين اعيد سليمان سيقه واستكان لوعود رومولو جسي بالعفو عنه يخاطبه وذكره بوالده المعتقل في مصر ثم لوى زمام فرسه الى غرب السودان ومعه ارميئة وائف غارس .

(٥٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٤٦ - ٥٢ .

(٥٦) انظر ملحق الوثائق الوثيقة رقم (٦) .

(٥٧) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٥٢ - ٥٣ .

(٥٨) Jackson, H.C : the black ivory and white PP. 43 — 44 .

(٥٩) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٥٤ .

(٦٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٥٤ - ٦٠ .

(٦١) مكي شيككة (دكتور) : المرجع السابق من ص ٨٤ .

(٦٢) شوتى الجمل (دكتور) : المرجع السابق من ص ١٧٢ .

(٦٣) مكي شيككة : المرجع السابق من ص ٨٤ .

(٦٤) آدم باشا : كان من اظم غباط الجيش المصري المنظم وقد تولى له مصر ورافق ابراهيم باشا الى بلاد الشام فاشتبه بالهسالة والانداد وذهب لكسلا لاختاد ثورة بها وهو عربي الجنسية وابوه محمد ذو البنت شيخ عريان دار حامد بكردستان .

(٦٥) انظر الوثيقة رقم (٧) دفتر رقم (١٨٦٤) وارد معية سنية مكاتبات من (٢٨) مكتبة رقم (٤) .

(٦٦) مكي شيككة (دكتور) : المرجع السابق من ص ٨٤ .

(٦٧) انظر الوثيقة رقم (٨) دفتر رقم (١٨٧٢) وارد معية سنية مكاتبات عربي (١٧) مكتبة رقم (٧٨) .

(٦٨) خيرى باشا : كان يشغل وظيفة مهردار الخديو اسماعيل باشا .

(٦٩) انظر الوثيقة رقم (٩) دفتر رقم (١٤) صادر عابدين ظفرات من (٢٢/٤٥) ظفرات رقم (٣١٦) .

(٧٠) انظر الوثيقة رقم (١٠) دفتر رقم (١٨٦١) صادر معية سنية عربي مكاتبات من (٧١) مكتبة رقم (١٧) .

(٧١) حرب الرزيقات : اذا اخترقنا حدود كردستان الجنوبية دار الحمر الى دارفور . فخلنا بلاد الرزيقات نجد حرب الرزيقات الذين يسلون اكثر قبائل دارفور ثروة واقواهم نفوذا ، ووطنهم تقع في اقصى الجنوب الشرقى لدارفور ما بين

البحر شرقا ، وقبائل الهبانية غربا ، والدنكا جنوبا ، وينقسم التريقات الى ثلاثة اقسام هم الماهرة والمجاد والنوابنة ، وهناك ثلاثة قبائل بهذا الاسم في قبيل دارفور كلها تعمل برعى الابل ، وبعضها يعيش على حدود دار واداي ، وهذا ما يحمل على الظن من ان شعية من كل من هذه القبائل الثلاث قد هاجرت الى الجنوب وعاشت في اوطانهم متجاورة ، ثم اتحدت فكونت قبيلة التريقات التي أصبحت من اعظم واشهر قبائل القارة .

- (٧٢) مكي شببكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٤ - ٨٥ .
 (٧٣) انظر الوثيقة رقم (١١) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد محية سنية مكاتبات ص (٢) مكتبة رقم (٦٤) .
 (٧٤) انظر الوثيقة رقم (١٢) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين ظفرانات سفرة تركي ص ص (٥/١٠ ، ٦/١١ ، ٦/١٢ ، ٧/١٣ ، ٧/١٤) ظفراف رقم (٧) .
 (٧٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٦٢ .
 (٧٦) بلغة : وهي التي اتخذها الزبير عاصمة له في بحر الغزال وعرفت فيما بعد باسم خم الزبير ثم بدس سليمان الزبير الفصل الاول .
 Jackson, H.O. : Op. Cit., P. 51. (٧٧)

- (٧٨) سعد الدين الزبير : المرجع السابق السابق ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .
 (٧٩) شيكا : عاصمة بلاد التريقات واحد مراكز تجارة الرقيق المهمة .
 (٨٠) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٦٦ - ٦٩ .
 (٨١) مكي شعية (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٥ .
 (٨٢) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٦٩ .
 (٨٣) الزبير رحمة : (جامعة ياسين حمد محمد) : الاجوبة السديدة في تهديد وانذار أهل المكيدة ص ٢ - ٤ .
 (٨٤) مكي شببكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٦ .
 (٨٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٦٧ - ٦٨ .
 (٨٥) مكي شببكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٦ - ٨٧ .
 (٨٦) انظر الوثيقة رقم (١٣) دفتر رقم (٢١) وارد عابدين ظفرانات سفرة عربي ص ص (٢٨/٥٥ ، ٢٨/٥٦) .
 (٨٧) القلقام : وهي تماثيل رقية المعبد في الرتب الجديدة .
 (٨٨) انظر الوثيقة رقم (١٤) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين ظفرانات سفرة عربي ص ص (١٧/٣٣ ، ١٧/٣٤) ظفراف رقم (٢٠٠) .

(٨٩) انظر الوثيقة رقم (١٥) دفتر رقم (٢١) وارد عابدين تفرغات شجرة
 عريش من ص (٣٠/٥٦ ، ٣٠/٦٠) تفرغات رقم (٣٥٨) .
 (٩٠) انظر الوثيقة رقم (١٦) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تفرغات شجرة
 من ص (١٧/٣٤ ، ١٨/٣٥) تفرغات رقم (٢٠٧) .
 (٩١) انظر الوثيقة رقم (١٧) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تفرغات شجرة
 عريش من (٢٧/٥٣) تفرغات رقم (٣٤٨) .
 (٩٢) انظر الوثيقة رقم (١٨) دفتر رقم (٢٧) وارد عابدين تفرغات شجرة
 عريش من (١/٢) تفرغات رقم (٨) .
 (٩٣) انظر الوثيقة رقم (١٩) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تفرغات شجرة
 عريش من ص (٢٦/٥٣ ، ٢٧/٥٣) تفرغات رقم (٣٤٦) .
 (٩٤) انظر الوثيقة رقم (٢٠) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تفرغات شجرة
 عريش من ص (٤٢/٨٢ ، ٤٢/٨٤) تفرغات رقم (٥٠٦) .
 (٩٥) انظر الوثيقة رقم (٢١) دفتر رقم (٢٢) وارد عابدين تفرغات شجرة
 عريش من ص (٢٦/٥١ ، ٢٦/٥٢) تفرغات رقم (٢٧٤) .

(٩٦) عبد الله النعاشي : وهو من قبيلة النعاشية من لرح الجباراب من
 بطن يقال له ابو مسرة وجده يدعى أحمد نعايشي ، وقد كان جده هذا في هجيرة
 من أعمال شكا لما تولى الخلافة في عهد المهدية أمر أصحابه بعمل حية فوق ضريحه
 ودعا الناس لزيارته . وكان عبد الله يعرف على الكرار من بلاد الناري الذي تقع
 بين واداي وتلوج بالقرب من امرأة منهن امرأة ولدت له عبد الله سنة ١٢٦٦ هـ
 الموافق ١٨٥٠ م كان والده يلمه المرضي وفور الاستقام يلتبسون هذه الثياب
 بما يطوون من القرآن علما تقدم به السن قام عبد الله عليه في هذه الصناعة إلى
 أن دعاه عرب الزنقات عند تسويب الحرب بينهم وبين الزبير لقراءة الاسماء لهم
 لعلها تقبض على سلاح الزبير ورجاله فلا يطلق النار في صناعة الحرب وتصادفوا له
 في محال هذا بفترة حلوب وقد نشأ عبد الله هذا ولم تكن له رغبة في التعليم ولم
 يحفظ القرآن الا بعد جهد شديد .

(٩٧) حلة السروج : تقع بين مركز شكا ودارا ببلاد دارفور .
 (٩٨) نعوم شخير : المرجع السابق ج ٢ من ص ٧٠ - ٧٢ .
 (٩٩) Henderson, K.D.D. : The Sudan Republic P. 35.

(١٠٠) نعوم شخير : المرجع السابق ج ٢ من ص ٧٢ .
 (١٠١) الزبير رحبة (جمعة ياسين عبد محمد) : المرجع السابق من ص

٤ - ٦

- (١٠٢) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٢ ص ٧٢ .
- (١٠٣) مانيو بن علي : شيخ مشايخ قبيلة عرب الرزيقات
- (١٠٤) الزبير رحمة (جمعة ياسين - محمد محيد) : المرجع السابق ص ٦ - ١٠
- (١٠٥) عبد الرحمن زكي : اعلام الجيش والبحرية في مصر أثناء القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٣ .
- (١٠٦) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ج ١ ص ٩٣ .
- (١٠٧) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٢ ص ٧٤ .
- (١٠٨) شوقي الجبل (مكتور) : المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٥ - ١٧٦ .
- (١٠٩) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٢ ص ٧٤ .
- (١١٠) انظر الوثيقة رقم (٢٢) دفتر رقم (٢٢) واردة مابين تفرانات شقرة مرسى من (٢٦/٥٢) تفراف رقم (٢٧٠) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٢٣) دفتر رقم (١٦) صادر مابين تفرانات شقرة مرسى من (٤٤/٨٨) تفراف رقم (٥٣٦) .

الفصل الثالث

الدور الذي لعبه الزبير في فتح دارفور

الدور الذي لعبه الزبير في فتح دارفور

أولا : الأسباب التي أدت لغزو سلطنة دارفور :

اتسمت العلاقات بين مصر ودارفور(١) لفترة غير قصيرة تمتد الى ما قبل تولي محمد علي الحكم في مصر بالطابع العدائي . وكان من أسباب ذلك هو طموح محمد علي نفسه ومن تولي من بعده الحكم في مصر -- حتى قدوم الخديو اسماعيل باشا -- في ضم هذه السلطنة الى الممتلكات المصرية في السودان(٢) وظلت فكرة غزو سلطنة دارفور ، واخضاعها لسلطة الحكومة المصرية هدفا وأملا يراودان كل من تولي حكم مصر ، الا ان الجهود التي كانت تبذل في هذا السبيل كانت تتعثر في أغلب الأحيان لأسباب كثيرة منها سياسة الحذر التي اتبعها كل من تولي حكم دارفور ، من السلاطين في اقامة أي نوع من العلاقات مع حكام مصر خشية اناقة الفرصة امام هؤلاء للتدخل في الشؤون الخاصة بالسلطنة .

وفي أواخر القرن التاسع عشر تجمعت الأسباب القوية التي جسدت فكرة غزو دارفور ، ووضسروا اخراجها الى مجال التنفيذ الفعلي . ففي سنة ١٨٧٤ م ساعدت عدة عوامل وعجلت بسقوط هذه السلطنة فكانت فترة حكم الخديو اسماعيل هي الفترة

التي شهدت نهاية الماضي الطويل لسلطنة دارفور ، ويمكن ايجاز
هذه الاسباب في النقاط الآتية :

أولاً : الحاجة الى إلغاء تجارة الرقيق في السودان الغربي
(دارفور وما جاورها)

ثانياً : الخوف من أن تصبح دارفور بسرعة مركزاً لتجمع
تجار الرقيق — وهم غير المرغوب فيهم والمتذرون — مما يهدد
سلطة حكومة الخديو في السودان .

ثالثاً : قوة الزبير رحمة كتاجر الآخذة في النمو والازدياد (٣) .

رابعاً : قبائل الرعساء التي تعيش بكرديان لم تكن لتكترش
بالحُدود السياسية ، بل تهرب خارج تلك الحدود عند مطالبتها بدفع
الضرائب ، أو عند اقتراحها أعمالاً تستحق العقاب .

خامساً : كانت حكومة دارفور قد بلغت درجة كبيرة من
الضعف ، وكان النزاع على السلطة فيها قد بلغ درجة خطيرة (٤) .

وفي سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨٧٤ م كانت السلطات في
القاهرة متمسكة بالرأى القائل بأن غزو دارفور سوف يوسع
النهاية السريعة لتجارة الرقيق . وكان يشارك في هذا الرأى
من كان على دراسة تامة بحجم وابعاد مشكلة الرق وتجار الرقيق
في هذا الجزء من افريقيا . وكانت الرقابة المحكمة على النيل
الأنبيض هي التي أضلّت هذا الممر الرئيسي في وجه تجار الرقيق .
وتحت إدارة كل من سير صمويل بيكر S.S. Baker وجوردون
Gordon أمكن طرد تجار الرقيق من أعالي النيل والتجاء
عدد كبير من هؤلاء التجار الى دارفور حيث شجعهم هناك
على الاستمرار في تجارتهم بسلطان الفور اويين حسنين بن

الفضل (هـ) . الذي كان معظم دخله يعتمد على تجارة الرقيق بعد ذلك أصبحت دارفور هي الملجأ الأمين لتجارة الرقيق في غرب السودان ، وكانت عمليات تهريب الرقيق إلى السودان ومصر مستمرة . لذلك كان القصد الرئيسي هو وقف عمليات التهريب هذه فعمد جوردون إلى إقامة بعض النقاط العسكرية على طول نهر السوبات مع اتخاذ بعض الإجراءات العسكرية ضد هؤلاء التجار . وبالرغم من ذلك فإن التجار كانوا يقومون بتهريب رقيقهم خلسة كردفان إلى النيل الأبيض أو عبر صحراء مصر ، وقد تأكد وثبت في الأذهان أن إخضاع تجارة الرقيق لن يكون ذا فاعلية ، إلا إذا تم غزو سلطنة دارفور وفتحها أمام التجارة المشروعة وبهذا العمل سوف تقوم مصر بأداء خدمة عظيمة للإنسانية . وقد كانت سلطنة دارفور لمدة طويلة تحوطها الكراهية من جانب العالم الخارجي نظرا لكونها مركزا لهذه التجارة المقتولة . وبعد اتام فتحها والقضاء على هذه التجارة سوف تكون محطاً للتأثيرات الحضارية الوافدة والمفيدة من جميع أرجاء العالم الخارجي .

وفي سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨٧٤ م أصبح جزء من دارفور مكانا يجتمع فيه أغلب تجار الرقيق الذين استأنفوا من الإجراءات التي اتخذها ضدهم الخديو اسماعيل باشا . وكان الخوف من أن يقوم هؤلاء التجار والمؤيدون لسلطان دارفور بمحاولة الثورة ضد الحكومة إذا دعت الضرورة إلى ذلك . ولم يكن هناك شك في أن سياسة حكومة الخرطوم في القضاء على تجارة الرقيق سوف تؤثر على إيرادات سلطان دارفور حسين بن الفضل وبالتالي على التحالف القائم بينه وبين تجار الرقيق . لذلك كان هذا الغزو ضروريا للاعتبارات السياسية ، وأيضاً لمواجهة قوة الزبير التي استقطبت في إقليم بحر الغزال ، وخصوصاً بعد فشل البلاي في حبلته التي انتهت بمصرعه في سنة ١٨٦٩ م الموافق ١٢٨٦ هـ

والتي أصبح للزبير بعدها مكانة وسلطة واسعة بين أتباعه وتجار الرقيق في بحر الغزال . فكان اسقاط الزبير وضم مملكة دارفور الى مصر هما عين ما تريده حكومة الخديو في القاهرة .

وبرغم ان ضم دارفور لم يكن من بين اهداف حملة البلالى بل كان الهدف كما سبق من هذه الحملة هو اسقاط الزبير ، والقضاء على ما لتجار الرقيق من نفوذ في بحر الغزال . ورغم ذلك كان السلطان حسين على علم بهذه المغامرة التي سوف تقدم عليها الحكومة . فاستعد للموقف واخذ حذره للدفاع عن نفسه وبلاده اذا ما حاول البلالى غزوها . وقد وصلت الى القاهرة انباء هزيمة البلالى مما جعل الادارة في مصر تنور . ومع ذلك لم يتخذ جعفر باشا مظهر حاكم السودان من جانبيه أية اجراءات ضد الزبير . وفي سنة ١٨٧١ م عين اسماعيل باشا ايوب حاكما عاما للسودان وظهر ان هناك استعدادات تتخذ لارسال حملة ضد الزبير . وقد خاف الزبير انتقام الخديو منه لذا فقد عمل على تهدئة سلطات الخرطوم بكل وسيلة ، واعتذر عن افعاله السابقة ، وتوسل بكل تواضع طالبا العفو والسماح لحادثة البلالى ، ووعد في مقابل ذلك بهاجية حدود دارفور ولما رأى اسماعيل باشا ايوب منه ذلك تخلى عن استعداداته العسكرية ، وكتب الى القاهرة في افضلية حضور الزبير اليها للتشاور ، وكانت الادارة في كل من القاهرة والخرطوم تنتظر تطور الاحداث في بحر الغزال قبل القيام بأي عمل مخادع ضد الزبير (٦) .

وقد ظهر ان الحكومة في القاهرة كانت تخطط سياستها في السودان لهدفين :

اولا : غزو سلطنة دارفور وضمها الى الممتلكات المصرية في السودان ، وبذا يمكنها القضاء على اهم مراكز التجارة غير الشرعية (تجارة الرقيق) .

ثانيا : القضاء على الزبير رحمة وما له من نفوذ وسيطرة في منطقة بحر الفزال ، وبذلك يمكنها ان تحكمها دون اننى ازعاج من اى جانب .

استطلاع احوال دارفور الداخلية :

محتى هذا الوقت لم يكن يعرف عن دارفور سوى القليل من المعلومات الغامضة المستقاة من أصحاب القوافل التجارية وغير ذلك من المصادر المختلفة . لذا فقد رأت الحكومة المصرية انه لا بد من العمل على استكشاف احوالها الداخلية بكل الطرق المتيسرة ممهدا لغزوها . فطلبت من جعفر باشا مظهر اثناء حكمداريته على السودان بحث مسألة مدى صمودية او سهولة الطريق المؤدية الى دارفور مع بحث احوال هذه السلطنة ذاتها . فاطلع جعفر باشا مظهر على رحلة التونسي باللغة الفرنسية التى ارسلت للقاهرة لترجمتها . ولكن القاهرة اجابت بانها مترجمة ، والمعلومات التى وردت بها قديمة وغير موثوق بها . لذلك ارسلت بعثة برئاسة القائمقام محمد نادر باشا الى دارفور . فى التقرير الذى قدمه عن هذه الرحلة - ويترفع فى اثنى عشرة صفحة - وصفا لما شاهده من ابتداء قيامه من جهة ابو حراز حتى وصوله الى الفاشر مركز حكومة دارفور ، وما جرى اثناء اقامته بترك الجهات من محادثات ونحوه وما سمعه من الاخبار والروايات كما هو مشروح تفصيلا بالاصـسـل . كذلك كيفية معاملة هو ومن معه اثناء اقامتهم لدى السلطان ، وتضمن التقرير أيضا وصفا للطرق والدروب وحالتها ، والبلدان التى مر بها ، والمسافات التى قطعها بساعات السير . واشار نادر باشا فى تقريره أيضا لظاهرة تجمع مياه الأمطار فى اشجار التبلدى المحفورة الوسط (V) .

وعن قوة وزير السلطان العسكرية ، وعن جيش دارفور ومدى بدائيته واسلحته التى لا تخرج عن مجرد سيوف ورماح وجانب ضئيل من الأسلحة النارية . كما تكلم عن الاحتياطات المشددة التى اتخذت معه وعدم السماح له بحرية الانتقال أو التجول . ونظام التشريفات السلطانية ، كما أشار الى استثمارات السلطان عن مصر وعن نواياها تجاه دارفور فأجابه بانها طيبة . وقد قدر نادى باشا أن حملة من ألفى رجل يمكنها فتح دارفور . ويستنتج من التقرير بصحة ملحة بأن غزو دارفور ممكن لعدم نرض السلطان لسلطته على جميع بقاع دارفور وكذلك لضعف جيشه (٨) . وقد اعتبرت المعلومات التى وردت بتقرير نادى باشا يمكن الأخذ بصحتها الى حد بعيد . الا أنها لم تكن الصورة المنشودة التى تريدتها حكومة القاهرة عن أحوال دارفور .

ثانيا : اسباب النزاع الذى نشأ بين الزبير والسلطان ابراهيم :

١ - الدوافع السياسية والعسكرية :

كان هناك ما يشبه الاتفاق بين الزبير رحمة ومشايخ عرب الرزيقات استمر منذ مارس ١٨٦٠ م الموافق سنة ١٢٧٧ م وذلك من أجل فتح طريق للقوافل خلال أراضي الرزيقات من بحر الغزال الى شكا ، وكان فتح هذا الطريق من الاهمية بمكان بالنسبة للزبير باعتباره التاجر الأول فى بحر الغزال ، وخاصة بعد إغلاق طريق النيل الأبيض أمام التجارة غير المشروعة (الرقيق) بعد المحاولات التى قام بها جوردون خلال فترة إدارته للسودان فى الاقاليم الاستوائية . ومع ذلك فعندما نشبت الحرب بين الزبير والسلطان تكه به سنة ١٢٨٩ هـ الموافق سنة ١٨٧٢ م (٩) نقض مشايخ عرب الرزيقات عهدهم مع الزبير فسلبوا ونهبوا واغتصبوا حراس الطرق حتى مدينة شكا . وبعد انتهاء هذه الحرب فى

سنة ١٨٧٣ م الموافق سنة ١٢٩٠ هـ حاول الزبير إعادة فتح الطريق الى شكا ، ولكن محاولاته باءت بالفشل ، حينئذ استغاث الزبير بسلطان دارفور (١٠) - الذى كان قد بسط نفوذه حديثا فى بلاد الرزيقات فى سنة ١٨٧٣ م الموافقة سنة ١٢٩٠ هـ - من تصرفات عرب الرزيقات وطلب مساعدته . ولكن استغاثته التى عبر عنها فى صورة رسائل للسلطان لم تلق اى صدى لديه . قام الزبير فى الأشهر التى تلت ذلك بمهاجمة بلاد الرزيقات ، وسقطت مدينة شكا فى يده وانهزم عرب الرزيقات ، وفى ساعات الحرب استتدار الزبير للسلطان ابراهيم يطلب مساعدته واكنه لم ينجده بأى شىء وتبع ذلك قصة فرار الشيخين منزل وعليان ورفض السلطان تسليمهما للزبير (١١) . وقد استاء السلطان من فقد مدينة شكا أهم مركز تجارى ، واعتبر كل إقليم الرزيقات جزءا من الاراضى التى تحت سيطرته ولذلك طلب السلطان من الزبير سرعة اخلاء شكا .

وفى نوفمبر سنة ١٨٧٣ م الموافق رمضان سنة ١٢٩٠ هـ كان واضحا ان السلطان يريد الحرب وان الزبير قرر ان يستميل لتأييده حكومة الخديو ، وظهر ان السلطان ابراهيم كان لديه ما يكميه من السلاح والبارود ، وان الزبير على علم بأن دارفور تستطيع ان تحشد جيشا ضخما فى ميدان القتال ، وقرر الزبير فى نفس الوقت ان يكون تدخل سلطة حكومة السودان مؤكدا فى حالة ما اذا نشبت الحرب بينه وبين السلطان لانه بذلك سوف يضمن ألا تسدد الحكومة له طعنة من الخلف ، كما ان فرصة انتصاره على السلطان سوف تكون أكثر تأكيدا . كل هذه المعاني كانت تدور فى ذهن الزبير منذ ارادت الحكومة اضممات دارفور الى ممتلكاتها فى السودان . وفى نفس الوقت كانت القاهرة والخرطوم حريصتين على ألا تدع الزبير يتفرد بشار انتصارات جديدة فى

دارفور . لذلك حاول الزبير أن يضمن التوصية الحسنة والتأييد من جانب حاكم مام السسودان . وفي نوفمبر سنة ١٨٧٣ م الموافق رمضان سنة ١٢٩٠ هـ أرسل الزبير خطابا الى اسماعيل باشا أيوب يحمل أخبار انتصاره على عرب الرزيقات واحتلاله لمدينة شكا . وقد تقدم بالنيابة ممن اشتركوا معه في فتح هذه البلاد هدية للحكومة الخديوية ، وطلب ارسال مدير يتولى بالنيابة عن الحكومة المصرية حكم هذه الاجزاء ، أملا في أن يتوجه هو لتجارته ويستعيد مكانته كتاجر وفي نفس الوقت أبلغ السلطان ابراهيم بأن قواته لن تظلي مدينة شكا حتى يعلن السلطان خضوعه لحكومة الخديو في القاهرة . ولكن السلطان استغاث بدوره بالقاهرة ، وحاول أن يمنع بشتى الطرق أى تحالف بين جيش الزبير وقوات الحكومة . منها أنه أرسل الكثير من الهدايا النفيسة الى القاهرة وأخذ يتوسل لدى الخديو ليعمل على وقف هذه الحرب التي بدأت أو أوشكت دون أدنى سبب يذكر من وجهة نظره ، ومع ذلك ذهبت هذه التوسلات هباء دون أى اعتبار لما قدمه . وكانت حكومة القاهرة قد سال لعابها وطمعت في غزو دارفور . وكان الوقت لأن يكون هذا الغزو في يدها ، ولكن اذا سمح الزبير - الذي ذاعت شهرته - لنفسه أن يخصص غنار هذه الحرب بمفرده ، فإن هذا يعنى عدم استجابته للاهتمامات المصرية التي كانت تهدف الى الاشتراك في هذه الحرب . وكان يبدو أن هناك ترجيحيا بخطة الزبير التي تهدف الى اشراك الحكومة في هذه الحرب ، وإن اسماعيل باشا أيوب قد نصصح الحكومة بقبول المروض التي قدمها الزبير . وأنه أوصى باستفاد ادارة كل من شكا وبحر الغزال اليه في مقابل جزية سنوية يدفعها للحكومة .

وفي نوفمبر سنة ١٨٧٣ م الموافق رمضان سنة ١٢٩٠ هـ رعى الزبير الى رتبة البليك ، وأسند اليه حكم اقليم شكا وبحر الغزال ، وقد تحدت الجزية بما يوازي ١٥٠٠٠ جنيه سنويا يدفعها

للحكومة . وعندما اقتربت الأمور من نهايتها تمكن الزبير من أن يعتمد على تأييد حكومة الخديو في القاهرة مصمما على الاستيلاء على دارفور (١٢) .

ويمكننا إيجاز أوجه الخلاف بين الزبير والسلطان ، التي كانت سببا في اندلاع الحرب بين الاثنين في النقاط التالية :

أولا : رفض السلطان مد يد المساعدة للزبير أثناء حربه مع عرب الرزيقات وتعاون السلطان معهم ضد الزبير ، وكفلك رفضه تسليم مشايخهم للزبير .

ثانيا : شعور السلطان إبراهيم بأن احتلال الزبير لبلاد شكا التي اعتبرها جزءا من بلاده فيه مساس بسيادته على أراضيها .

ثالثا : رفض الاستجابة للنداءات التي وجهها له الزبير بالكف عن التعاون مع عرب الرزيقات ، فكان هذا بمثابة تحقير من السلطان لهذه النداءات التي بعث له بها الزبير في صورة خطابات .

وقد قيل أن الزبير أراد بهذه الحيلة في المراسلات أن يضع سلطان دارفور أمام الأمر الواقع ، وأن يتنقل عليه بالمطلب فلا يستطيع له تلبية أو تنفيذا . حينئذ يجد الزبير سببا في قتال عرب الرزيقات وغزو دارفور (١٣) .

ولم يكن صحيحا أن يضع الزبير السلطان في دائرة مغلقة لا يستطيع الخروج منها أو أنه تعمد ذلك ، بل كان القصد الرئيسي من وراء رسائله للسلطان وخاصة الأولى منها هو توجيه النصيح والإرشاد له والتذرع بالصبر والأناة في فهم حقيقة الموقف حتى لا يقع فريسة للفتن التي كان يبيتها له زعماء عرب الرزيقات ، ويدخل في حرب لا يعلم نتائجها مع الزبير نفسه والحكومة الخديوية . ولكن عندما لم يستجب السلطان لهذه النصائح

والارشادات والتوجيهات بدأ أسلوب هذه المراسلات يأخذ أسلوباً آخر وشكلاً آخر من جانب الزبير .

٢ - الأسباب الاقتصادية :

يضاف الى الدوافع السياسية والعسكرية التي تولد عنها النزاع بين الزبير والسلطان والتي أدت الى قيام الحرب بينهما ، دوافع اقتصادية شاركت في نشأة هذا النزاع ، ذلك أن النورانيين كانوا يعتمدون على حوض بحر الغزال كمجال حيوى لهم لاصطياد الرقيق وجمع العاج . ووجدوا أن في سيطرة الزبير على هذا الجزء الذى يعتبرونه من مناطق نفوذهم حرماناً لهم من مصادر تجارتهم الرئيسية . فكان لا مناص من وقوع الحرب بينهم وبين الزبير بسبب ذلك . وقد أوجدت سيطرة الزبير على هذه المناطق (بحر الغزال وشكا) مجالاً حيوياً خارجاً عن سلطان الحكومة في الجانب الغربى للسودان . ولم تلبث أن فتحت أبوابها لهجرة المغامرين من تجار الأقاليم التي تسيطر عليها إدارة السودان . حيث اشتدت موجة التنكيل بالأهالى على يد الموظفين من المصريين والأجانب وعمالهم تنفيذا لمعاهدة منع تجارة الرقيق تنفيذاً صارماً دون مراعاة لمصلحة الأهالى الذين كانوا يعتمدون اعتماداً كلياً بحكم العادات الموروثة على خدمة الرقيق . وقد وجد التجار المهاجرون في المناطق التي سيطر عليها الزبير متفلساً لكريتهم ولو ترك الأمر للزبير ليحل وفق طريقته الخاصة ، ولم تضع الحكومة في وجهه العراقيل ولم تغدر حكومة جوردون بآبائه لاستطاع الزبير منع هذه التجارة المقنونة في فترة قصيرة في الوقت الذى يعمل فيه على تغيير الاتجاهات المحلية والتوسع الاقتصادى على المستوى الذى ينتقل فيه الرقيق الى مركز ييسر له الحرية في العمل كما يشاء وبالأجر الذى يرتضيه لنفسه مادام المال متوافراً لمواجهة ذلك التطور (١٤) .

قيام الحرب بين الزبير والسلطان ومشاركة الحكومة فيها :

في أواخر سنة ١٨٧٣ م الموافق سنة ١٢٩٠ هـ تصدت القوات المصرية في السودان لقافلة من الرقيق كانت قادمة من دارفور مغضب لهذا السلطان ابراهيم ووجد الفرصة سانحة أمامه للانتقام من الزبير ، فهاجم بقواته أطراف البلاد الواقعة تحت حكم الزبير واستطاع أن يدمر ما كان فيها من مخازن للتجارة والغلال . كان هذا ما ينتظره الزبير منذ أمد طويل لذا فقد سارع باستئذان اسماعيل باشا أبوب في بدء الهجوم على سلطنة دارفور فلم يتردد في الآن له بذلك (١٥) .

وكان هذا يغار من مجد الزبير وبسالته (اسماعيل باشا أيوب) فأراد أن يشترك معه في الفتح ، وعندما طلب الزبير منه المدد بعث إليه ما لم يزد على ٢٨٠ جنديا وثلاثة مدافع (١٦) . وقد فكر عبد الرحمن زكي أن الحكومة المصرية أمدت الزبير بخمسة آلاف بندقية ومائة ألف خرطوشة (١٧) . وهو ما لم تؤكد بقية المساسر . ولكن الحكمدار خشي أن يترك للزبير بمفرده غير الاستيلاء على هذه البلاد وحده ، فوجهت الحكومة حملة أخرى تحت قيادة الحكمدار مؤلفة من ٢٢٠٠ مقاتل من الجنود السودانية والمصرية والتركية والمغاربية والمتطوعين ، وأربعة مدافع جبلية وبعض الأسلحة الأخرى . ووكّل إليها أمر الزحف إلى دارفور من الشرق بينما وُكّل للزبير أمر الزحف على دارفور من الجنوب على أن تلتقي الحملتان في الفاشر عاصمة الاقليم (١٨) .

استعد السلطان ابراهيم للحرب ضد الزبير وسمح لرجاله باصطياد الرقيق من بحر الغزال الذي كان يحسب الممتلكات المصرية (١٩) . وفي أوائل سنة ١٢٩٠ هـ الموافق سنة ١٨٧٣ م

توغل كل من الزبير والنور بك عنقرة الى ان بلغا حدود دارفور .
فى هذا الوقت كان عرب الرزيقات قد تصدوا بالاعتداء على قافلة
تجارية تمر بالطريق ما بين دارفور وبحر الغزال فقتلوا رجالها
ونساءها ونهبوا متاعها ، فطلب الزبير من السلطان تعويضا عما
لحق بهذه القافلة من اضرار فرفض طلبه هذا(٢٠) .

وفى ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ يناير سنة
١٨٧٤ م أرسل السلطان وزبيريه احمد شطه وسعد النور ومعهما
جملة مقاديم من امرائه على رأس قوة مكونة من ١٠ آلاف رجل
وقرابة ثلاثة مدافع لمحاربة الزبير ، والاستيلاء على شكا واسترداد
بلاد عرب الرزيقات . وقد امتدى هؤلاء على عساكر الحكومة
ونشبت بينهم معركة لمدة ساعة ونصف حتى قتل فيها أحمد شطه
وجملة من امرائهم ومقاديم جيوشهم وعدد كبير من عساكرهم وفر
الباقون ، وقد قتل من عساكر الحكومة وعساكر الزبير ما لا يزيد
على المائتى نفر ، واخيرا انتصر الزبير عليهم واستولى على ثلاثة
مدافع وبعض الأسلحة . اما البيرق والدرع والخوذة والسيف
الخاصة بالوزير المقتول . فقد أرسلها مع امداد بتفاصيل ما حدث
للحكمدار وطلب منه ارسال امدادية من العساكر والذخيرة وقد
قام الحكمدار بارسال الامدادات التى طلبها الزبير ، ولكنها لم
تصله الا بعد انتهاء المعركة بيومين(٢١) . وقد دار قتال عنيف بين
الطرفين فى معركتين متواليتين كان النصر فى الثانية من نصيب
الزبير وكان مصير جيش دارفور الهزيمة الكاملة بعد ان سقط قائد
الجيش فى هذه المعركة(٢٢) .

ويذكر سعد الدين على لسان الزبير نفسه فيقول : « فجرت
بينى وبينهما واقعتان كانت العاقبة لى فى كليهما ، وفى الثانية قتل
أحمد شطه وسعد النور وأبىد جيشهما . عندئذ فتح أمامى الطريق

الى دارا فتقدمت اليها واحتلتها وعزيت بتحصيتها تحصينا قويا
منيا « (٢٢) .

وبعد هذه الواقعة قام الزبير بارسال اسراه من الفوراويين
الى الخرطوم ، وطلب سرعة ارسال الامدادات اليه . وقد اعتبر
الفوراويين اسرى حرب ومعتدين وذلك منذ اصبحت شكا وبحر
الغزال من الاقاليم التابعة للحكم المصرى (٢٤) .

وصدر فى هذا الخصوص ارادة سنية الى حاكم السودان
بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ فبراير سنة
١٨٧٤ م تشير الى انه نتيجة الاعتداء الذى قام به الفوراويون
مان جهات دارفور وجميع محلاتها صارت تعلق الحكومة الخديوية
لذلك وجب اتخاذ الاجراءات اللازمة للاستيلاء عليها . واعدت
مرفقتان لهذا الغرض لدخولها من جهتي كردفان وبحر الغزال ،
وتشكيل مديريات فى الجهات التى يتم الاستيلاء عليها أولا باول
وتعيين المديرين اللازمين لها مع تبليغ شكر الجناب الفعلى للزبير
والانعام عليه بالرتبة الثانية (٢٥) .

وكتب الزبير بعد انتصاره فى هذه المعركة خطبا الى
السلطان ابراهيم بتاريخ غرة محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨
فبراير سنة ١٨٧٤ م يفكره فيه بما يأتى :

١ - ما قام به عرب الرزيقات من الأعمال العدوانية ضد
وحد الحكومة الخديوية وموقفه السلبى من كل هذا .

٢ - ما قام به الزبير نفسه من جهود فى سبيل فتح بلاد
الرزيقات واحتلالها منعا لتعديت هؤلاء العربان على التجارة
والتجار .

٣ - ما أرسله إليه من رسائل وأهملته الرد عليها وخاصة التي طلب فيها الزبير النجدة والمساعدة ضد الرزيقات .

٤ - ما كان من حسن العلاقة والجوار بين آباءه سلاطين دارنورو الدولة المصرية وضرورة استمرار هذه العلاقة الطيبة .

وفي نهاية خطابه لم ينس الزبير أن يدعو للتسليم وأن يروى له تفاصيل المعركة التي دارت بين جيشه وأكابر قواده في ٢٥ ذي القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ يناير سنة ١٨٧٤ م زيادة في التشفي فيه وإظهاراً لقوته (٢٦) .

وفي الوقت نفسه أرسل الزبير خطاباً آخر لعلماء دارغور بتاريخ غرة محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨ فبراير سنة ١٨٧٤ م حرصاً منه على أن يبادر هؤلاء العلماء باقتناع السلطان بالعدول عما يدور في نفسه من ضرورة استمرار الحرب بينه وبين الزبير والجنوح إلى السلم حقناً لدماء المسلمين ، ومنعاً لضياح أموالهم . وقد رأى الزبير أن تأثير هؤلاء العلماء قد يكون أكثر وقعاً في نفس السلطان منه هو شخصياً على أساس أن هؤلاء يمثلون الدين ورأيهم في ذلك هو رأي الدين . وقد شرح لهم الزبير في خطابه الهدف الذي جاء به إلى بلاد الرزيقات ، وأعاد عليهم ما كتبه إلى السلطان حياً منه في رفع الحرب ، وحقناً لدماء المسلمين. ثم ختمه بقوله : « نالامل من حضراتكم يا علماء الاسلام ان تفيدونا عما دنا سلطانكم الى محاربتنا وهلاك مساكرا المسلمين منا ومنه . فان كان له وجه شرعى فى ذلك ونحن المخالفين للشريعة فنحن نشكره على ما اجراه ونطلب منه المغفرة وان كان هو المخالف فكفى بالله شهيداً بيننا وبينه ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » (٢٧) .

ويبدو أن الحكومة الخديوية كانت تخشى تدخل موظفى الدول الأجنبية في هذا الموضوع نتيجة الاجراءات التي تتخذها للاستيلاء

على دارفور ، لذلك نراها ترسل الى حكمدار السودان تلغرافين بتاريخ ٢٢ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ فبراير ١٨٧٤ م تعلمه بما يجب التصريح به لموظفى الدول الاجنبية والسسياسات الاجانب عن تدخل الحكومة الخديوية فى دارفور بأن سبب ذلك هو حرص الحكومة على منح تجارة الرقيق فى هذا الاقليم ولو بالحرب ورد عدوان هؤلاء الامورايين على حدود الممتلكات المصرية فى السودان (٢٨) .

الاتصالات بين القاهرة والخرطوم :

بلغ مدير كردفان بعد ذلك ان السلطان اعتراه قلق عظيم من حركات الزبير واستمر فى جمع الجيوش الكثيرة لمقاومته ، وانه عازم على تولى قيادتها ضد الزبير بك كما انه قام بسد الطريق ما بينه وبين كردفان ، ونتيجة لذلك أصبح احتمال وقوع الحرب بين السلطان والزبير امرا لا مفر منه ، فابلى مدير كردفان حكمدار السودان بهذه الاخبار ، ورأى الأخير أن يبعث بتجندات للزبير على سبيل الاحتياط . وعندما بدأت الوقائع بين عساكر الزبير وعساكر السلطان ابلى الحكمدار الحكومة الخديوية فى القاهرة بذلك (٢٩) .

فى ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ فبراير سنة ١٨٧٤ م بعث برسالتين الى المعية السنية شرح فيها الحالة شرحا وافيا بناء على ما ابلغه به مدير كردفان ، وأوضح الحكمدار فى برقيته ايضا انه امر بتجهيز ثلاثة بلوكات من العساكر . ومائة عسكى خيالة باشبوزق ومدفع لارسالهم الى الزبير . كما انه كتب الى مدير كردفان ليعتد للزبير بمائة خيال ومدفع ، ويوصل هذه الامدادية للزبير بك بصير جملة الموجود بطرفه من القوات

أورطة بزيادة مستكبة، وأربعمائة خيال ، وأربعة مدافع ، هذا بخلاف الموجود من جماعته وعساكره وعساكر التجار الموجودين معه . كما أنه أشار بأنه أمر الزبير بأن يكتفى بالمحافظة على مديريته بحر الغزال فقط (٣٠) .

وفي الخامس والعشرين من نفس الشهر وردت للحكمدارية برقية توضح ضرورة نجدة الزبير بك باللازم من العساكر والمدافع والذخيرة والتنبيه عليه بالدخول في حدود دارفور وسسوق العساكر في المحلات التي يوجد بها مياه ، وعمل اللازم نحو فتح الطريق ما بين بحر الغزال وكردفان إذا كان مسدودا (٣١) .

وفي ٢٦ ذي الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٧ فبراير سنة ١٨٧٤ م بعث الحكمدار للبعية بطفرافين يطلب فيهما الامدادات اللازمة لنجدة الزبير ولامداد الحملة المزمع ارسالها لفتح دارفور ، وما يلزم لهذه الحملة من عساكر وأسلحة وذخائر ومهمات ومؤن وأموال ووسائل نقل من خيول وجمال ، كما شرح صعوبة الطريق وقلة المياه بها (٣٢) . وفي تلغراف يجهل نفس التاريخ طلب الحكمدار من القاهرة الموافقة على قيامه بنفسه الى كردفان للاشراف على اعداد الحملة المزمع ارسالها لغزو دارفور من جهة الشرق ، وتعيين محمد سعيد وكيله عنه بالحكمدارية أثناء غيابيه (٣٣) .

أبرق أيضا الحكمدار يقترح ارسال الامدادات التي طلبها لتزبير بطريق سواكن وكورسكو أبي حمد وذلك لضغوبة توفير ووسائل النقل اللازمة من مركز واحد (٣٤) . كما أخبر الحكمدار خيرى باشا بأن الطريق ما بين الخرطوم وكردفان مفتوح أما طريق كردفان دارفور فهو مغلق (٣٥) . وفي الثامن والعشرين من ذي

الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٩ فبراير سنة ١٨٧٤ م وردت للحكمدار برقية تحمل أوامر له بعدم مباحثته الخرطوم انتظاراً لما سوف يصدر له من أوامر وتعليمات بعد ذلك (٣٦) . وفى ٢٩ ذى الحجة رد الحكمدار بالموافقة على ما جاء بهذه البرقية من تعليمات وجدد طلبه من القاهرة بخصوص تعيينه على قيادة الجيش المتوجه لفتح دارفور لتسهيل وتسهيل كافة المصاعب التى قد تعترض أعداد هذا الجيش (٣٧) .

وفى السادس من محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٣ فبراير سنة ١٨٧٤ م أجابت القاهرة على الحكمدار فى برقية مجلة بخصوص مطالبه من العساكر والأسلحة والمؤن والأموال من أجل الأعداد لغزو دارفور ، إلا أنها رأت أن يؤجل غزو دارفور من جهة كردفان فى الوقت الحالى . وكانت الخطة التى وضعت للاستيلاء على سلطنة دارفور تقوم على أساس مهاجمتها من جهتي كردفان وبحر الغزال ولكن رأى الاكتفاء بالهجوم عليها من جهة بحر الغزال بصفة مؤقتة (٣٨) .

وقد أجاب الحكمدار على هذه البرقية فى الثامن من نفس الشهر بما يفيد استيعابه للتعليمات التى أرسلت إليه ، كما أوضح مدى المصاريف الباهظة التى ستتكلّفها إقامة العساكر المرسلة إلى بحر الغزال ، وهو أمر ليس فى استطاع ميزانية هذه المديرية الوفاء به ، ولا حتى الزبير بك لذلك اقترح على الحكومة أن يرسل العساكر الزبير بالتدريج وكلما طلب ذلك مع إحالة مصاريهم على الحكمدارية ، وقد أوضح أنه عرض على الزبير بك تعليمات الحكومة ليبدى رأيه فيها (٣٩) .

وقد وافقت الحكومة على مقترحات الحكمدار بوقف إرسال العساكر الباشبوزق من مصر على أن يرسل له أورطة عسكرية

مظاہیة جہادیة من السودان الشرقی فی الوقت الحاضر ، وقد طلبت الحكومة فی ردها علی برقیة الحکمدار ضرورة الاسراع فی ارسال الشبان الذین وعد الزبیر بارسالهم الی مصر ، وذلك لتدريبهم علی الحركات العسكرية والعمل علی تشسکیل اورط عسكرية نظامیة منهم واعادتهم للسودان(٤٠) .

وفی الحادی عشر من محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٨ مبرایر سنة ١٨٧٤ م أرسلت ارادة سنیة الی الزبیر بترقیته الی الرتبة الثالثة نظرا لما أبداه من هبة كبيرة فی هزيمة العساكر الدارفورية ومقتل وزیرهم ، وأسر جنودهم ، وجهود الزبیر ایضا فی منع تجارة الرقیق ، وضبط الأحوال بمديریة بحر الغزال(٤١) .

بعد أن اتفقت آراء القاهرة والخرطوم مع رأى الزبیر فی وجوب نزو دارفور ، بدأ كلا الطرفين فی التعاون من أجل انجاز تلك المهمة . وكانت البداية فی صورة النجيدات الیی یبحث بها الحکمدار للزبیر عندما حدث أول تصادم مع جیوش دارفور . بعدها جرت اتصالات موسعة بین المسئولین فی القاهرة والخرطوم من جهة والزبیر من جهة أخرى لاستكمال هذا التعاون الذی وضحت صورته فی نصوص البرقیات الیی عرضنا لها سابقا ، والیی انتهت الی ضرورة العمل الجدی لاتمام هذه المهمة علی وجه السرعة . وقد عکس هذا التعاون الاهداف الحقیقیة للحكومة الخدیویة من حیث رغبتها فی ضم هذه السلطنة لممتلكاتها فی امریقیا قبل أن یظفر الزبیر بهذه الغنیمة وحده دونها . وقد استمر سبل البرقیات الیی تحمل انباء الاستعدادات بین القاهرة والخرطوم لمدة كبيرة .

ففى ٢١ ربیع الاول سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٨ یونیة سنة ١٨٧٤ م أبرقت القاهرة الی حکمدار السودان تستعجل فیها

أرسال الشبان الذين كان الزبير قد وعد بإرسالهم إلى مصر بما يكفى تشكيل أورطتين أو أربع لتدريبهم واعانتهم للسودان(٤٢) .

وفى ٢٧ ربيع أول سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٤ يونيه سنة ١٨٧٤ م وردت برقية للمعية تفيد بأن الزبير قد أرسل إلى الحكمدارية ما صار اغتنامه من محاربته السابقة مع دارفور من أسلحة ومدافع وخلافه مع الاشياء المتعلقة بأحد الوزراء(٤٣) .

وقد تطلبت كل هذه الاستعدادات التي كانت تجرى من جانب كل من الحكومة الخديوية في مصر ومثلها في الخرطوم مصاريف باهظة . كما أن الزبير لم يكن لديه من الأموال ما يستطيع الاستمرار في الصرف على جيشه الخاص ، ودفع مرتبات العساكر والضباط المرسلين إليه في صورة نجدات من الحكمدارية . لذلك أرسل إلى الحكمدار بطالبه بدفع مبلغ ثلاثة آلاف كيسة نقدية قيل أنه أي الزبير قد دفعها للضباط لصرفها في استحقاقات العساكر جماعة البلالى والعساكر الذين كانوا معه قبل حدوث الواقعة ، فلم يلبث الحكمدار أن أبلغ القاهرة بتفاصيل هذا الموضوع في برقية بعث بها في ٤ من ربيع الثانى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢١ يونيه سنة ١٨٧٤ م(٤٤) .

وفى الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٤ يوليو سنة ١٨٧٤ م صدر أمر كريم إلى الحكمدار يحمل الموافقة على صرف المبلغ المذكور للزبير(٤٥) . ولا يخفى أن السبب الذى اضطر الحكومة الخديوية للموافقة على طلب الزبير هو خوفها من أن يتراجع عن عزمه في غزو دارفور ، حيثئذ سوف تجد الحكومة نفسها وقدالتى عليها عبء فتح دارفور وحدها وهو أمر لم يكن لتوافق عليها . كما أنها كانت تهدف إلى ما هو أبعد من ذلك وهو

الاستفادة قدر الامكان ولحد أقصى من حماسية وجهود الزبير وجيشه في انهاء هذا الفتح .

وبينما كانت الامور تسير على هذا النحو ، كان الزبير ماضيا في اتخاذ الاستعدادات العسكرية فقد أجرى تشكيل ثلاثة اوردى (٤٦) بانسبوزق وعين عليها كل من طه آغا محمد الملك الشايقى ، ومالى محمد آغا قولنق اغاسى ، ويوسف آغا ارناتوط وذلك بمرتب شهرى الى قرش ومرتب بربر الفين وخمسمائة قرش . وفى السابع عشر من ربيع الثانى صدر امر كريم الى حكمةدارية السبودان بالموافقة على ما اجراه الزبير من تعيينات للأشخاص المذكورين (٤٧) . وقد تطلب تشكيل هذه الاورديات الثلاثة الكثير من النفقات المتمثلة في الاموال والمهمسات وخلافه لهذا ارسل الزبير رسولا بالنيابة منه الى الخرطوم بطلب صرف جانب من هذه المهمات وطلب الاموال اللازمة لدفع مرتبات الجنود لكي يستطيع ان يستمر في استعداداته العسكرية التى بدأها . فرفع الحكةدار طلب الزبير هذا للمعية لاخذ الموافقة عليه وصرف مبلغ الالف كيسة التى طلبها الزبير (٤٨) .

وفى غرة جمادى الاولى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٦ يونية سنة ١٨٧٤ م اتخذ الزبير لنفسه مركزا لتجميع العساكر لجهة تسمى الكلكة (٤٩) . في حين كان الدارغوريون في الجانب الآخر متهيئين للقتال في أية لحظة (٥٠) .

وفى ٣ جمادى الاولى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨ يونيه سنة ١٨٧٤ م ابرق الحكةدار الى خيرى باشا بما يفيد بأنه قد كتب للزبير بضرورة قيامه بتنظيم المديرية وربط الاموال على اهاليها وتقوية مركزه ، والمحافظة على حدود مديريته بحر الغزال حتى

يتم إرسال العساكر والأسلحة اللازمة للدخول في دارفور كما هو
عازم على ذلك (٥١) . وقد جاء رد الحكومة على برقية الحكمدار
في ٥ جمادى الأولى الموافق ٢٠ يونيو من نفس السنة بما يتيد
صعوبة إرسال العساكر والأسلحة المطلوبة على وجه السرعة
في الوقت الحالي لامتبارات بعد المسافة بين مصر والسودان
وأشارت على الحكمدار بأن يحاول نجدة الزبير بتدبير اورطة من
الخرطوم لحين إرسال بدل منها من مصر حتى لا يتوقف سسير
الأمور (٥٢) .

وفي برقية تحمل تاريخ ٦ من جمادى الأولى الموافق ٢١ يونية
أبلغ الحكمدار خيرى باشا عدم اتصال خط التلغراف مع سنجر
بك ورفضه إرسال اورطة من طرفه ، وعزمه أى الحكمدار على
السفر الى كردفان لجمع ما يمكن جمعه من العساكر الشايقية
والجهادية لنجدة الزبير وتذليل الصعاب التى تقف حائلا دون
ذلك (٥٣) . وفي السابع من نفس الشهر الموافق ٢٢ يونيه أبرقت
الحكومة للحكمدار بأرادة سنية تعلمه بموافقتها على ما عرضه من
ضرورة قيامه الى كردفان لجمع العساكر وتوكيل نائب
منه بالخرطوم في مدة غيابيه . وتم تعريفه أيضا بأن الحكومة قد
أرسلت له أربعة بلوكات من العساكر الجهادية من سواكن وذلك
خلاف ما اتفق عليه مسبقا (٥٤) . وأما من جهة الزبير فانه حدثت
بينه وبين الدارفوريين معركة بتاريخ ٤ من جمادى الأولى سنة
١٢٩١ هـ الموافق ١٩ يونيه سنة ١٨٧٤ م هاجمه فيها السلطان
أبونا والى جهات دارفور الصميدية (٥٥) . على رأس جيش قوامه
أثنا عشر ألف رجل ، فتصدى لهم الزبير على رأس قوة قوامها
ألف وستمائة نفر ، فهزمهم وقتل قائدهم السلطان أبونا وأسر
ابنه ، وأبلغ الحكمدار فيما بعد بذلك ، الذى أبرق للقاهرة في
العاشر من نفس الشهر يبلغها بما حدث (٥٦) .

وفي الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٩ يوليو سنة ١٨٧٤ م أرقى الحكمدار للقاهرة وهو في كردفان يبلغها بأن الزبير لما وجد السلطان قد استصحب جميع عساكره توجه أيضاً هو بجميع عساكره ، وأنه صيانة لشرف الحكومة أرسل ما استطاع جمعه من العساكر والأسلحة لنجدة الزبير ، وينوي التوجه على رأس قوة أخرى بنفسه ليدعم موقف الزبير ويأمل أن يكون فتح دارفور ميسراً (٥٧) . وأجابت الجمعية في الخامس من رجب سنة ١٢٩١ الموافق ١٨ أغسطس سنة ١٨٧٤ م بالموافقة على ما اتخذ الحكمدار من تدابير وأجراءات أراء ما بينه سلطان دارفور من نية العدوان ، وتبلغه أمل الحكومة في أن يعجل بأمر الحاق هذه المنطقة بالحكمارية (٥٨) .

وفي غرة رجب من نفس العام الموافق ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ م أبلغ الحكمدار الجمعية بأنه قد قام فعلاً من كردفان على رأس الحملة التي أعدها ، والتي تكونت من أورطة جهادية مسلحة ببنادق حديثة ، وأوردي باشبوزق مكون من أربعمائة نفر خيالة وهجانة ، وثلاثة مدافع وذلك خلاف ما سوف يلحق به من عساكر الشايقية ، وغيرهم بطريق كردفان أم شنقة ومنها إلى الفاشر ، وأن الزبير قد أبلغه بأنه قد ترك مركزه في الكلكلة إلى محل يقال له النمر على مسيرة يوم واحد من بلدة داره (٥٩) .

وفي الحادي عشر من رجب من نفس السنة أبرقت القاهرة للحكمدار لتبليغ شكرها للزبير وللعساكر ولرؤسائهم على ما بذلوه من جهد في حفظ شرف الحكومة ، وانزال الهزيمة بالعساكر الدارفورية بعد مقتل قائدهم السلطان أبونا (٦٠) .

وأرسل خيرى باشا برقية إلى سعادة ناظر الحقانية وإلى سعادة ناظر الخارجية تحمل تاريخ ١٢ رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق

٢٥ أغسطس سنة ١٨٧٤ م أبلغهم فيها بما حدث من جانب سلطان دارفور من تعد على قوات الحكومة الخديوية ، وتصدى تلك القوات لهم وانزال الهزيمة بهم . كذلك استسارت البرقية لهدف حكومة القاهرة من غزو دارفور وهو القضاء على تجارة الرقيق فيها لأنها أى دارفور تمثل مركزا خطيرا لانتشار هذه التجارة . وقد تم إحاطة ناظرى الحقائق والخارجية بهذه المعلومات الرسمية لكي يستطيعا الأدلاء بأية استفسارات أو تصريحات حول موقف حكومة الخديو من غزو دارفور اذا ما طلبت ذلك أى جهة أجنبية(٦١) .

شكوى سلطان دارفور للخديو من حركات الزبير والحكمدار :

قبل أن تتطور الأمور الى أخطر من هذا ، رأى السلطان أن يعرض ما بينه وبين الزبير من نزاع على الخديو فى القاهرة لعله يجد مخرجا أو حلا عنده لذلك . فبعث له برسالة فى الرابع من رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٧ أغسطس سنة ١٨٧٤ م يشرح له فيها تعديت الزبير على حدود مملكته كما ادعى ذلك فى خطابه، وتأييد الحكمدار لهذه التعديت ويذكر الخديو بالعلاقات الطيبة التى كانت قائمة بين سلطنة دارفور ومصر أيام أبيه ، ويطلب منه التدخل للحد من هذه التعديت بصفتة الشخصية ، أو التدخل للوساطة بينه وبين الزبير(٦٢) .

وبالطبع فإن الخديو لم يعط لهذه الرسالة أية أهمية ، لأن جميع تحركات الزبير والحكمدار كانت بتوجيه من الخديو شخصيا ، كما أن سلطان دارفور كان هو البادئ بالعدوان وليس الزبير .

ولم يكن أمام السلطان إبراهيم بعد أن فشل مسعاه لدى الخديو اسماعيل لانقاذه سوى أن يجد لنفسه مخرجا آخر من

يتوجهوا منها الى الحجاز ومن هناك الى الآستانة بقصد التخلص من محاربة الحكومة الخديوية . وبناء على ما ذكر من معلومات تم عرض الموضوع على جناب الخديو للنظر ، واصدار الامر لمراقبة الأشخاص المذكورين أو القبض عليهم عند حضورهم لمدينة أسيوط مع مراعاة مراقبة موانئ الاسكندرية والسويس حتى لا يستطيعوا الهروب من البلاد (٦٤) .

وفي الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق سنة من نوفمبر سنة ١٨٧٤ م أجابت القاهرة بمرادة سفية على برقية الحكمدار بأنه قد تم القبض على الرسل التابعين لسلطان دارفور بجهة واحات اسبوط ، وضبط جميع ما معهم من مكاتبات وغيرها وأنه وجد من بينهم شخص مخصوص يحمل مكتبة للخديو . وقد نوهت البرقية للحكمدار الى ضرورة الاسراع بالاستعداد للاستيلاء على الفاشر سواء بضم قواته مع قوة الزبير ، والدخول في معركة مع الأمير قبل الدخول الى الفاشر ، والقاء القبض عليه وارسال اقاربه الى كردفان ، والعمل على ادخال البلاد المجاورة لدارفور تحت طاعة الحكومة ، والاقامة بالفاشر بعد الاستيلاء عليها مع المقدار الكافي من العساكر على أن يرسل الباقي منهم الى الزبير ، وابلاغه بقدم حسن بك على رأس قوة للاقامة في أم شنقة للمحافظة عليها وأن يجعل الطسرق مفتوحة بينه وبين الفاشر وكردفان ، وبلغ سلام الجناب العالي الى الزبير وكافة الضباط والعساكر (٦٥) .

وفي السادس عشر من شوال سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م ارسلته القاهرة للمرة الثانية برقية لغرض عموم قبلي تعيد عليه ما سبق ذكره من ضرورة حفظ الصرر وبقية الاشياء التي وجدت مع رسل السلطان وارسالها مع مندوب

وأعلامهم متى قتل السلطان ، ودخول بلاده في حيز الحكومة المصرية وتخلييرهم بين الرجوع الى بلادهم أحرارا أو المثل بين يدي الجناب العالي الخديو اذ رغبوا في ذلك وهم أحرار أيضا ، وفي الحالة الاولى يحرر مكاتبه بذلك لحكماء السودان (٦٦) .

وفي ١٥ ذي القعدة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م أجابت القاهرة على برقية الحكماء المؤرخة في ٢١ شوال من نفس السنة بأنه تم احضار الرسل المذكورين للقاهرة واكرامهم وفأينهم على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأنهم مقبوضون بالمسافر خانة ، وأنه قد تنبه عليهم بأن النقود المقتال عنها أنها لسر تجار الفاسر وأخوته لهم الحق في التصرف فيها في أسباب التجارة أو حفظها بدون أي معارضة (٦٧) .

وعلى فرض نجاح سفارة السلطان في الوصول الى الأستانة والاتصال بالباب العالي — وهذا لم يحدث — فإنها من المؤكد كانت سوف تعود كما ذهبت بدون أية نتيجة . وذلك لأن فرمان الصادر في ١٢ فبراير سنة ١٨٤١ م كان قد ذكر سلطنة دارفور ضمن الاتفاقيات السودانية التي صارت تبعيتها لمحمد علي على مدى الحياة ، ولكن سلطنة دارفور ظلت مستقلة حتى تولى الخديو اسماعيل الحكم في مصر . ولم تكن سلطنة دارفور تدين بأية تبعية للسلطان العثماني الى أن تم غزوها بواسطة جيش الزبير بالاشتراك مع جيش الدولة المصرية ، فانهزمت وخضعت لحكومة الخديو ، وانطبقت عليها ممارسة حقوق السيادة التي كان مالها النهائي في حكومة القسطنطينية بحكم تبعية الحكومة ذاتها للسلطنة العثمانية (٦٨) .

وقد ترتب على فشل بعثة السلطان هذه نتائج وعوامل كثيرة جعلت الأمل في عدم قيام حرب بينه من جهة والدولة المصرية

والزبير من جهة اخرى يكاد يكون سرايا . ومن ثم شرع يستعد للموقف ويأخذ حذرہ حتى يتمكن من صد هذا الغزو المتوقع .

موقعة الثورتای احمد نمر :

لم يكد جيش الزبير يصل الى دارة (٦٩) . ويتحصن بقلعتها حتى نشط احمد نمر زعيم البرقد (٧٠) ، فجمع شتات جيش الوزير احمد ثسطه وحاصر الزبير وجيشه في قلعة دارة ، واخذ يشاغلهم كتباً للوقت حتى تصله الامدادات التي كان يبعدها له السلطان ابراهيم بقصد القضاء على الزبير والثار لما نالته قواته من قبل على يديه . ولكن الزبير لم يحرك ساكناً تجاه هذا الحصار بل صبر على احمد نمر هذا حتى علم بمقدم النجسدة التي كان ينظرها ، عندئذ ارسل لهم احد قواده هو رابع بفرقة من الجيش فنشبت بينهما معركة قصصيرة ، لم يلبث ان قتل فيها احمد نمر وانهزمت القوة التي معه ، وغنم الزبير في ذلك الوقت غنائم كثيرة من الخيول والدروع والخوذ والماشية وخلافه (٧١) .

وكان الزبير قد بعث في ٣ رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٦ اغسطس سنة ١٨٧٤ م برسالة الى السلطان ابراهيم يدعوه فيها مرة اخرى للتسليم ومخلص ما جاء فيها :

اولاً : ذكره بما كان من تعدييات عرب الرزيقات عليه وعلى المسلمين من التجار بدون وجه حق وموقفه المؤيد لهم :

ثانياً : أخبره باستيلائه على دارة وأصراره بل تمسكه على عدم الانسحاب منها مهما كانت الظروف والنتائج .

ثالثاً : نصحه بالنزاع عن ملكه والاذعان لاوامر الحكومة الخديوية في مقابل إعطائه الأمان في أمواله وأهله حتى يمكن تلافي وقوع الحرب بينه وبين الدولة المضرية .

رابعاً : ذكره بضرورة الكف عن القيام بالتحركات العسكرية
ضده والجنوح الى السلم (٧٢) .

كان هذا الخطاب هو الاخير الذي وجهه الزبير الى السلطان،
وبعده لم يجب السلطان على هذا الخطاب ، ومن ثم بدأت الامور
تسير الى اسوأ في غير صالح السلطان .

موقعة الأمير حسب الله :

استشاط السلطان ابراهيم فحسباً من مكاتبات الزبير له وطلبه
منه التسليم او الحرب . فلم ير السلطان مغراً من أن يجهز له
جيشاً آخر يستطيع انزال الهزيمة الساحقة به . ومن ثم أسرع
باعداد جيش يقوف عدده على المائة ألف مقاتل من بينهم عدد كبير
من الفرسان المدرعين والاشاة المسلحين بالبنادق . عقد السلطان
لواء هذا الجيش لعمه الأمير حسب الله . سار هذا الجيش العرمرم
قاصداً داره فدخلها في ٢٥ أغسطس سنة ١٨٧٤ م ، وشرع في
احكام الحصار حولها من جهاتها الاربع ، ثم انفذ الأمير حسب الله
رسلاً الى الزبير مع رسالة يقول له فيها : « لقد دخلت بلادنا
وقتلنا وزيرنا احمد شعله ومن بعده احمد نمر لما خرج الآن من
بلادنا ، ونتمهد لك بأن نشيعك بالسلامة والامان . . » وقد اجاب
الزبير اعضاء الوفد بأن يبلغوا الأمير حسب الله بأنه أي الزبير
قد دخل بلادهم بقصد اخضاعها لحكومة جناب الخديو ولا ينوى
الخروج منها الا بقدر من الله ، فان كانوا قد جاموا للحرب فليتقدموا
لها والا فليعلم ان يعودوا من حيث أتوا (٧٣) .

وكان الزبير قد بعث من قبل برسالة الى الأمير حسب الله
بتاريخ ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٧ يونيه سنة
١٨٧٤ م بملخص ما جاء فيها :

أولاً : عرضى على الأمير حسب الله تولى سلطنة دارفور بدلاً من السلطان إبراهيم لما بلغه عنه من الخلق الحسن والدرجاة الكاملة والرأفة والشفقة على أحوال المسلمين .

ثانياً : شرح له تفصيلات معاركه السابقة مع كل من أحمد شطه وأحمد نمر وكيف أنه هزمهم وكنهم بأعز الأمتشة ودينهم مع بقية الوزراء والمقاديم والملوك بما يليق بمكانتهم (٧٤) .

وقد كان السميت التام هو الإجابة على رسالة الزبير فلم يجب الأمير حسب الله عليها تماماً كما فعل السلطان إبراهيم من قبل فى الرسائل التى تلقاها من الزبير .

المعركة الأولى :

بدأت هذه المعركة بعد عودة رسل الأمير حسب الله إلى معسكرهم وإبلاغه بإجابة الزبير على رسالته . ولقد تصادف أن وقعت أبصار الرسل الذين حملوا الرسالة إلى الزبير على بعض جنود النيام نيام الذين يضمهم جيش الزبير ، وقد اجتمعوا على جثة آدمى يقتسمونها فيما بينهم يأخذ بعضهم الرأس والقديين والبعض الآخر اليدين والصدر ، ثم يشرعون فى شىء هذه الأجزاء على النار وعند عودة الرسل المذكورين إلى معسكرهم لم ينسوا أن يرووا لأخوانهم ما شاهدوه من وحشية جنود الزبير وقسوتهم ، ولعل هذا قد ملأهم بالرعب وخوفهم من قتال الزبير . غير أنه على أية حال لم يكن هناك مقر من الحرب وحدوث تصادم بين القوتين ، فلم تلبث قوات الأعداء أن أقاموا معسكرهم على مسافة غير بعيدة من رامى منادى واسلحة جيش الزبير . ثم بدأوا فى مناوشاتهم وكان مع الزبير زهاء ١٢٠٠٠ مقاتل مسلحين بالبنادق الرامتون الألمانية ، فأخذت قوات الزبير تصلى الأعداء نيراناً حامية

كل يوم من قبل الشروق الى ما بعد منتصف الليل ، وصبر جنود دارفور على هذه النيران لمدة سبعة أيام طوال . استطاع الزبير خلال تلك المدة أن يهلك منهم عددا كبيرا الا أن هذا الحصار استمر مع ذلك واستمرت معه المناوشات ، ومضت الأيام طويلة على هذا الحال حتى أوشكت ذخيرة الزبير على الذئاد وفرغت مؤنه ، ومضى على رجاله يومان بلا طعام (٧٥) .

المعركة الثانية :

بينما كان الزبير يكر في الخلاص من هذا الحصار بالهجوم على جيش الأمير حسب الله وفد عليه واحد من قادة جيش دارفور اسمه الملك أحمد ليفتدي ابنته التي كان الزبير قد أسرها في موقعة أحمد شطه عارضا عليه في مقابل ذلك . ١. أوقيات من الذهب وكان الزبير قد وضع أسراه في قبة جامع داره ، ومن فوق هذه المئذنة كان يستطلع ما يدور في معسكر الأمير حسب الله ، فإذا به يرى حركة وجلبة غير عادية ، فأسرع بالهبوط ودعا الملك أحمد وعرض عليه أن يذهب بياتيه بأنباء ما يحدث في معسكرهم في مقابل أن يسلم له ابنته دون مقابل من الذهب ، وأقسم له على القرآن بذلك فقبل أن يذهب وياتيه بحقيقة الأنباء ، فلما بلغ معسكرهم أخبر قومه بأن الزبير يطلب منه ٢. أوقية من الذهب فداء لابنته ، ولما لم يكن معه سوى ١. أوقيات فقط ، فقد صاد ليأخذ العشر الباقية وعندئذ أعطوه ماله واستحثوه على المبادرة بإحضار ابنته سريعا لأنهم ينوون الهجوم على الأسوار من جميع الجهات في اليوم التالي ، فعاد الملك أحمد ومعه الذهب والأخبار . وكان هذا في مساء يوم الخميس ٣١ من أغسطس سنة ١٨٧٤ م وهو اليوم الذي بدأت فيه هذه المعركة . كان الفورأويون في تلك الليلة قد شربوا الخمر واكلوا كثيرا وتناموا مبكرين استعدادا

للهجوم في اليوم التالي . انتهز الزبير هذه الفرصة الثمينة وعول على مفاجاتهم وهم نيام ، فخرج اليهم في ثمانية آلاف رجل على هيئة مربع ، وصار في جنح الليل حتى لم يعد يفصله عن معسكرهم سوى ألف متر تقريبا ، عندئذ أمر رجاله بإطلاق نيران أسلحتهم على الأعداء ، فصبوا عليهم وابلا من الرصاص المنهر ، عندئذ هب هؤلاء من نومهم مذعورين وقد أخذتهم المفاجأة وبدأوا في إطلاق رصاصهم على جنود الزبير ولكن بعد فوات الأوان ، فقد كان معسكرهم قد تحول إلى ما يشبه جمره من النار . وفي أثناء هذه المعركة أصابت الزبير طلقة طائشة في يده اليمنى فجرح جرحا بليغا ، ولكنه لم يعأ به بل مضى بين رجاله يصدر لهم الأوامر ويشدد من عزائمهم . فلما أصبح الصباح كان معسكر الأعداء قد تمزق شرمزق . وكان رجال جيش الأمير قد ولوا الأدبار مخلفين وراءهم الأرض وقد غطتها جثث قتلاهم ومن بينهم أربعون رجلا من أبناء السلطان ، فشرع الزبير بعد ذلك في جمع الغنائم هو ورجاله فكان من بينها نحو ألف درع و ٢٧٠٠ خيمة وثمانية مدافع قديمة نقش على بعضها اسم سعيد باشا إلى جانب الكثير من الأسلحة والفخائر الحربية والمؤن التي تكمي المدينة لمدة أربعة شهور . عندما فرغ الزبير من الاستيلاء على كل هذا عاد بجيشه إلى المدينة وتحصن بقلعتها من جديد وهكذا انتهت المعركة الثانية بهزيمة منكرة لجيش الأمير حسب الله الذي عاود الهجوم للمرة الثالثة على أسوار قلعة داره من جديد (٧٦) .

المعركة الثالثة :

وقد بدأت هذه المعركة في الثامن من سبتمبر سنة ١٨٧٤ م عندما تمكن الأمير حسب الله من جمع ثقات جيشه المنهزم ومعاودة الهجوم على أسوار المدينة من جديد ، ودار قتال

عنيف بين جيشه وجيش الزبير استمر لمدة أربع ساعات متوالية حتى كثر القتلى في جيشه وهاقت به الهزيمة الكاملة . وقد قام الزبير على رأس جيشه بتتبع ومطاردة الفارين لمسافة طويلة عاد بعدها للتحصن بالقلعة من جديد استعدادا لأي هجوم آخر من جهة دارفور (٧٧) .

وطبقا لما ورد بالوثائق فقد بلغت خسائر جيش الأمير حسب الله في هذه الممارة الثلاث حوالي ستة آلاف رجل وذلك بخلاف الجرحى . بينما بلغت خسائر جيش الزبير من عساكره وعساكر الحكومة حوالي أربعمئة رجل . وقد أبلغ الزبير تفصيلات ما حدث في هذه الموقعة بمعاركها الثلاث إلى اسماعيل باشا أيوب الذي كان وقتذاك على رأس حملة الشسرق التي كانت قد وصلت في تقديمها لأم شنقة في رسلتين وصلت أحداها للحكمدار في الثامن عشر من شعبان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م . وقد قام الحكمدار بإبلاغ القاهرة بتفصيلات ما حدث في هذه الموقعة في برقية بعث بها في ٧ رمضان ١٢٩١ هـ الموافق ١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٤ م ، وكان قبل ذلك قد أبلغ القاهرة بأن الزبير محاصر بقلعته في دارا بواسطة جيش الأمير حسب الله الذي حضر إليه بداره بتاريخ ١١ رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ م وغير متيسر الاتصال به (٧٨) .

ونظرة على هذه الموقعة ترينا أنها واحدة من الوقائع الرئيسية التي شملت عملية فتح دارفور التي كانت لها أثرها البالغ في كسر شوكة جيوش سلطان دارفور والتعجيل باتهام عملية الفتح .

عوامل انتصار جيش الزبير وهزيمة جيش الأمير حسب الله :

من خلال الأسطر التي تناولت تفاصيل المعارك الثلاث التي دارت رحاها بين الجيشين نستطيع أن نستشف عوامل انتصار جيش الزبير وعوامل هزيمة جيش الأمير حسب الله وتتلخص في الآتي :

أولاً : برغم ضخامة جيش الأمير حسب الله في العدد الذي وصل حسب ما ورد في المراجع إلى مائة ألف مقاتل أو ما يزيد، واحتوائه على عدد كبير من الفرسان المدرعين والمشاة المسلحين بالبنادق ، وقلة عدد جيش الزبير الذي بلغ اثني عشر ألف مقاتل بالنسبة لجيش الأمير . فإن الأمير حسب الله لم يستغل تلك الميزة التي توافرت في جيشه في العدد والتسليح في وضع خطة محكمة ترمي إلى فرض حصار محكم حول قلعة داره التي كان يعيش الزبير ويتحصن بها ، ويرسل له من يداؤه ويستنفذ ذخيرته ورجاله ومؤنه ، فيضطره منذئذ للخروج إليه من قلعته . ومن ثم يمكنه الحاق الهزيمة به في سهولة ويسر ، ولكن الأمير لم يفعل ذلك بل أن حصاره حول القلعة لم يطل أمده بعدها تحرك لاقامة معسكر لجيشه في مكان ليس بعيد من أسوار القلعة ولا مرمى أسلحة جيش الزبير وهذا يدل على عدم ألم الأمير حسب الله بأبسط القواعد العسكرية إذ أنه كان هدفا سهلا أمام رجال الزبير هو وجيشه .

ثانياً : كان لاقامة جيش الأمير لمعسكره في مكان ليس بعيد عن مرمى أسلحة رجال الزبير فرصة مكنت رجال الزبير من أن يمحطروهم بين الحين والحين بوابل من رصاص بنادقهم ، هذا إلى جانب الدوريات المسلحة التي كانت تخرج ليلاً من القلعة لتتصيد

من تجده من رجال الأمير حسب الله لتقلته أو لتحميله أسيرا ، كل هذا أدى الى قتل عدد ليس بالقليل من رجال جيش الأمير وبالتالي ساهم في خفض الروح المعنوية القتالية لرجاله .

ثالثا : كان لعامل المفاجأة اثره الكبير في هزيمة جيش الأمير في المعركة الثانية اذ كان للهجوم الذي شنّه عليهم رجال الزبير بغتة ليلا وهم نيام ومصرع الكثير منهم اثره في تشتيت جيشه ، وقد ساعد على نجاح الزبير في هذا الهجوم ما قام به رجسائل جيش الأمير قبل ليلة الهجوم من تناول الكثير من ألوان الطعام واحتساء العديد من انواع الخمر التي لعبت برؤوسهم فباتوا ليلتهم لا يعون شيئا .

رابعا : كان لعامل الخيانة في المعركة الثانية الفضل الأول في الهزيمة التي منى بها جيش دارغور في هذه الموقعة . اذ لم يكن الملك أحمد الذي حضر لمعسكر الزبير ليفتدي ابنته الا واحداً من ضسعاء النفوس الخائنين لوطنهم ، فقد فعل ما أملاه عليه الزبير حرصا على حياة ابنته . مفضلا خيانة وطنه وجيشه في سبيل هدف شخصي . ومن المرجح ان جيش الأمير حسب الله كان يضم الكثير من أمثال هذا الرجل . ومن ناحية أخرى كانت لثمة تنم عن بعد النظر من جانب الزبير الذي استطاع في الوقت المناسب أن يستغل هذه الثغرة في سبيل الحصول على ما يريد من معلومات عن جيش الأمير حسب الله اتقاذا لنفسه ومن معه من الهزيمة .

خامسا : كان للهزيمة التي لحقت بجيش الأمير عقب المعركة الثانية وتشتت جيشه ، وتركه لمعظم ما كان لديه من الامدادات من أسلحة وفخائر ومؤن وخلافه وتقيام الزبير بالاستيلاء عليها اثره الفعال في استعادة جيش الزبير لقوته بعدما قاربت مؤنه ونخبرته على الفقاد .

سادسا : اذا نظرنا الى نوعية الفئات التى كان يتكون منها جيش الأمير لوجدنا أنهم لم يخرجوا عن كونهم مجموعة مختلفة تنتمى الى قبائل متعددة لا تربطها أية رابطة ولا هدف سوى الحرب من أجل كسب الغنائم والأموال . لذلك وجدنا منهم الخائن وكان الملك أحمد خير مثل على ذلك . يضاف الى ذلك أن الروح القتالية المطلوبة فى جيش ضخم كهذا لم تكن متوافرة بالقدر الذى توافرت به فى جيش الزبير . إذ كان لحسن قيادة الزبير لهم وتوجيهه لهم التوجيه السليم ، وسخائه عليهم ، وتشجيعه لهم من العوامل التى ساعدت الزبير على الصمود بجيشه هذا أمام سلسلة الجيوش التى بعث بها سلطان دارفور الواحد تلو الآخر رغم قلة مؤنه وذخيرته .

سابعا : كان للعقلية العسكرية الواعية التى توافرت لدى الزبير الأثر الحسن فى تقوينه وتقديره للموقف واستغلال الإمكانيات المتاحة له على قلتها فى احراز نصر باهر على جيش الأمير فقد ضمن هو ورجاله حماية طبيعية داخل أسوار قلعة داره فسيسد هجمات جيوش دارفور المتتابعة كما أن قلعة داره كانت تشرف بحكم تصميمها على أرض المعركة ، فكان من السهل استطلاع ما يدور داخل معسكر الأعداء بسهولة من داخلها كما حدث فى معركة الثانية مع الأمير حسب الله واستطاع أن يرى من فوق منقذة جامع داره الهرج والجلبة التى كانت تسود معسكرهم .

ثامنا : كان للصلابة وقوة الشكينة وعامل الصبر وغير ذلك من الصفات التى أظهرها رجال الزبير أمام هجمات جيش الأمير الأثر الواضح فى احرازهم النصر تلو الآخر . يضاف الى ذلك ما أشيع عنهم من أنهم من أكلة لحوم البشر ، فقد ساعد ذلك على بث الرعب والخوف فى قلوب رجال الأمير حتى قبل مواجهتهم فى ميدان الحرب .

قياسام السلطان إبراهيم بنفسه الى دارا :

وقع نبا هزيمة جيش الأمير حسب الله على يد الزبير -
وقوع الصاعقة على السلطان إبراهيم حسست له الزبير في
مخيلته على انه الشخصية الأسطورية التي لا تقهر ، فرأى
في هذه المرة أن يقوم بنفسه للوقوف على مدى قوة هذا الرجل ،
وتأديبه بعد أن لقيت جيوشه المتابعة الهزيمة المرة تلو الأخرى
على يده ، ومن ثم أخذ يستنذر قومه للحرب ويحضهم على
الذود من حياض وطنهم وبلادهم حتى استطاع أن يجمع في
وقت قصير جيشا جرارا بلغ تعداده نحو المائة والخمسين
الفا من بينهم ثلاثون ألف فارس ، كما اصطحب معه ثمانية مدافع .
وقد مزم على الخروج بنفسه لقتال الزبير « الطاغية الجلابي »
كما نعته من قبل . ولكن لم يصبح هناك مجال للسخرة من
الزبير ، فهو اليوم سيف الخديو المسلول الذي شمره
ليقوض به دعائم هذه السلطنة التي أخذت جوانبها تتهاوى
كأوراق الشجر في مطلع الخريف . وكان جيش السلطان
لكثافته يثير حوله إذ ما تحرك سحابة كثيفة من الغبار تمنع
الرجل من أن يرى رفيقه وهو على مبعدة خمس خطوات منه ،
ولم ينس السلطان أن يخلف على الفائر قبل رحيله ابنه الأكبر
محمد الفضل . ثم سار السلطان إبراهيم قاصدا داره
فبلغها في ضحى السادس عشر من أكتوبر سنة ١٨٧٤ م .
محاصرها من جميع الجهات وهضى يستعد لمهاجمة قلعتها في
اليوم التالي . وفي الصباح بدأ الهجوم فألقى السلطان
بقواته كلها في المعركة قاصدا اقتحام المدينة في هجمة واحدة .
ولكن رجال الزبير ردوه على أعقابهم بعد أن أمطروا قواته بوابل
من الرصاص المنهم . واستمرت هذه المعركة الى ما بعد
الغروب بساعة . وفي اليوم التالي حاول السلطان الهجوم

على الاسوار مرة اخرى قبل طلوع الشمس ، ولكن هذا الهجوم أصعبه الفشل كما سبقه بعد عدة ساعات من بدايته . كل هذا لم يوهن شيئا من عزيمته السلطان ، فعاد هجومه للمرة الثالثة بعد صلاة الظهر في عزم واستقبال هذه المرة ، وكانت قواته قد استراحت قليلا ، واستترت بعض نشاطها فثبتت لرميها أسلحة رجال الزبير وهو يحصدها حصصا ، وغطت جثث القتلى وجه الأرض الى أن أتى الليل فوضسع جدا لهذه المجزرة الدامية ، وبدأ السلطان وقواته يرتدون مختلفين تحت اسوار المدينة عندا كبيرا من قتلهم ، وكان من بينهم بعض أبناء السلطان وأخوته وأعمامه .

وفي مساء نفس اليوم أرسل السلطان ابراهيم كتابا للزبير ملوفا بالثقت والسبب والتهديد والوعيد له ، وختمه بقسم غليظ بأنه سوف يعاود الهجوم على القلعة في الصباح ، وسوف يقتحم تحصيناته عنوة ، ويؤدي صلاة الجمعة في مسجد داره . وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي بدأ في تنفيذ قسمه بأن أطلق على اسوار قلعة داره أكثر من خمسة وأربعين قذيفة من مدافعه فلم يجبه عليها رجال الزبير ، بل شرع الزبير ورجاله في الاستعداد لهجوم الذي كان يتهدهم من جانب السلطان .

وعندما بدأ الفجر يرسل خطوطه الأولى أخذ الزبير يتطلع نحو معسكر السلطان فادهشه أن يراه خاليا تماما من جيوش السلطان . وشبهك أن في الأمر خدعة فخرج في نفر من رجاله ليستطلع الأمر ، فوجد أن السلطان وجيشه قد انسحب في جنح الظلام ، وأن الخمسة والأربعين قذيفة التي تلقاها منذ ساعات لم تكن أكثر من وسيلة لستر وتغطية عملية الانسحاب حتى لا يظن اليه فيخرج لمطارقته وتشتيت جيشه . وقد علم الزبير فيها بعد أن مسبب انسحاب السلطان هو أن

رجالہ بعدما نزل بهم من خسائر فادحة قد ابوا ان يعودوا لمهاجمة الاسسوار مرة أخرى ، فهجروا السلطان . عندئذ لم يجد السلطان بدا من ان يتبعهم ليجمع شملهم وليسير بهم لجبل مرة (٧٩) . للاحتواء به . وجمع الزبير ما خلفه السلطان في معسكره وشرع في الاستعداد للحاق بجيش السلطان ومهاجمته حيث يكون (٨٠) .

في هذه الاثناء وصل الى علم السلطان نبأ سقوط ام شنقة التي تقع على مسيرة ستة ايام من عاصمته الناشسر في يد اسماعيل باشا ايوب ، فاصبح السلطان بذلك محاصرا فجأة فقرر هو الآخر بعد ان جمع قوائمه في جبل مرة ان يتجهز بسرعة نحو الفاشر . على ان هذا التجهز الذي قام به السلطان جعل الطريق امام الزبير مفتوحا لان يتقدم بجيشه بسرعة نحو عاصمة دارفور (٨١) .

في هذا الوقت ادرك السلطان ابراهيم بعد الهزيمة التي نزلت به وبجيشه على يد الزبير في المحاولات الثلاث التي قام بها لانتحام قلعة داره المنيعه ، وانسحابه دون ان يظفر باية نتيجة تغير من الموقف شيئا ، ان الآمال التي عقدها عند خروجه بهذا الجيش لكسر شوكة الزبير وطرده من سلطنة دارفور قد باتت أشبه بالسراب ، وقد حل بجيشه نتيجة هذه الهزائم المتوالية اليأس والخوف محل الحماسة والقوة التي خرج بها للقاء عدوه الزبير . ولكن رغم ذلك ظل تعلق السلطان ابراهيم بالنصر على عدوه الذي لا يعرف المستحيل متجسدا امامه حتى النهاية .

دور حملة الشرق بقيادة الحكمدار :

تحرك اسماعيل باشا ايوب الى دارفور على رأس الحملة التي وكل اليه امر قيادتها لغزو هذه السلطنة من جهة الشرق ،

والتي تكونت من أورطة جهادية بمسـلحة بالبندق ، وأوردى
باشبوزق مكون من أربعـمئة نفر خيالة وهجـانة ، وثلاثة مدافع ،
ومائتين من العساكر الباشوزق الشايقية . قام من الأبيض بهذا
الجيش رأسا إلى دارفور عبر صحراء العتـمور حيث مر في طريقه
على منطقة المياه القليلة حيث تخزن المياه في فروع الأشجار
التبدلي المحفورة الوسط . ولو كان السلطان إبراهيم قد
تنبه لـقـدوم هذا الجيش ، وأرسل من أخفى تلك الأشجار مما بها
من المياه لاضطرت الحملة إلى الرجوع أو أدى ذلك إلى موت
الكثيرين منهم عطشا (٨٢) .

وقد رافق حملة الشـسـرق التي قادها اسماعيل باشا أيوب
بعض من الضباط الأمريكيين لأغراض تتعلق بمصالح الحملة
وسلامتها (٨٣) . ولا يعرف على وجه التحديد كم عددهم أو أسلـؤهم
والراجع أنهم من الأجانب الذين وفدوا لأغراض السياحة أو
التجارة في تلك الأصقاع البعيدة ثم تعينوا مع الحملة لإنجاز بعض
المهام الخاصة .

ولم يأت الرابع والعشرون من رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق
سنة سبتمبر سنة ١٨٧٤ م حتى أبرق الحـكـمدار للحكومة الخديوية
في القاهرة بأنه قد وصل في تقدمه إلى محل يقال له دارفور
العمار بعد صحراء العتـمور ما بين كردفان ودارفور ، وأنه ليس
بينه وبين الوـسـسول لأم شنقة (٨٤) سوى يومين فقط ، بينما
المسافة بينه وبين عاصمة السلطان سنة أيام مشى الهجـانة ، وأن
الزبير قد وصل إلى دارا وتحكم فيها وأن الجيش الذي أرسله
السلطان حوله بمسافة يوم واحد ، كما أنه أشـسار إلى طلبه
للحكمدارية بإرسال أورطة ونصف بيادة من أجل عدم إخلاء المحلات
التي تم الاستيلاء عليها من العساكر خوفا من محاولة استعادتها
والسيطرة عليها من جانب العدو (٨٥) .

الاستيلاء على أم شنقة :

وصل الى علم السلطان ابراهيم نبأ وصول حملة الشسرقي بقيادة الحكمدار لحدود دارفور ، فأرسل من فورهِ اثنين من فادته الذين كانوا يحاربون ضد الزبير على رأس جيش قوامه ما بين الخمسة والستة آلاف رجل مع الشيخ أحمد المليج شيخ مريان حمر (٨٦١) للتصدي لهذه الحملة ، وقبل أن يلتقى هذا الجيش بالحملة صادفهم جماعة قليلة العدد من العساكر الخديوية التابعة للحملة ، والذين كان قد أرسلهم الحكمدار لجلب بعض الغلال اللازمة لتأمينات العساكر من العربان الذين دخلوا تحت طاعة الحكومة الخديوية ، فاشتبكوا معهم في معركة دامت أربع ساعات سقط خلالها حسب ما ورد في الوثائق ثمانية وعشرون قتيلًا من جيش الفور عدا المجروحين والمفقودين .

وعندما بلغت أنباء هذا الاشتباك اسماعيل باشا أيوب الذي كان في هذا الوقت قد وصل الى نوبة ، ويحاول الوصول الى أم شنقة أسرع بين معه من العساكر واستطاع اللحاق بهذا الجيش الفوراوي والاشتباك معه بالمدافع فلم يستطع هذا الجيش الثبات أمام رجال الحكمدار ، ومن ثم ولى رجاله جميعاً الأدبار ، فأخذ الحكمدار يطاردهم حتى استطاع انزال الهزيمة بهم وأن يدخل أم شنقة . وقد أمن الحكمدار جميع الأهالي في هذه البلدة على حياتهم بعد أن نزل معظمهم طوعاً تحت طاعة الحكومة . وقد أخبر كل من الحكمدار ووكيل الحكمدارية بالخرطوم هذه الأنباء الى القاهرة في ٢٢ و ٢٦ شعبان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٤ و ١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٤ م (٨٧) .

وفي السابع من رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٧ أكتوبر سنة ١٨٧٤ م أحاط الحكمدار القاهرة علماً وهو بأم شنقة بأن

الزبير وجيشه قد عادوا الى القلعة سالمين بعد انتصارهم على جيش الأمير حسب الله . وأن جواسيس الحكمدار قد نقلوا اليه انباء قيام السلطان ابراهيم بنفسه الى دارا على رأس جيش كبير بعد أن أميته الهزائم التي حلت بجيوشه التي أرسلها تباعا ضد الزبير . أشار الحكمدار أيضا في برقيته أن في أمكانه دخول العاصمة الفاشر بسهولة وذلك نظرا لقلة العساكر التي تركها السلطان بها ، ولكنه عاد فقرر بعد أن تراسل مع الزبير رحمة بأنه قد قام منذ يومين على رأس قوة قوامها ثلاثة آلاف رجل من الجهادية والباشبوزق وخمسة مدافع وهو ما أمكنه جمعه أثناء إقامته بام شنقة وذلك للانضمام الى قوة الزبير البالغ عددها سبعة آلاف رجل وخمسة مدافع ، والتي هي على مسافة ستة أيام بمشي العساكر للقضاء على قوة دارغور الأخيرة التي تحت قيادة السلطان ابراهيم والدخول مما بعد ذلك الى الفاشر عاصمة دارغور وقد طمان القاهرة على سلامة وسائل الاتصال بينه وبين كل من كردمان والزبير (٨٨) .

أبلغ الحكمدار القاهرة في برقية تحمل تاريخ الثامن من رمضان الموافق ٢١ أكتوبر سنة ١٨٧٤م بأنه نظرا لأهمية مركز أم شنقة ومخافة عصيان الأهالي المحيطين بالمركز وقيامهم بالثورة ولضرورة استحضار الغلال اللازمة للشسونة التي رتبها بها من الأهالي . فقد ترك بهذا المركز مرسوار شايقية بأربعمئة نفر وبمفع واحد للفرض السالف الذكر (٨٩) .

كما أبلغ القاهرة في برقية لاحقة بأنه قد بلغ بلدة تسمى القونين وأن أهالي تلك البلدة كانوا يحضرون أمواجا للدخول في طاعة الحكومة وذلك نظرا لما شاهدوه من قوة عساكر وأسلحة الحكومة الخديوية . كما أشار الى أن جيش الزبير ، الذي يبعد عنه بمسافة ثلاثة أيام فقط ، في حالة طيبة . برغم أن قوات

السلطان ما تزال على مسافة يوم واحد منه ، ونوه بعزمه على التوجه للزبير والاجتماع معه لدخول العاصمة الفاشر (٩٠) .

اتهام اسماعيل باشا أيوب بتمديد الإبطاء في التقدم نحو الفاشر :

اتهم اسماعيل باشا أيوب بتمديد الإبطاء في سسيره نحو الفاشر لتجنب القتال ضد جيوش دارفور ، وأنه عندما وصل الى عوجه كتب الى الزبير وهو اذ ذاك في دارا بصدد هجمات الأمير حسب الله والسلطان ابراهيم ، يخبره أنه في طريقه اليه بالنجدة طالباً منه أن يتشدد ويقاوم حتى يصل . حينئذ بعث اليه الزبير بسأله عن سر هذا الإبطاء في التقدم والعدو يحدق به بجيوش لا حصر لها ، وأنه مادام يحمل له النجدة فعليه بالاسراع في السير حتى لا يصل بعد قوات الاوان نرد عليه اسماعيل باشا أيوب قائلاً : « أننى لم آمرك بالتقدم الى دارا ولم يكن هذا من بين ما كلمتك به حكومة الخديو السنية ، ماذا استطعت أن ترفع الحصار وأن تنجو بجيشك الى هنا فافعل والا فهدر أمرك بما تراه صواباً » . وقد بقى اسماعيل باشا أيوب في عوجه على ما ذكر الزبير (٩١) .

ومناقشة ما اتهم به الحكمدار يتضح لنا ما يأتي :

أولاً : بالنسبة لاتهام الحكمدار بتمديد الإبطاء في التقدم لنجدة الزبير ، فقد طلل بعض الكتاب ذلك بأن اسماعيل باشا أيوب قد حاول في تقدمه نحو الفاشر أن يكسب الى جانبه صداقة سكان وزعماء هذه الاقاليم بالطرق السلمية ، لذلك فقد هام بتحريض ما لا يقل عن ١٦٠٠ من الرقيق ، كما زود ما لا يقل عن سبعمائة بوشائق تحريرهم من الرق (٩٢) .

ويستدل على صسندق ما ذكر من البرقية التى بعث بها اسماعيل باشا ايوب الى المعية بتاريخ ٧ رمضان سنة ١٢٩١ هـ يعلمها بأن جواسيسه قد نقلوا اليه انباء وجود عدد من تجار الرقيق ومعهم اعداد كبيرة من رقيقهم بجهة تسمى كامية ، وأنه لما بلغ هؤلاء التجار قدوم العساكر الخديوية اختلفوا بتلك الجهة ، إلا أنه تمكن من ضبط نحو ألف وستمائة من نساء واطفال ، وأن أغلبهم من اهالى دارفور وبلاد بحر الغزال ، وقد اعترف التجار بأنهم كانوا متوجهين بهم لبيعهم ، وأن سلطان دارفور نفسه له حصة فى المكسب الذى ينتج بعد بيعهم . وقد صار اخلاء سبيل القساير منهم على المشى ونزويده بأوراق تثبت عتقه وتحريره ، وصرف جانب من التعيينات لهم ليستطيعوا أن يتوجهوا الى بلادهم ، وقد قام الحكمدار بتعيين عدد من الأطباء لعلاجهم ، والسير على راحتهم وكل من شفى منهم يخلى سبيله (٩٣) .

والحق أن الحكمدار لم يتجهل فى المسير الى الفاشر ، ورغم اتهامه بأنه قد بقربلدة فوجه مدة بينما كان الزبير يحارب فى دارا ، فان من الخطأ الاعتقاد بأن اسماعيل باشا ايوب لم تكن لديه الرغبة الكافية فى فتح سلطنة دارفور .

ثانياً : عندما كان الزبير يحارب فى دارا فى سبتمبر سنة ١٨٧٤ م لم يكن اسماعيل باشا ايوب فى بلدة فوجة كما ذكر ، بل كان يحاول الوصول الى بلدة أم شنقة والتخفيف عن الزبير . وكانت خطته تعتمد على أن ينضم بقواته الى الزبير ، وعندئذ يمكن لكلا الجيشان التقدم نحو الفاشر . وقد كان لاحتلال اسماعيل باشا ايوب لبلدة أم شنقة ، فى اواخر معركة الزبير مع السلطان ابراهيم بدارا فى اكتوبر سنة ١٨٧٤ م اثره البالغ فى تخفيف عبء الهجوم على الزبير فى الجنوب رغم كثافته . وكانت قوات الحكمدار

قد سبق لها الدخول في معركة مع جيش قوراوى آخر أرسله السلطان وانتهى أمره بالهزيمة .

وفي ذلك للحين سرت الاسامات بأن الفرقة الاولى بقيادة الزبير قد اندحرت وأن قائدها قد قتل ، وهذا ما جعل اسماعيل باشا ايوب يبتى بأم شنقه ويحصنها ويتريث حتى تصله الأخبار الأكيدة عن مصير الزبير وفرقته . وقد تحقق لدى اسماعيل باشا ايوب كذب هذه الاشساعة حينما اتصل به الزبير مخبرا اياه بمقتل السلطان ابراهيم وتقدمه نحو الفاشر (٩٤) . وقد استطاع الحكمدار بفتح أم شنقة أن يكتب نصرا مهما ينطوى على شيء من الذكاء والخديعة ، بعدها أصبحت وسائل الاتصال بينه وبين الزبير سهلة ميسورة .

قائلا : يريدوا أن الحكمدار عندما انقطعت عنه أخبار الزبير اتجه بجيشه الى دارفور لاستجلاء الحالة هناك ، والتلبل على ذلك أنه عندما أراد الزبير أن يتصل به لاعلامه بدخوله الفاشر على لسان الرسول الذي بعث به اليه ، لقيه هذا الرسول وهو في طريقه الى دارا فلما ابلغه بهذه الأخبار انشأ اذ ذاك عنها ووجه الجيش الذى تحت قيادته الى الفاشر مدخلها في ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م (٩٥) .

هوقعة منواشى : (١٤ رمضان سنة ١٢٩١١ هـ - أكتوبر سنة ١٨٧٤ م) :

وفي الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٤ م بدأت حملة الزبير لاحتلال دارفور تقرب من نهايتها ، ففي هذا اليوم خرج من قلعة دارا على رأس جيش قوامه سسبعة آلاف رجل ، بعد أن تحطمت على أسوارها أمواج المهاجمين الذين ساقهم السلطان ابراهيم لطرده منها ، وقد خرج جيش الزبير ليقتضى اثر جيش

السلطان ابراهيم وليكتب في سجل معاركه معه معركة اخرى .
وفي يوم ١٢ رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٤ أكتوبر سنة
١٨٧٤ م أدركه عند بلدة منواشي (٩٦) ، ومع السلطان من الجنود
حوالي ثلاثين ألفا ، وفي معسكره ثمانية مدافع ، وقد قسم جنده
الى مينة وميسرة وقلب ، وأقام هو ومدافعه ومن بقي من أبطال
جيشه وأقاربه في موضع القلب من كل هذا ، واستعد للمعركة
الناصلة .

وقد أشرقت شمس يوم الخامس والعشرين من أكتوبر سنة
١٨٧٤ م لتشهد السلطان ابراهيم وهو يبدأ هجومه على جيش
الزبير باطلاق إحدى عشرة قذيفة من مدافعه على مواقع جيش
الزبير لم يعبا لها ، ومضى الزبير على رأس جيشه قاصدا موقع
القلب من قوات السلطان ، فلم يلبث أن تخلى السلطان عن مدافعه
وأمر ميمته وميسرته بالهجوم على جيش الزبير . وبدأت المعركة
وحى وطيس القتال . ولم يكدهمضى وقت قليل على بدء المعركة
حتى تخاذلت مينة وميسرة قوات السلطان ومضت متقهقرة الى
الوراء ، متدثذ هاجم السلطان ومن معه في القلب من أبطال
جيشه وصسفانيده قوات الزبير ، فتراجعت مقدمة قوات الزبير
الى الوراء قليلا لتعيد تنظيم صفوفها . ولم تلبث أن عاودت الهجوم
على جيش السلطان ، فأشدد القتال مرة أخرى ، واستخدمت
السيوف والحراب بحال المنادق والمدافع . وقد اعترف الزبير نفسه
بشجاعة السلطان واستبسال جيشه في القتال ، فقد شاهد
الزبير من مكانه الذي يشرف على أرض المعركة السلطان
وهو يجول ويصول وسط المعركة ، وهو يقاتل في عزم واستبسال
ويعمل جاهدا لكي يغسل عن مزته ما أصابها من ذل وهوان ،
حتى خر قتिला هو ومن معه من الفرسان ومنهم الكثير من أولاده
وأشراف دولته فكان هذا ايذانا بانتهاء المعركة التي انجلت من

نصر مبین لجیش الزبیر ، لم یتردد الزبیر فی الاحتفاء بجثته ، فکفنها بالاقمشة الفاخرة ودفنها فی جامع منواشی فی احتفال عظیم أجلا لأقامه کسلطان وأقرارا بمسلکه کفارس ، ثم دفن بعد ذلك القتلى من أولاد واکابر دولة السلطان ، وعفا عن جمیع الأسرى وسمح لهم بالذهاب إلى حیث یشاءون ، وقد غنم الزبیر فی هذه المعركة ثمانية مدافع وسبعة وعشرين جملا محملا بالذخيرة والعتاد الحربی . وقد بقى الزبیر وجیشه فی منواشی مدة أربعة أيام أخرى أنطلق بعدها لدخول العاصمة الفاشر (٩٧) .

وبینما الزبیر یتروک دارا فی الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٤ م لتعقب السلطان کان الحکمدار یتقدم علی رأس حیثی قوامه ثلاثة آلاف رجل لکی یلحق بقوات الزبیر ، وقد وصلت الأخبار الیه وهو یقترب من دارا بأن الزبیر مشتبک فی معركة مع جیش الفور الرئیسى عند بلدة منواشی ، وأن السلطان قد قتل . حیثئذ أنطلق الحکمدار بجیشه خلف الزبیر للحاق به (٩٧) .

أبرق الحکمدار فی ٢٢ رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢ نوفمبر ١٨٧٤ م إلى القاهرة یعلمها بتفاصيل هذه المعركة ومقتل السلطان ، ویبلغها أنه ویرقته بالقرب من دارا وأنه متوجه بقواته إلى الفاشر ، ویهنئ الاعتاب الخدیویة علی هذا النصر العظیم ، وقد أبلغها ایضا بما أسسستولى علیه الزبیر من أسلحة وذخائر وخلافه (٩٩) .

کان لهزيمة سلطان دارفور ومقتله اثره فی أن یخلو الطريق أمام الزبیر لدخول العاصمة الفاشر ، ولیبرهن مرة أخرى أمام التاريخ فتحه لدارفور بنفسه قبل أن تصل الیه حملة الشرق التي تأخرت فی الوصول الیه . وقد اثبتت هذه المعركة بیا لا یدع مجالا للشک مدى فاعلیة الدور الذی لیسهم به الزبیر وجیشه فی فتح

دارفور ، وقضائه على جيوشها وقتل سلطانها ، بعد أن تحصل جيشه العبد الأكبر في القتال ضد جيوش السلطان الكثيفة المتوالية ، منذ بدأت الحرب وبدون مساعدة فعالة من جانب الحملة التي يقودها الحكمدار . وكانت المعركة من الناحية التاريخية هي الخاتمة لسلسلة المعارك الدامية التي وقعت بين جيوش السلطان والزبير . كما أنها أعلنت في وضوح نهاية هذه السلطنة بعد مقتل آخر سلاطينها إبراهيم على يد الزبير رحمة .

دخول العاصمة الفاشسر (١٠٠) :

في الثالث والعشرين من رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق الثالث من نوفمبر سنة ١٨٧٤ م دخل الزبير على رأس جيشه مدينة الفاشسر منتصرا . وهناك وجد أن عائلة السلطان وباقى أهله الذين كان قد خلفهم فيها قبل خروجه منها قد غروا ، فلم يبق في المدينة غير التجار وبعض العلماء ، فأمن الجميع على أموالهم وأحسن معاملتهم فلما بلغ ذلك الأهالي انتشر خبر عدله ووفائه بالعهود ، فأخذ الناس يفدون عليه مقدمين غروض الولاء والطاعة والامتنال ، وما هي إلا أيام حتى دان له الجميع بالطاعة والولاء سواء من الأعاجم أو العربان أو الحضرة أو البدو . وفي أوائل شهر شوال سنة ١٢٩١ هـ الموافق الحادي عشر من نوفمبر سنة ١٨٧٤ م دخل الحكمدار الفاشسر على رأس حملته ، فرحب به الزبير وأكرم لقياءه وأطلق له مائة قذيفة مدفع تحية وترحيبا بقدومه ، فهناه الحكمدار بالنصر ولم ينس أن يشكر له ولاءه وحسن خدمته (١٠١) .

ولقد كان سقوط العاصمة الفاشسر الخطوة التي قادت سكان المناطق المجاورة لها على التسليم بسلام للفاشين . حينئذ أطلق الحكمدار حرية الرقيق وأعطاهم وثائق تثبت تحريرهم من الرق .

وكانت الخطوات قد اتخذت لارسال الرقيق المحرر والذين لا يرغبون في البقاء بدارفور ، الى بلادهم . كانت نية الحكومة الجديدة تنجيه الى وضع جميع شعب دارفور موضع المساواة مع المصريين . هذه السياسة كان فيها شيء من الحكمة والتعقل مما حدا بالناس وشجعهم على التسليم بسلام الى حكم الفاتحين .

الموازنة بين دور جيش الزبير ودور حملة الشرق في فتح دارفور :

من خلال تفاصيل الاحداث السابقة المتعلقة بغزو دارفور نستطيع ان نقف على حقيقة الدور الذي اسهم به كل من جيش الزبير من ناحية وحملة الشرق بقيادة الحكمدار من ناحية اخرى . في النقاط التالية :

اولا : دور جيش الزبير :

(١) كان له النصيب الاكبر في فتح دارفور ، فقد خاض اكثر من معركة ضد جيوش دارفور المتتابعة وانتصر عليها برغم تفوقها في العدد والمعدة .

(ب) كان وراء الانتصارات التي حققها جيش الزبير شخصية الزبير القيادية بما تنطوي عليها من صفات جليلة متمثلة في المهارة الفائقة في التخطيط وارادة قوية في التنفيذ وقناة لا تلين في مجابهة الصعاب ، وايمان عميق في النصر ، واخيرا اخلاص للحكومة الخديوية في تادية المهام الموكولة اليه بأمانة .

ثانيا : حملة الشرق بقيادة الحكمدار :

(١) لم يكن لجيش الشرق الدور الذي سساهم به جيش الزبير في الفتح ، بل ان دوره لم يخرج عن مهمة المساندة الهامشية لجيش الزبير التي تمثلت في التصدي للجماعات المسلحة الصغيرة.

التي أرسلها السلطان لمعركة تقدم الحملة التي يقودها الحكمدار ،
فكان دوره يعتبر جزءا مكملا لعملية الفتح ، ولكن اذا قميس بنظيره
في الجنوب لظهر هذا الفارق بوضوح .

(ب) لم يوضع جيش الشرق موضع الاختبار الكافي من حيث
القوة فلم يدخل الا في معارك محدودة مع جيش العدو وحذره في
ذلك أن دارفور كانت توجه معظم اهتمامها لجبهة الجنوب ، ومن
ثم كانت الاختبارات التي تعرض لها جيش الزبير أكثر مما تعرض
لها جيش الشرق . وقد كان وراء قيام الحكمدار بتنفيذ المهام التي
كلف بها ، بكل اهتمام وإخلاص في غزو دارفور ، ما تتمتع به
هذه السلطنة من ثروة وشهرة عظمتين كانتا تثيران طموح
الخديو . في نفس الوقت كانت تمثل باستقلالها تهديدا لسلطة
الخديوية في السودان من حيث أن موقعها الجغرافي يجعلها تسيطر
على طرق القوافل المتجهة الى بحر الغزال . كما أن هذا الموقع
جعلها مأوى لتجار الرقيق ورفيقهم بعيدا عن أعين الحكومة ، التي
كانت تحارب هذه التجارة في ذلك الوقت . ولقد كان لتحصيل
الزبير العبد الأكبر في هذا الفتح أثره السيئ في نفسية الحكمدار
الذي كان يرغب في أن ينسب اليه هذا الفتح العظيم ولكنه لم
يستطع ذلك (١٠٢) .

فنائم الحسرب :

أما عن فنائم الحرب ، فبالإضافة الى ما استولى عليه الزبير
مقب انتصاره على السلطان ابراهيم في معركة منواشي ومعاركه
السابقة مع الأمير حسب الله وأحمد نمر من أسلحة وفخائر وغير
ذلك ، فقد ذكرت الوثائق أن الأمير محمد القنصل ابن السلطان
ابراهيم لما بلغه مقتل والده . فر من الفاشر وحمل معه ما أمكنه
من الأموال والأشياء الخفيفة الثمينة من الذهب والفضة وغيرها ،

أما المقتلة منها مثل الأمتشة وخلافه ، فقد تركها في محاسلتها فلم يلبث الأهالي أن استولوا عليها وبعد دخول الزبير العاصمة الفاشر لم يجد شيئا من الغنائم التي كان يأمل الاستيلاء عليها باسم الحكومة ، وبالبحت تبين كما ذكر أن الأهالي قد استولوا على الجزء الأكبر منها ، فصار ضبط كل من لديه شيء من متعلقات السلطان ومصادرتها لحساب الحكومة . وقد أرسل الزبير جميع ما صار اغتنامه من المعارك السابقة وما تم ضبطه من متعلقات السلطان لدى أهالي الفاشر إلى الخرطوم التي قامت بإرساله بالتالي إلى القاهرة مع برقية تحمل هذا المعنى بتاريخ ٢١ ذي القعدة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م (١٠٣) .

عمسرد الأمير حسب الله :

لم تكد تمضي أيام قلائل على دخول الزبير والحكماء الفاشر ، وهذوء الحالة نسبيا بها ، حتى تفجر هذا الهدوء عن عصيان قام به الأمير حسب الله مع عدد من أبناء السلطان الراحل وأقاربه لجبل مرة (١٠٤) . وكان الحكماء قد أبلغ القاهرة في ٢٧ شوال سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٨ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م يبلغها بخسونه الفاشر وتأمينه لأهاليها ، ودخولها في طاعة الحكومة ، وإطلاق حرية الرقيق منهم ، كما أبلغها بأنه لما تحقق أن تبقى من عائلة السلطان الذين كانوا ضمن جيشه من حقيقة مصرعه اجتمعوا حولوا عليهم الأمير حسب الله سلطانا بجهات غرب دارفور (١٠٥) .

لهذا الغرض جرى اسسداد فرقة بقيادة الزبير قوامها اثنا عشر ألف مقاتل منهم أربعمائة من العساكر النظامية ومائتان من الفرسان لمطاردة الأمير حسب الله . وأنه تعقب المتوردين حتى أجبرهم على الالتجاء لجبل مرة وأنه جرى إمداده بمنجدة أخرى (١٠٦) . وقد أرسل الحكماء رسالة إلى الأمير حسب الله يعده فيها بالعفو

عنه وعن اتباعه وأن يعيد اليهم مثلكانهم إذا ما استسلموا بدون
مقاومة(١٠٧) .

فلما رأى الأمير حسب الله قوة جيش الزبير وأنه لا قدرة له
على مقاومته سلم له بلا قتال ، فالتقى الزبير القبض عليه ومن
معه من أبناء السلطان ابراهيم وفسيرهم من أبناء المملاطين
السابقين ، ونحو ألف ومائتين من الأعيان والكبراء كان من بينهم
أخت السلطان ابراهيم الميرم عرفة(١٠٨) . وجاء بهم جميعا الى
الفاشر وكان من جملة هؤلاء الأسسرى أيضا زوجات السلطان
الراحل(١٠٩) ، فوصلها الزبير بعد غيبة عنها دامت تسعة
وتسعين يوما(١١٠) . وقد أبرق الحكمدار للقاهرة بما حدث في
١٧ ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٥ ،
يقترح تعيين الزبير مديرا لعموم دارفور وحسن بك حلى تومندانا
على العساكر الجهادية(١١١) .

طلب الأمير حسب الله من الزبير بعد استسلامه أن يستعمل
نفوذه لدى المسئولين في القاهرة ليتولى حكم دارفور تحت أمرة
الحكومة الخديوية في مقابل أن يدفع مائة ألف جنيه سنويا كجزية
للدولة ، فلقى هذا الرأي من الزبير كل موافقة وترحيب ، ووجد
فيه خير سبيل لراحة البلاد والحكومة من هذه المسئولية المكلفة ،
فتعهد له ببذل كل عون في سبيل تحقيق رغبته هذه غير أنه عندما
تقدم بهذا الاقتراح الى اسماعيل باشا أيوب مؤيدا آياه رفضه
الآخر رفضا باتا وأبى حتى أن يستمع الى حجج الزبير التي حاول
أن يسوقها لاقتناعه بالموافقة على هذا المشروع ، وقد طال
الجدال بين الاثنين حول هذا الاقتراح حتى استحال الى نزاع
سافر(١١٢) .

اسباب رفض الحكمدار لاقتراح الزبير بتعيين الأمير حسب الله سلطانا على دارفور :

أولا : لم يكن لدى الحكمدار الضمانات الكافية للزام الأمير حسب الله بتنفيذ هذا الاقتراح وخاصة ما يتعلق منه بدفع الجزية وضمان استمرار طاعته للحكومة المصرية .

ثانيا : روح المداة والكراهية التي يكنها زعماء وسلاطين دارفور للزبير والحكومة ، واحتمال عدم استمرارهم في إخلاصهم وولائهم الممنع تجاه الحكومة وقيامهم بالثورة عليها يوما ما للانتقام لما أصابهم على يدها من أضرار غزو بلادهم يضاف الى ذلك ما قد يترتب على أعمالهم هذه المتوقع قيامهم بها من ضياع للجهود والأموال التي بذلت في الفتح .

ثالثا : كان من أهداف الفتح القضاء على الطابع الانفصالي لدارفور كسلطنة ، وضمها كجزء متمم للسودان ، وكذلك القضاء على تجارة الرقيق فيها ، فكان معنى الموافقة على هذا الاقتراح هو عودة للأوضاع التي كانت عليها قبل الفتح .

رابعا : انعدام الثقة والتفاهم بين الزبير والحكمدار مما أدى بالتالي الى عدم الأخذ بهذا الاقتراح وفشله قبل أن يتم عرضه على الخديو في القاهرة .

ولم يلبثا الحكمدار في ٢٠ من ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٩ يناير سنة ١٨٧٥ م أن قام بإرسال الأمير حسب الله (٧٠ — ٧٨ عاما) وعائلته وأتباعه البالغ عددهم حسب ما ورد بالوثائق ما بين ٩٦ و ٤٨ من ذكور وإناث في حراسة قوة تحت قيادة حسن بك حلمي الى أم شنغة ، كي يتوجهوا منها الى كردفان ومنها الى الخرطوم في حراسة الأوربيين الباشبوزقي ، فبلغوها في التاسع والعشرين من محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق سبعة

مارس سنة ١٨٧٥ م ، وكان الحكمدار قد بعث في الثالث من محرم سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ٩ فبراير سنة ١٨٧٥ م بأولاد السلطان الذين تم القبض عليهم بعد نزارهم وهم محمد الفضل ، وعبد الرحمن جامع وعبد الرحمن شاطوط شقيق السلطان ومعهم عائلاتهم واتباعهم البالغ عددهم ٢٢٣ نفرا في حراسة قوية الى الخرطوم (١١٣) .

وكان الخديو قد قام من قبل بدعوة كل من الأمير حسب الله والأمير محمد الفضل لزيارة القاهرة ، ولما وصلا إليها في مارس سنة ١٩٧٥ م اعد لاستقبالهما قصر خاص (١١٤) إلا أن الحكومة بعد ذلك قامت باسكانهم في الحى المعروف بسوق السلاح ، وأجرت لهم المرتبات فعاشوا في راحة وسلام وكان من بينهم الأمير عبد الحميد ابن السلطان إبراهيم وتسعة عشر آخرون من أبناء السلطان (١١٥) .

وعندما وصل الزبير بالأسرى الى الناصر أمره الحكمدار بالرجوع الى دارا والاقامة بها هو وعسكره الى حين أن يصدر اليه أمرا آخر بالعودة الى بحر الغزال (١١٦) .

ومنذ تلك اللحظة وضحت السياسة التي كان يريد الحكمدار اتباعها مع الزبير وهي في مضمونها إبعاده شيئا فشيئا عن أمور الحكم والسياسة الخاصة بدارفور ووضعها في بوتقة صغيرة ، تمهيدا لاسناد العمل المناسب له أو اقصائه من بلاد السودان كلية .

ثورة الأمير بوش :

لم ينفى على حالة العصيان التي أعلنها الأمير حسب الله ومن معه مدة طويلة ، حتى ظهر بجبل مرة ثائر آخر من الأسرة الحاكمة هو الأمير بوش شقيق الأمير حسب الله لذلك أرسل الحكمدار الى

الزبير ، وهو اذ ذاك في دارا ولم يمض عليه بها اكثر من شهر واحد ، كتابا يأمره فيه بالخروج لاختاد ثورة هذا الأمير ، واعادة الأمن والسلام الى ربوع البلاد ، فامتثل الزبير للأمر الصادر له وخرج بجيشه قاصدا جبل مرة ، فقام بمحاصرته وبعد معارك استمرت لمدة خمسة عشر يوما متصلة ، هرب الأمير بوش من جبل مرة ، فقام الزبير بتعقبه حتى ادركه قرب بلدة كيكبية (١١٧) . فدارت بين الاثنين معركة انتهت بمصرع الأمير بوش وفرار جيشه ، وفي الثالث من أغسطس سنة ١٨٧٥ م بعد أن تم للزبير النصر على الأمير بوش. انبسطت امام باصرته أرض جديدة لم يجد ملتمعا من غزوها وضربها الى مملكات الجناب العالي الخديو بالسودان (١١٨) .

الزبير يتوغل بجيشه لجهة الغرب (برقو - واداي) :

أمرت القاهرة في برقيتها المؤرخة في ١٥ ذي القعدة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م للحكمدار عون. رغبتها في اتخاذ كافة الاجراءات اللازمة للاستيلاء على برقو نظرا لموقعها الاستراتيجي الذي يمثل مفتاح الغرب السوداني ، وذلك بتقوية الفرقة التي مع الزبير بتلك الجهات ، وكان الهدف من ذلك هو العمل على ابعاد الزبير عن مسرح الاحداث السياسية في السودان ، وكذلك التخلص من جنود البحارة الدناقلة الموجودين في بحر الغزال ، ولكن القاهرة رغم ما جاء بالبرقية من تعليمات خاصة بفتح برقو فانها لم تقيد الحكمدار برقيتها هذه ، بل تركت له حرية العمل بما يراه صائبا . وكان رد الحكمدار على القاهرة أن الوقت غير مناسب لهذا العمل ، لعدم استكمال ضبط دارفور ، وقلة المسافر الموجود معهم مع الزبير خارج دارفور منذ عام أو أكثر رسوء حالتهم الصحية والمعيشية ، وعدم حصولهم على مرتباتهم منذ مدة ، وأن فتح برقو تشتيت وتشعيب للجهود المبذولة في ضبط دارفور (١١٩) .

ولم يكتف الحكماء بهذا السيل من المقترحات بل أبرق في ٢٦ ذي القعدة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٥ يناير سنة ١٨٧٥ م للقاهرة شارحا وجهة نظره في اقتراح الخديو بفتح برقو مارضا رايه بأن الزبير ربما لا يقبل أن يواجه جهده مرة أخرى نحو فتح حديد ، لأنه كان يقاتل هو ورجاله ما يقارب السنة والنصف في بحر الغزال وشكا ودارفور ، وأنه سسرف من ماله الخاص الكثير في سبيل تجهيز وأماشة ما يزيد على الستة آلاف رجل من خاصته وعبيده وأقاربه وأتباعه ولم يكف الحكومة بأية مصروفات ، بل كان ذلك من إيرادات مشاريعه الخاصة في بحر الغزال وبهذه الجهود تم له فتح دارفور . وهو ينتظر في مقابل كل هذا أن تبقى الحكومة على مديرية بحر الغزال في عهده كما كانت لأنها مقر مشاريعه ومناجره ، وكذلك شسسا ودارفور اللتان فتحهما بماله وسماء رجاله . ولهذا لا ينتظر منه أن يقوم بحملة جديدة نحو بلاد برقو دون أن ينال جنوده شيئا من الراحة ، ودون أن يجنى هو ثمرات ما أنتج على يديه . وبهذا المنطق وتلك الحجج تحطم مشروع فتح بلاد برقو على يد اسماعيل باشا أيوب (١٢٠) .

وبينما القاهرة والحكماء تتبادلان البرقيات في مسألة فتح برقو ، كان الزبير متجها بفرقته إلى غرب الفاشر - التي هي حدود برقو - لتعقب ما بقي من عائلة السلطان . وبعد أن تم له ذلك اتجه بجيشه متوغلا نحو الفسرب مجتازا في طريقه ديارتاما (١٢١) ، المساليت (٢٢) ، تمدا ، سولا ، فأخضعها جميعا باسم الحكومة إلى أن بلغ في نتوجه ترجة برقو الواقعة على حدود مملكة دارفور الغربية والتي يفصل بينها وبين دارا اقليم واداي . ولكن لم يكد الزبير يتم جهوده بشأن إخضاع واداي وسلطانها ،

حتى أمره الحكمدار بالرجوع عنها في الحال . فقتل عائدا للفاشر
متأسفا على ذلك الفتح الذي أفلتت من يده . وهناك أخبره الحكمدار
بأن جناب الخديو أمر برجوعه من هذه البلاد مع مكائاته على
ذلك (١٢٣) .

ترقية الزبير والحكمدار :

كان وكيل الحكمدارية على اتصال مستمر بالقاهرة لتبليغها
أولا بأول بأنباء ما يجرى بدارفور ، وكان آخر ما أبلغ به القاهرة
من معلومات هو الانتصارات التي أحرزها كل من جيش الزبير
والحيلة التي بقيادة الحكمدار ومقتل السلطان إبراهيم في ٢٢
رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٣ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م على يد
الزبير . فلم يلبث أن أبرقت القاهرة للخرطوم في ٢٥ رمضان سنة
١٢٩١ هـ الموافق ٦ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م بالتهنئة في هذا العمل
المجيد . وأجاب الحكمدار بشكر جناب الخديو على تهنئته هذه بعد
أن قام بتبليغ تهنئة الخديو لكافة الضباط والعساكر في احتفال
عسكري مهيب أطلقت فيه المدافع ابتهاجا بهذه المناسبة (١٢٤) .

وطالب ناظر الجهادية في الثامن والعشرين من شوال سنة
١٢٩١ هـ الموافق ٩ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م من الخديو التصديق
على ترقية الضباط الذين أظهروا شجاعة ، ويظلوا جهودا مخلصه
لثام هذه الحرب الى رتب أعلى كتوصية الحكمدار له في غاية
رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٠ سبتمبر سنة ١٨٧٤ م (١٢٥) .

وفي التاسع والعشرين من شوال سنة ١٢٩١ هـ الموافق
١٠ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م أرسلت ارادة سنية الى الحكمدار تهنئة
عليها على هذا النصر العظيم للمرة الثانية ، وانعم الخديو عليه

جرتبة الفريق ، والنيشان المجيدى العالى من الطبقة الاولى ، وعلى الزبير برتبة اللواء والنيشان المجيدى من الطبقة الثانية ، وتنبه الى ضرورة توجيه الاهتمام الكافى لتنظيم امور هذه المديرية الجديدة ، والعمل على راحة اهاليها وطلب ما يلزم لها من العساكر والموظفين (١٢٦) .

ومى ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٩ يناير ١٨٧٥ م صدرت من المعية اوامر كريمة بهذه الرتب والنياشين الى كل من الزبير والحكمدار ، وتحمل اليهما الثناء والشكر على ما بذلاه من جهود مخلصه فى هذه الحرب ، وعلى خدمة الحكومة وتحثهم على بذل المزيد من السعى والاجتهاد مقابل الوعد بمزيد من المكافآت والانعامات من جانيها (١٢٧) .

مكان الزبير فى الادارة الجديدة :

لم يكن هدف الزبير الحقيقى من وراء قيامه بنتج بحر الغزال ببلاد شكا ودارفور أن يتولى هو امرها ، بل كان يؤمن وهو الذى اجتمع حوله جيش كبير ، أن من مسئوليته العمل على استقرار الأوضاع المضطربة فى تلك المناطق بالقضاء نهائيا على الخارجين والمفسدين لهذا الاستقرار . ومن ثم بدأ يعمل ويخطط سياسته التى اصابها النجاح الى حد كبير . ويؤكد ذلك أنه بعد أن اتم فتح بحر الغزال مرض على الحكومة أن ترسل من طرفها من يتولى حكم هذه البلاد حتى يستطيع هو أن ينصرف الى تجارته ، ولكن الحكومة لم تقبل هذا العرض واقربت توليته على بحر الغزال مقابل جزية يدفعها للحكومة . ولم تكن فى اقدامها على هذه الخطوة مضطرة أو مجبرة ، ولكنها رأت أن من صالحها عمل ذلك . وبعد أن تم فتح دارفور ومشاركة الحكومة له فى هذا الفتح نجد أن

سياسة الحكومة قد تضررت عن سياستها تجاهه عندما اقترحت توليته على بحر الغزال . نهى بعد أن تم فتح دارفور لم تقبل بأى صورة من الصور أن يفرد الزبير بشمار نجاحه هذا ، ولكنها لم تصرح له بذلك فى بادئ الأمر ، بل لعبت السياسة دورها فى ملاينته ومهادنته ، حتى تم لها ما أرادت بفضل ذلك بالقضاء على جميع الاضطرابات والثورات التى تولدت بعد الفتح من جانب اقارب السلطان ابراهيم . حينذاك بدأت سلسلة من الاتصالات السرية بين الحكومة والحكماء لتحديد مكان الزبير فى الادارة الجديدة .

وفى هذا السبيل تبودلت التلغرافات الشسفرية العربية والتركية بين الحكماء والقاهرة ، فبعد سفر الزبير متعبا الامير حسب الله الفائر اقترح الحكماء ان يعين شخص آخر غير الزبير مديرا عاما على المديرية الاربع لدارفور برتبة لواء ثم ذكر الاسباب التى بسببها لا يقر صلاحية الزبير لمثل هذا المنصب . مضاهيا اليها ان اشرافه على سير الامور فى بحر الغزال وشكا يمنعانه من ذلك ، وقد خلج الحكماء من تلقاء نفسه على الزبير لقب « مأمور ادارة دارفور » تطمينا له حيث ان قوائمه كانت تزيد على الستة آلاف رجل وكلها مزودة بالأسلحة النارية ونصفها من عبيده الخصوصيين . وقد علم الزبير انه سوف يعين فعلا على دارفور وشكا وبحر الغزال بارادة سنوية سسوف ترد من المحروسة . ويظهر من تلغرافات الحكماء الشسفرية للقاهرة ان ما دعاه الى انتهاج هذه السياسة هو قوة الزبير التى بدونها لم يكن ليستطيع السيطرة على دارفور ولا القضاء على الثورات والتمردات التى ظهرت بعد الفتح . لذلك رأى مجارته وتطبيب خاطره الى حين . واقترح الحكماء أيضا أن ترد الارادة السنوية بفصل ادارة دارفور عن بحر الغزال وشكا ويعين مدير عام برتبة لواء عليها ، اما بترقية حسن بك حلى الموجود بالفاشسر آنذاك أو من تراه الحكومة .

صالحا لهذا المنصب ، وبذلك تحال شكا وبحر الغزال الى مهدة الزبير مؤقتا كما كانت من قبل ، وكان الحكمدار يرى أن ذلك هو الطريق الوحيد لادارة دارفور ادارة رشيدة ، في حين أن الأهالي هناك كما يقول الحكمدار يذفرون من حكم الزبير وادارته ، وأن كل تلك الأقاليم الشاسعة فوق قدرته الإدارية .

وبعد خمسة أيام من تاريخ ارسال هذه البرقية رأى الحكمدار أنه بعد ذهاب الزبير الى شكا وبحر الغزال ، لن تكن القوة النظامية الباقية لحفظ الأمن ، وأنه لذلك يرى ضرورة الإبقاء على الزبير حينا من الزمن بدارفور يشرف فيها على الادارة ويبقى معه حسن حلمي بك قائد للعساكر الجهادية حتى يتكامل ورود العساكر والموظفين من مصر . وفي هذه الحالة تستطيع القوة المصرية العمل على حفظ النظام والدفاع عن دارفور بما فيه الكفاية . وعندئذ في الامكان أرجاع الزبير الى مقر وظيفته الأولى في مديرية بحر الغزال وشكا . ولكن الحكمدار تردد مرة أخرى في خطته وأبرق للقاهرة مقترحاً تأسيس مديرية عامة لغسرب السودان ، تشتمل دارفور وبحر الغزال وشكا وأن يعين الزبير بها مديرا لبحر الغزال وشكا ، وحسن رمعت بك مديرا لدارفور ، وحسن حلمي بك قائدا للعساكر الجهادية ، على أن يكون على رأس هؤلاء جميعا خالد باشا بعنوان مدير عموم غرب السودان ، الذي كان يشغل في ذلك الوقت قائمقام الحكمدارية بالخرطوم . وترك الحكمدار أمر الانعسار على هؤلاء بالترتب والنياسين لارادة ولي النعم وذلك حفا لهم على زيادة نشاطهم في خدمة الحكومة . وكانت هناك وجهتان للنظر في هذه المسألة :

الأولى : أن يعهد الى الزبير بحكم دارفور وبحر الغزال وشكا وتمنح برقو ، ويمين بهذا مديرا على كل الجهات الغربية ،

ولكى يظل هذا الجزء منفصلا عن حكمدارية السودان مثل شرق السودان ، والا تتحمل الحكومة أية مصروفات لها .

الثانية : هي ان يبقى الزبير فى الوقت الحالى بدارفور الى ان يتم اخضاع كل الجهات فيها وترد للمديرية القوة العسكرية الكافية . واثناء ذلك تحتاج دارفور الى مصروفات تبلغ بين سبعة وثمانية آلاف كيسة تنقلها الحكومة وبعدها تتحرك فرقتان احدهما من دارفور والثانية من بحر الغزال وتتجهان نحو فتح برقو (١٢٨) .

وفى التاسع من ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٧ يناير سنة ١٨٧٥ م أبرق الحكمدار للقاهرة يطلب الابقاء على الزبير وجماعته بدارفور بصفة مؤقتة بحيث يمين عليها رسميا بعنوان مدير عموم ، ولكى يسهل بعد ذلك نزع بحر الغزال من ادارته دون جهة شك ، ولكى يقوم باستكمال ما بدأه من اخضاع بقية اهالى دارفور لطاعة الحكومة . وقد صار الاهالى يخشون بطش الزبير ويأس جماعته ورأى الحكمدار صرف النظر مؤقتا عن تعيين خالد باشا حتى لا يحدث انشقاق فى الادارة والاكتفاء بالابقاء على حسن بك حلمى بوظيفة قومندان للمساكر النظامية ثم يعين حاكما على دارفور عند قيام الزبير بفتح جهة برقو (١٢٩٦) .

وفى نفس التاريخ ابلغ الحكمدار القاهرة بأنه عند مسخور الامر بنزع جهة بحر الغزال من ادارة الزبير ، واحالة دارفور عليه يصير السماح له يأخذ اربعمائة قنطار مسن قبل تملكه والموجودة بمسارعه فى بحر الغزال ، وكذلك بقية ما له من الاشياء مثل الاسلحة والنفائز وخلافه ، على ان يكون ذلك من جملة مكائاته من جناب ولى النعم الخديو (١٣٠) .

أُبرق الحكمدار الى الخديو يعذل في اقتراحه للمرة الثانية مشيراً بأن تضاف كردفان الى الجهات الغربية على أن تتبع كلها خالد باشا ، وتعيين الزبير مديراً على دارفور ، وحسن بك حلياً تومندانا على العساكر النظامية ، وحسن بك رفعت مديراً على كردفان (١٣١) .

وقد صدرت ارادة سنية الى حكمدار السودان في السادس من محرم سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٣ فبراير سنة ١٨٧٥ م تعليه بأنه سوف تصدر الأوامر اللازمة بتعيين الزبير باشا مديراً عاماً على دارفور ، وتخبره بصفة قاطعة بعدم مقادرة الفاشر الى الخرطوم الا بعد صدور التعليمات بذلك اليه (١٣٢) .

وفي التاسع عشر من محرم من نفس السنة الموافق ٢٦ فبراير سنة ١٨٧٥ م صدر أمر كريم الى حكمدار السودان بالفاشر، وفيه توضيح القاهرة النقاط والأسباب التي تركز عليها لمنع تعيين الزبير باشا في منصب مدير دارفور وهي كالآتي :

(١) خوف الحكومة من أن يطمع الزبير في الاستقلال بها تحت يده من البلاد التي سوف يعين عليها .

(ب) ترى الحكومة أن عمله في التجارة بالإضافة الى وظيفته التي سوف يعين بها تمنعه من أن يمارس مهام هذه الوظيفة ، كما أنها ترى أنه لا يجوز الجمع بين التجارة والادارة . وأنها مستعدة لاستلام مشاريعه ومتاجره بأثمان مناسبة كما فعلت مع بعض التجار الأوروبيين من قبل اذا أراد ان يعين بهذه الوظيفة .

(ج) كان جنود البحارة ينفرون من اتباعهم 'نظام خاص ومعنى استمرارهم في خدمة الحكومة مما يقتضى ضرورة خضوعهم لنظمها وتناول مرتبات كبقية الجنود الآخرين وهذا مما يصعب تحقيقه .

والظاهر أن الجنود الجهادية بعد أن تكامل منهم عدد ومير بدارفور ، رأى الحكمدار أنه ليس هناك حاجة لتعيين الزبير في المنصب الذي سبق أن اقترحه كما أنه رأى من خلال تفكيره (أى الزبير) عدم كفايته لإدارة هذه الأراضى ، وأنه يصعب عليه التعاون مع مرعوسيه من أصحاب الرتب النظامية في الجهادية والموظفين المدنيين الآخرين الذين يحضرون من مصر ، كما أنه لا يريد أن يتخلى عن جنوده البحارة . ويرى الحكمدار فوق كل هذا أن الزبير نفسه راغب عن إدارة دارفور ، وأنه يكتفى ببحر الغزال . ولهذا أعلن تعيين حسن بك حطى مديرا على الفاشسر بعد ترقينه لرتبة اللواء ، ومديريتين أخريين بصفة مؤقتة . أما دارا التى تقع قبلى دارفور فقد حولت ادارتها مؤقتا على الزبير . وقد أراد الحكمدار إبعاد الزبير عن إدارة دارفور ، وفى نفس الوقت عمل على الإبقاء عليه بدارا كي يستعين به على أخمد الفتن التى قد تشب بدارفور وذلك لعدم استطاعة الحامية المصرية القيام بذلك نظرا لقلة عددها . والحل الأخير الذى ارتآه الحكمدار لمشكلة الزبير هو أنه عندما يعود الى بحر الغزال يوكل اليه في الحال مهمة فتح برتو ، ويعين مديرا على ما يفتتحه من اراضى بطك الجهة ، ثم يتم نزع جهة بحر الغزال من ادارته وبذلك تتخلص الحكومة من ادارته لدارفور ، ومن مشاريعه ومناجيره وجنوده البحارة في بحر الغزال . ولم يمانع الزبير في ترك إدارة دارفور ، ولا في امتلاك الحكومة لمشارعه ومناجيره في بحر الغزال ، ولكنه طلب أن تبقى له الحكومة على ستمائة قنطار من سن الفيل الموجود لديه في بحر الغزال ، كما تعهد أن يورد للحكومة السن والشبلان الصالحين للجندية بما قيمته خمسة آلاف كيس باعتبار قنطار السن بخمسة ومئشرين جنيها ومكانة الجندي خمسمائة قرش ، وما يزيد على ذلك ترسل له الحكومة ما يقبله من البارود واللوازم الحربية الأخرى . ولم يمانع أيضا في تحويل رجاله من البحارة الذين يصحبونه الى

مساكر حكومية بمرتبات ثابتة ، وقد صدق ظن الحكمدار بعد ذلك من ان اهالى دارفور لابد انهم قد يماودون المصيان مرة اخرى ، وان وجود الزبير بدارفور ضرورى لكسر شوكتهم . وبعد أداء الزبير لمهمته يستطيع الحكمدار أن يقوم بتنفيذ الحلقة الأخيرة من سلسلة اجراءاته تجاه الزبير ، فقام الزبير بتسليم مديرية دارا بعد هدوء الأحوال نسبيا بدارفور ، متهيبا للرحيل لشكا وبحر الغزال حيث أصبح لا حاجة له ولا لوجوده بدارفور(١٣٢) .

الزبير يعتزم السفر للقاهرة :

لم يكن الخلاف بين الحكمدار والزبير فى مسألة الضرائب ، وتنصيب الأمير حسب الله على دارفور ، وتحديد مكانه فى الإدارة الجديدة ، الا اسبابا اختلقها الحكمدار ليدفع بالزبير لطلب اللجوء للقاهرة لعرض حقيقة الأمور هناك على الخديو لانصافه . ولم تكن البرقيات التى تبودلت بين القاهرة والحكمدار بسوى نوع من المناورات والخدع السياسية التى استهدفت استئصال شاة الزبير كليا من السودان .

وقد شعر الزبير منذ اليوم الاول الذى اجتمع فيه مع الحكمدار بالفائس ان هناك بعض الانقباض والنفور منه ، ولعل ذلك كان مرجعه الى شعور الحكمدار بأن فخر فتح دارفور يعود للزبير . ثم توالى على الزبير بعد ذلك الومود الكثيرة التى سرمان ما كانت تبخر الواحد تلو الآخر ، ثم اجراءات اسسماويل باشا ايوب من حيث ادارة دارفور وفتح برقو ، وعلم الزبير برغبة الحكومة فى تسريح جنوده البحارة ، واستلام مشاريعه الموجودة فى بحر الغزال . كل ذلك جعل الزبير يظن أن الحكمدار اراد حرمانه من ثمار انتصاراته من تلقاء نفسه ، وان الخديو لا يتفق معه فى تلك

السياسة . وأن من الأوفق الذهاب الى القاهرة ، وعرض الأمر على الاعتبار السنية ، وما كان يدري أن تلغرافات الشفرة المتبادلة بين الحكومة والحكمदार هي التي تملئ هذه السياسة . وأن الحكمदार هو الذي يقترح والخديو يوافق بعد أن يقتنع بصحة الاقتراح . وما كان يدرك الزبير بحكم تربيته وبيئته أن هناك باطنا من الأمر وظاهرا . وأن السياسة هي حيل ومناورات ، وما كان له أن يدرك أيضا طريقة الدسائس التركية ، فكان يأخذ الأقوال التي يبديها له الحكمदार على ظاهرها ، ولم يشعر أن هناك تخوما من جهته للقيام بعصيان أو تمرد . وهو بطبيعته البسيطة وسليته العربية الواضحة ما كان مخادعا في ولائه للحكومة الخديوية ، وظل ثابتا على إخلاصه منذ قطع عهدا على نفسه بالولاء لهذه الحكومة عنما تغلب على قوات البلال وودع عن نفسه تهمة التمرد والثورة ، غير أن عنصرا الحكم التركي حين ذاك ما كان يصدق أن رجلا عصاميا كالزبير عمل لنفسه مجدا في مجاهل أفريقيا والتف حوله عدد من الاتباع وفتح بقواته وموارده الخاصة بلاد دارفور ، أن يكون خطوا من المطامع . وما كانوا يحكم أفكارهم وتقاليدهم التركية أن يطمئثوا الى مثل هذا الرجل ، فقد تعنى أقواله الظاهرة معنى عكسيا لما يبطنه في ضميره لذلك كان موقف الحكمदार معه يتسم منذ البداية بالحذر والاحتراس (١٣٤) .

وجد الزبير أن من الأصوب السفر الى مصر لمقابلة الخديو شخصيا وعرض حقيقة الموقف عليه ، والنظر معه ومع رجال حكومته في أمر تنظيم البلاد التي تم فتحها على يده ، والبلاد التي يمكن إلحاقها بحكومة الخديو في المستقبل ، فجاءه في غرة رجب سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١ أغسطس سنة ١٨٧٥ م تلغراف من القاهرة بالموافقة على حضوره إليها (١٣٥) . فاجاب الزبير على هذه البرقية بتقديم الشكر للجناح العالي الخديو وسروره لذلك

وأبلاغه بقيامه بالاستعداد للسفر وذلك في برقية بعث بها في ١٩ رجب سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٩ أغسطس سنة ١٨٧٥ م (١٣٦) .

نفذ الحكمدار سياسة إخلاء دارفور بأكملها من نفوذ الزبير ، وقدم الزبير قبل قيامه عريضة للخديو يشكو فيها من استعجال الحكمدار لجنوده من البحارة بالرجوع إلى بحر الغزال وفصل مديرية دارا عنه ، وهو يرى أن اختلاط سكان المديريتين دارا وبحر الغزال يجعل انفصالهما إداريا أمرا يكاد من الصعب تحقيقه ، فجاء الرد من القاهرة بأن أوامر الحكمدار لابد من تنفيذها في الوقت الحاضر ، وأنه بعد حضوره لمصر سينظر معه في تشكيل حكمدارية يكون هو على رأسها تشمل بحر الغزال وربما جزءا من دارفور . وقد خشي الحكمدار أن يقسم الزبير بمحاولة للسيطرة على دارا ، فبعث بجنود كثيرة إليها حتى إذا بدت أية حركة من الزبير انتقض عليه جنود الجهادية . ورأى الحكمدار أن البارود الذي طلبه الزبير من بحر الغزال مبالغ في كميته . وهكذا لآخر لحظة كان الحكمدار يشك في ولاء وإخلاص الزبير .

تحرك الزبير من شكا قاصدا كردفان ومعه رؤساء البارفور بعد أن قلقت القاهرة والخرطوم من التأخير . وبدأ الحكمدار يضع العراقيل في طريقه ، فبعد أن اتفق مع الزبير على توريد أقمشة وأشياء أخرى بلغ ثمنها نحو السبعة آلاف جنيه يصرفها من خزنة الحكمدارية بالخرطوم . أرسل تلغراما لمصر بسحب اتفاقه هذا لأن أهالي دارا كما يقول الحكمدار قدموا عرائض بأن هذه الأقمشة وغيرها التي وردها الزبير كانت ملكهم واغتصبها منهم الزبير لنفسه ، ولذا ينصح بمماطلة الزبير في الدفع بحجة عدم وجود النقديّة ، فعملا أخبر قائمقام الحكمدارية سسرا بذلك الأمر وقد فوجئ الزبير بأمر انحجز على السن وهو في الأبيض (١٣٧) .

بعث الزبير بشكوى الى الجناب العالى الخديو فى ٢٩ ذى
الحجة سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ٦ فبراير ١٨٧٦ م يخبره بها فخطه
مدير كردفان ، فجاءه رد القاهرة تبلغه بتكديرها للمدير المذكور
على ما بدر منه من سوء تصرف ، والتصریح له بأخذ السن
الخاص به . وكانت القاهرة قد أرسلت الى مدير كردفان تلومه
على عمله هذا وتبلغه بأن الزبير باشا ليس تاجرا وانما هو من
كبار موظفى الحكومة كما ان السن المذكور برسم حضوره الى
مصر (١٣٨) .

وقد توجىء الزبير للمرة الثانية عندما وصل الخرطوم وطلب
صرف قية ما ورده للميرى من أقمشة وخلافه أنه لم يستجب
لطلبه قائمى الحكمدارية حسب تعليمات الحكمدار . ولكن بعد
التلغرافات العديدة التى تبودلت صرف له نصف المبلغ . وفى بربر
طلب مبلغا آخر وبعد أن تبودلت التلغرافات مع القاهرة صرف له
جانب منها . فقام من بربر مخترقا صحراء العتور الى كرسكو
ومنها الى مصر . والدليل الثابت على تخوف الحكومة من الزبير
هو ان الحكمدار صدرت له الأوامر بأن يبقى بدارفور حتى يغادر
الزبير الخرطوم ، وينتظر بالخرطوم حتى يثيقن من وصول الزبير
الى كرسكو ، ونحت سائر التفتيش على الشمال يسافر الى مصر
حسب ما طلب منذ مدة (١٣٩) .

وصل الزبير الى القاهرة فى العاشر من يونية سنة
١٨٧٥ م (١٤٠) وتشرف بمقابلة جناب الخديو بقصر الجيزة ،
مرحب به وبالفى اكرامه ، وأورد له أحد قصوره بالعباسية ،

منزل به هو وأسسرتة وأتباعه ضيوعاً على الخديو . ولم يكد يستريح من عناء السفر حتى تقدم الى قهرمان الخديو بكتاب طلى العبارة رقيق الحاشية يرجو فيه أن ترفع الى السيدة الكبرى السنية هديته المتواضعة التي أحضرها معه لعزيز مصر من السودان ، وهي عبارة من :

« ألف جندي سوداني مدججين بالعدة والسلاح ، مائة مئقال من الذهب ، مائة جواد عربي ، مائة وخمسين قنطار سن ميل ، أربعة أسود ، أربعة نمور كاسرة ، ست عشرة ببغاء من ذوات الألوان الزاهية ، فسر الخديو من هذه الهدية سروراً بالغاً ، ونهى الى الزبير امتنانه من هديته في كتاب أرسله اليه قهرمانه خيرى باشا . وبقي الزبير في قصر العباسية حتى أغسطس سنة ١٨٧٥ م . فدهاه الخديو اليه بقصر الجيزة وأصدر له أمراً بالتأهب للسفر قريبا الى السودان ، فشكره الزبير على ذلك ودعا له وشرع يستعد للسفر . ومضت أشهر ثم دهاه الخديو اليه ثانية وقال له : يا زبير قد استصوبت بقائك في القاهرة حتى انظر في أمرك فأجابه أمرك يامولاي فأنصرف الزبير والأسى يحز في نفسه وقد أدرك في أعماق سريره ما كان يتوقعه وما جال في نفوس أتباعه (١٤١) . »

والمجيب أن بعض رجاله وأعوانه قد حاولوا قبل سفره إثناءه من الرحيل غير أن إخلاصه وولاءه لحكومته وشرفه قضى عليه بالمحاطة على وعده بالسفر الى مصر (١٤٢) .

وهنا الخطأ الذى وقع فيه الزبير وهو تقريره الذهاب للقاهرة
لكى يضع حدا للأمور المتنازع عليها بينه وبين الحكمدار . وكان
الخدوي اسماعيل أذكى من أن يعيد الزبير باشا الى السودان وهو
الرجل الذى حكم مديرية فى حجم مرثسا ، وغزا علاوة على ذلك
أكثر من ١٤٠٠٠ ميل مربع من أجل مصر . لذلك نراه يقضى
بقية حياته كضيف شرف لدى الخديو (١٤٣) .

كان الصراع بين الزبير والحكمدار رمزا للصراع بين العقليّة
السودانية الإسلامية والعقليّة المصرية التركية ، فالزبير يريد تخفيف
الضريبة والاكتفاء بالزكاة التى يفرضها الشرع ، والحكمدار يريد
أن يعصر البقرة التى كانت حلوبا ثم جف ثديها . ولو بقى الزبير
فى السودان لافطره هذا الاختلاف الى الثورة فى وجه الحكومة .
ولكنه أبعد عن مسرح الأحداث فى الوقت المناسب قبل أن يستحل
أمره ويصبح زعيما قوميا (١٤٤) .

هوامش الفصل الثالث

(١) سلطنة دارفور : تمتد من بحر النطرون في الصحراء الكبرى شمالا إلى بحر الفزال جنوبا ، ومن النيل الأبيض شرقا إلى نرجة بلرقو غربا . ويشتمل جبل مرة الذي يبلغ عرضه مسيرة نحو اليومين ، وهو سهل ممتد من غربها الذي تقع السهول في شماله فقط . والفرع شعب مسلم زراعي يحتل جبل مرة والسهول التي تقع حوله ، ويوجد ضمن شعب الفرع شعبة خناسة من أبنائه تسمى التجارة وهي التي منها سلاطين دارفور . ويوجد بدارفور قبائل منها الداجو ، والبيغو ، والبرغو . وهناك أيضا قبائل الفرعان ، والبراهيت ، والزغاوة وهي جماعات رعوية أصلها من جنوب ليبيا وتشاد . ومناخ هذه البلاد في جبلته ملاليم . وصناعة السكان هناك تقتصر على تربية الماشية والأبل والأغنام ، والزراعة حيث تجود الأرض وهم يعتمدون على مياه الأمطار . وأهم محاصيلهم البقول والخضرا ، ويقتل التجار على دارفور للتجار فيما نقله أرضها من الخشب والصمغ العربي والقرط الذي يستخدم في الديباجة كما يستخرج بعض المعادن منها على سبيل المثال الحديد والنحاس .

Shukry, M.F. : The Khedive Ismail and slavery in (٢)
the Sudan 1868 — 1879. P. 211.

Budge, E.A. Quillia : The Egyptian Sudan (٣)
Vol : 2, P. 23.

Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 222. (٤)

(٥) السلطان حسين بن الفضل (١٨٢٩ م — ١٨٧٤ م) : كان معاصرا لمعبد باشا والخديو اسماعيل فباتلها الهدايا والمكافآت . وكان كريما مجبا لرعيته . وفي سنة ١٨٥٦ م كتب بصره وألف جيشا يزيد على ١٠.٠٠٠ مقاتل مسلحين بالأسلحة النارية فكان هو أول من أستعمل الأسلحة في جيش دارفور . وكان اعتماد السلاطين قبله على الحرايب والسيوف والخرق والنشاب والسكاكين .

Shukry, M.F. : Op. Cit., PP. 222 — 224.

(٦)

(٧) شجرة القبلدي : تسمى شجرة البلوباب وهي من أشجار منطقة الحشائش الصغيرة الشوكية بوسط كردفان وتكثر بدار حمر ، وكل أسرة في تلك النواحي تملك عدداً من هذه الأشجار في نطاق عدة أميال ، وهي شجرة جدا ذات أغصان قصيرة منتشرة بعضها أجوف بطبيعته حيث قام الأجداد منذ أمد بقطع الأخشاب من داخل جذوعها لكي يستعملوا خزائن كبيرة يستوعب الواحد منها ألف جالون من مياه الأمطار . ويستفاد من ثمرها الذي يشبه التيمون الجاف باستخدامه كدواء ، ويترك لحاؤها لكي يستخدم في تعريش المنازل . ويتجمع الأهالي حولها ليستمتعوا بظلها الوارفة من شدة الحرارة .

(٨) شوقي الجبل (دكتور) : تاريخ السودان وأدى النيل ج ٢ ص ١٧٧ .

(٩) لم تذكر المراجع تاريخ بدء وانتهاء هذه الحرب باليوم والشهر إنما ذكرت السنة فقط .

(١٠) السلطان إبراهيم : هو أحد السلاطين الفور وكانت مدة حكمه سنة وسبعة شهور وأربعة عشر يوماً . ولما مرض والده السلطان حسين وحلم بشئو أجله أراد أن يطمئن على الملك من بعده ، وبضمته لابنه إبراهيم لأنه كان أحب أبناءه إليه بالرغم من أنه لم يكن تكبرهم . فانتدب اثنين من أمثاله هما الأمين بخيت والأمين خير حرب وحلفهما على المصحف بأن يوليا ابنه إبراهيم بعد وفاته فلما تولى السلطان أخيراً خير موده وأرسلا للأمير إبراهيم فأجلساه على كرسي السطنة وبإيعاز الوزير أحمد شقة وأرسلوا إلى الوزراء وأحداء بعد الآخر فحلفوا له باليمين على الطاعة . وقد اشتهر السلطان إبراهيم بالكرم والشجاعة كآبيه وبغى نافذة الكلية في دارفور إلى أن قتل في بلدة متواشي في ١٤ رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢ أكتوبر سنة ١٨٧٥ م في واقعة دموية شديدة بونه وبين الزبير . وكان في مقله زوال لسلطنة دارفور ودخولها في حوزة الحكومة .

(١١) انظر تفاصيل هذا الموضوع بالفصل الثاني .

Shukry, M.F. : Op. Cit., PP. 224 — 227.

(١٢)

(١٣) عبد الرحمن زكي : أعلام الحبش والبحرية في مصر في القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٣ .

(١٤) الشاطر بصيلي : معالم تاريخ السودان وأدى النيل من القرن العاشر إلى التاسع عشر الميلادى ص ١٥٨

(١٥) محمد الدين الزبير : الزبير يثا رجل السودان ص ٧٥ .

(١٦) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ج ١ ص ٩٣ .

- (١٧) محمود القباني : السودان المصري الإنجليزي من ص ٢١٦ - ٢١٧ .
- (١٨) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٧٥ - ٧٦ .
- (١٩) Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 227.
- (٢٠) ابراهيم فوزي : السودان بين يدى جوردون وكلاشر من ١٢٧ .
- (٢١) انظر الوثيقة رقم (٢٤) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد مكاتبات محبة سنوية من (٧١) مكتبة رقم (١٠) .
- (٢٢) Shukry, M.F. : Op. Cit., PP. 227 - 228.
- (٢٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٧٦ .
- (٢٤) Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 228.
- (٢٥) انظر الوثيقة رقم (٢٥) دفتر رقم (١٧) مسافر عابدين ظفرانات شجرة تركى من ص (١٢/٢٢ ، ١٢/٢٤ ، ١٢/٢٥) ظفراف رقم (١٢٨) .
- (٢٦) الزبير رحمة : (جمعة ياسين حمد محمد) : الأجابة السديدة لى انذار وتهديد أهل المكودة من ص ١٠ - ١٢ .
- (٢٧) الزبير رحمة : (جمعة ياسين حمد محمد) : نفس المرجع من ص ١٢ - ١٥ .
- (٢٨) انظر الوثيقة رقم (٢٦) دفتر رقم (١٧) مسافر عابدين ظفرانات شجرة تركى من ص (١٣/٢٥ ، ١٣/٢٦) ظفراف رقم (١٢٩) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٢٧) دفتر رقم (١٧) مسافر عابدين ظفرانات شجرة تركى من (١٤/٢٧) ظفراف رقم (١٤٢) .
- (٢٩) مكي شبكة (دكتور) : السودان عبر القرون من ١٧٥ .
- (٣٠) انظر الوثيقة رقم (٢٨) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد محبة سنوية مكاتبات من (٧١) مكتبة رقم (١١) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٢٩) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين ظفرانات شجرة مريى من (٨/٧) ظفراف رقم (٣٥) .
- (٣١) انظر الوثيقة رقم (٣٠) دفتر رقم (١٧) مسافر عابدين ظفرانات شجرة مريى من (١٥) ظفراف رقم (٥٥) .
- (٣٢) انظر الوثيقة رقم (٣١) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين ظفرانات شجرة مريى من ص (٦/١١ ، ٦/١٢) ظفراف رقم (٦٥) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٣٢) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين ظفرانات شجرة مريى من ص (٦/١٢ ، ٦/١٢) ظفراف رقم (٦٦) .
- (٣٣) انظر الوثيقة رقم (٣٢) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين ظفرانات شجرة مريى من ص (٧/١٢ ، ٨/١٤) ظفراف رقم ٦٧ .

- (٢٤) انظر الوثيقة رقم (٢٤) دفتر رقم (٢٢) وارد عاجدين ظفرافات سفرة
عربى من (٨/١٤ ، ٨/١٥) ظفراف رقم ٦٨ .
- (٢٥) انظر الوثيقة رقم (٢٥) دفتر رقم (٢٢) وارد عاجدين ظفرافات سفرة
عربى من (٨/١٥) ظفراف رقم (٦٩) .
- (٢٦) انظر الوثيقة رقم (٢٦) دفتر رقم (١٧) صادر ظفرافات سفرة عربى
من (١٦/٣٢) ظفراف رقم (١٧١) .
- (٢٧) انظر الوثيقة رقم (٢٧) دفتر رقم (٢٢) وارد عاجدين ظفرافات سفرة
عربى من (١٨) ظفراف رقم (٩٥) .
- (٢٨) انظر الوثيقة رقم (٢٨) دفتر رقم (١٧) صادر عاجدين ظفرافات سفرة
تركى من (١٩/٣٧ ، ١٩/٣٨ ، ٢٠/٣٩ ، ٢٠/٤٠ ، ٢١/٤١) ظفراف رقم
(٢٠١) .
- (٢٩) انظر الوثيقة رقم (٢٩) دفتر رقم (٢٢) وارد عاجدين ظفرافات سفرة
تركى من (١٦/٢١ ، ١٦/٢٢ ، ١٧/٢٣) ظفراف رقم (١٧٥) .
- (٤٠) انظر الوثيقة رقم (٤٠) دفتر رقم (١٧) صادر عاجدين ظفرافات سفرة
تركى من (٢٢/٤٤ ، ٢٢/٤٣) ظفراف رقم (٢١) .
- (٤١) انظر الوثيقة رقم (٤١) دفتر رقم (١٩٤٨) أوامر عربى من (٥٥/٥٣)
امر رقم (٩٧) .
- (٤٢) انظر الوثيقة رقم (٤٢) دفتر رقم (١٨) صادر عاجدين ظفرافات سفرة
عربى من (٢/٤٧) ظفراف رقم (٩٧) .
- (٤٣) انظر الوثيقة رقم (٤٣) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد محبة مستبة عربى
من (١١٠) مكتبة رقم (٢٨) .
- (٤٤) انظر الوثيقة رقم (٤٤) دفتر رقم (١٨٧٥) قيد الامدادات الواردة الى
المحبة من الخريجات والبعثات والمسيرة من (٩٠) المادة رقم (٢٩) .
- (٤٥) انظر الوثيقة رقم (٤٥) دفتر رقم (١٩٤٨) صادر المحبة عربى من
(٧٣) مكتبة رقم (٢٧) .
- (٤٦) الأوردي - عبارة عن سوية شبه نظامية كان يكونها ملوك الشاهية
للخدمة مع الحكومة المصرية .
- (٤٧) انظر الوثيقة رقم (٤٦) دفتر رقم (١٩٤٨) أوامر عربى من (٧٣) امر
رقم (٢٥) .
- (٤٨) انظر الوثيقة رقم (٤٧) دفتر رقم (٢٤) وارد عاجدين ظفرافات سفرة
عربى من (٢٦٥١) ظفراف رقم (٣٧٤) .

(٤٩) الكلاكة : تقع على مسيرة خمسة أيام من دارفور وتعتبر مركزاً للإدارة في هذا النقيح .

(٥٠) انظر الوثيقة رقم (٤٨) دفتر رقم (٢٤) وارد حابدين ظفرانات سفرة عيسى من من (٤٠/٧٩ ، ٤٠/٨٠) ظفراف رقم (٥٤٥) .

(٥١) انظر الوثيقة رقم (٤٩) دفتر رقم (٢٤) وارد حابدين ظفرانات سفرة عيسى من من (٤٢/٨٤ ، ٤٢/٨٣) ظفراف رقم (٥٧١) .

(٥٢) انظر الوثيقة رقم (٥٠) دفتر رقم (١٨) صادر حابدين ظفرانات سفرة عيسى من من (٢٦/٥٢ ، ٢٧/٥٣) ظفراف رقم (٢٥٧) .

(٥٣) انظر الوثيقة رقم (٥١) دفتر رقم (٢٤) وارد حابدين ظفرانات سفرة عيسى من من (٤٥/٨٩ ، ٤٥/٩٠) ظفراف رقم (٦٠٨) .

(٥٤) انظر الوثيقة رقم (٥٢) دفتر رقم (١٨) صادر حابدين ظفرانات سفرة عيسى من من (٢٨/٥٦ ، ٢٨/٥٧) ظفراف رقم (٢٧١) .

(٥٥) كما وردت بنص الوثيقة رقم (٥٤) ولا يعلم منها هل تنسب جهة معينة بدارفور أو هي تسمية تطلقها التي في مصر أو على الجهات الجنوبية لدارفور .

(٥٦) انظر الوثيقة رقم (٥٣) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد محبة سنية عيسى مكاتبات من (١١٩) مكاتب رقم (٣) مرور .

(٥٧) انظر الوثيقة رقم (٥٤) دفتر رقم (٢٥) وارد حابدين ظفرانات سفرة تركي من من (٢٨/٥٦ ، ٢٩/٥٧) ظفراف رقم (٤٤٥) .

(٥٨) انظر الوثيقة رقم (٥٦) دفتر رقم (١٩) صادر حابدين ظفرانات سفرة تركي من (١٢/٢٣) ظفراف رقم (١٥٠) .

(٥٩) انظر الوثيقة رقم (٥٦) دفتر رقم (٢٥) وارد حابدين ظفرانات سفرة عيسى من من (٣٦/٧٢ ، ٣٧/٧٣) ظفراف رقم (٥٦٨) .

(٦٠) انظر الوثيقة رقم (٥٧) دفتر رقم (١٩) صادر حابدين ظفرانات سفرة عيسى من (٢٠/٣٩) ظفراف رقم (٢٥٤) .

(٦١) انظر الوثيقة رقم (٥٨) دفتر رقم (١٩) صادر حابدين ظفرانات سفرة عيسى من (٢٠/٤٠) ظفراف رقم (٢٥٧) .

(٦٢) انظر الوثيقة رقم (٥٩) دوسيه رقم (٣) ملف رقم (٥) مسلسل الوثيقة (بدون) .

(٦٣) مكي شبكة (دكتور) : السودان في قرن من سنة ١٨١٩ — ١٩١٩ من ٩٠ .

- (٦٤) انظر الوثيقة رقم (٦٠) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين ظفرافات عيسى
شجرة من من (٢/٦ ، ٤/٧) ظفراف رقم (٢٦) .
- (٦٥) انظر الوثيقة رقم (٦١) دفتر رقم (٢٠) صادر عابدين ظفرافات
شجرة عيسى من من (٤٧/٦٣ ، ٤٧/٦٤ ، ٤٨/٦٥) ظفراف رقم (٥٦٧) وكذلك انظر
الوثيقة رقم (٦٢) حوسيه رقم (٣) ملف رقم (١) وثيقة رقم (٧) .
- (٦٦) انظر الوثيقة رقم (٦٣) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين ظفرافات من
(٦/٥) ظفراف رقم (٧٦) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٦٤) دفتر دفتر رقم (٢٨)
وارد عابدين ظفرافات شجرة عيسى من من (٣٠/٦٠ ، ٣١/٦١) ظفراف رقم (٢٩٣)
وكذلك الوثيقة رقم (٦٥) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين ظفرافات شجرة عيسى من من
(٣٥/٧٠ ، ٣٥/٦٩) ظفراف رقم (٤٥٢) .
- (٦٧) انظر الوثيقة رقم (٦٦) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين ظفرافات شجرة
عيسى من من (١٦/٣١ ، ١٦/٣٢) ظفراف رقم (٢٣٧) .
- (٦٨) محمد غوان شكري (فتكور) : مصر والسودان تاريخ وحدة وادي
النيل السياسية في القرن التاسع عشر ١٨٣٠ - ١٨٩٩ م من ١٢٩ .
- (٦٩) دارا : وهي ثمانية المدن من حيث الاهمية بعد القاهرة وبها استحكام
متبع جرى بها معارك عديدة بين الزبير والسلطان .
- (٧٠) البرقة : وهي احدى القبائل بدارفور في ذلك العهد . مركزهم جبل
مسكر بين جبل حريزة وجبل مرة قبل ان حذهم الى الان صنها بمبذولة سرا .
ومنهم لمسيطة تعرف بباب ورق تحريت ونسيطة لفتها .
- (٧١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من من ٧٧ - ٧٨ .
- (٧٢) الزبير رحمة : (جمعة ياسين حمد محمد) : المرجع السابق من من
١٩ - ٢٢ .
- (٧٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من من ٧٨ .
- (٧٤) الزبير رحمة : (جمعة ياسين حمد محمد) : المرجع السابق من من
١٧ - ١٨ .
- (٧٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من من (٧٨ - ٧٩) .
- (٧٦) سعد الدين الزبير : نفس المرجع من من (٧٩ - ٨٠) .
- (٧٧) سعد الدين الزبير نفس المرجع من من ٨١ .
- (٧٨) انظر الوثيقة رقم (٦٧) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين ظفرافات شجرة
عيسى من (٤) ظفراف رقم (٢٥) .

(٧٩) جبل مرة : يقع وسط دارفور وهو جبل مرتفع حصين طوله من الشمال إلى الجنوب نحو مائة ميل وعرضه من الشرق إلى الغرب ستون ميلاً وارتفاع أعلى قمة له وخمسة مائة قدم من سطح الأرض المجاورة له ، ونحو ستة آلاف قدم من سطح البحر ، وهو وافر الخصوبة وبه ينابيع كثيرة والكثير من أشجار الفاكهة والحبوب وغيرها من حاصلات المنطقة مما ليس في غيره من أعمال دارفور ومن أشهر قومه جبل طرا ، الذي كان مركز سلاطين دارفور قبل انتقالهم إلى مدينة الفاشر وفيه مدفن خالص لسلاطين دارفور وأبنائهم وجامع كبير قديم نسبياً .

(٨٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٨١ — ٨٢ .

(٨١) Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 281.

(٨٢) بكى شبكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٩٠ .

(٨٣) مير طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء من فتحها إلى ضمها

سنة ١٨٦٦ — ١٨٨٩ م ج ١ ص ٢٢٤ .

(٨٤) أم شتة : وهي في طريق القوافل الآتية من كردفان ودنقلة وتقع على

مسيرة سعة أيام من العاصمة الفاشر .

(٨٥) انظر الوثيقة رقم (٦٨) دفتر رقم (٢٧) وارد عابدين ظفرانات شفرة

عربى من ص (٢٢/٤٤ ، ٢٣/٤٥) ظفراف رقم (٣٠٦) .

(٨٦) عرب حمر : يقيمون غرب كردفان ومن مراكزهم أبو حراز والنهود

ولم يلاهم بكثرة شجر التلدي وهم يخلون فيه المياه ويبيعونها لقوافل المسافرين

من التجار وغيرهم بين كردفان ودارفور .

(٨٧) انظر الوثيقة رقم (٩٦) دفتر رقم (٢٧) وارد عابدين ظفرانات شفرة

عربى من ص (٣٥/٧٠ ، ٣٦/٧١) ظفراف رقم (٤٦٢) وكذلك انظر الوثيقة رقم

(١) دفتر رقم (٢٧) وارد عابدين ظفرانات شفرة عربى من (٩٧) ظفراف رقم

(٤٢٨) .

(٨٨) انظر الوثيقة رقم (٦٢) .

(٨٩) انظر الوثيقة رقم (٧١) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين ظفرانات شفرة

عربى من ص (٤/٧ ، ٤/٨) ظفراف رقم (٣٢) .

(٩٠) انظر الوثيقة رقم (٧٢) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين ظفرانات شفرة

عربى من ص (١١/٢٢ ، ١١/٢٣) ظفراف رقم (١٣١) .

(٩١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٨٦ — ٨٧ .

(٩٢) Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 229.

- (٩٣) انظر الوثيقة رقم (٧٣) دفتر رقم (٢٨) وارد مابدين تلغرافات عربي
من ص (٢/٢ ، ٢/٤) ظفراف رقم (٢٤) .
- (٩٤) مكي شبكة (ذكور : المرجع السابق ص ٩٠ .
- (٩٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٨٧ .
- (٩٦) منواشي : تقع على مسيرة يومين الى الجنوب الشرقي من القاهر
وهي بعد بلدة كوي في احيائها التجارية وقد اشتهرت الواقعة التي حدثت بين الزبير
والسلطان ابراهيم .
- (٩٧) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٨٤ — ٨٦ .
- Hill, Richard : Egypt in The Sudan 1820 — 1881 (٩٨)
P. 187.
- (٩٩) انظر الوثيقة رقم (٧٤) دفتر رقم (٢٨) وارد تلغرافات مابدين سفرة
عربي من ص (١١/٢٢ ، ١٢/٢٥) ظفراف رقم (١٢٤) .
- (١٠٠) القاهر : وهي بلدة متصلة قلعة على طين عظيمين بعلوان ٢٢٥٠
قما من سطح البحر ويخترقها خورتنلتي . أسسها السلطان هيد الرحمن الذي
تولى حرس دارفور وجعلها عاصمة ملكه عمارت كرسى السلطنة في دارفور
اليوم .
- (١٠١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٨٦ — ٨٧ .
- Gray, Richard : A history of the Sothern Sudan (١٠٢)
1889 — 1889 P. 122.
- (١٠٣) انظر الوثيقة رقم (٧٥) دفتر رقم (٥) معية سفرة عربي وارد اعدادات
من (٢٣) مكتبة رقم (٥) مرور .
- (١٠٤) نعوم شكير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج (٣)
من ٨١ .
- (١٠٥) انظر الوثيقة رقم (٧٦) دفتر رقم (٢٨) وارد مابدين تلغرافات سفرة
عربي من ص (٢٤/٤٨ ، ٢٥/٤٩) ظفراف رقم (٣٢٢) .
- (١٠٦) انظر الوثيقة رقم (٧٧) دفتر رقم (٢٨) وارد مابدين تلغرافات سفرة
عربي من ص (٣٩/٧٨ ، ٤٠/٧٩) ظفراف رقم (٥١٦) .
- Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 722. (١٠٧)
- (١٠٨) النيم : معناها الاميرة وهو لقب من القاب سيدات العائلة الملكية
بدارفور .

- (١٠٩) عموم شقير : المرجع السابق ج ٢ من ٨١ .
- (١١٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص (٩٠/٨٩) .
- (١١١) انظر الوثيقة رقم (٧٨) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات شقرة عيسى من ص (٣٧/٧٤ ، ٣٨/٧٥) ظفرامات رقم (٢٥) .
- (١١٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٩٠ .
- (١١٣) انظر الوثيقة رقم (٧٩) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين ظفرامات شقرة عيسى من ص (٨٤/٨٧) ظفرامات رقم (٦٠٥) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٨٠) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات شقرة عيسى من ص (٤٨/٩٦ ، ٤٨/٩٥) ظفرامات رقم (٦٨٨) وانظر ايضا الوثيقة رقم (٨١) دفتر رقم (٧١) صادر عابدين ظفرامات شقرة عيسى من ص (٩٦) ظفرامات رقم (٧٠٦) . وانظر كذلك الوثيقة رقم (٨٢) دفتر رقم (٣١) وارد عابدين ظفرامات شقرة عيسى من ص (٢٣/٤٦) ظفرامات رقم (٢٦٧) .
- (١١٤) Shukry, M.F. Op. Cit., p. 232.
- (١١٥) محمد بن عمر التونسي : تشييد الازهار بسوسة بلاد المغرب والمسودان من ٣٩٧ .
- (١١٦) عموم شقير : المرجع السابق من ص ٨١ - ٨٢ .
- (١١٧) ككبكية : تقع بين كلكل والفاشر وقد كانت مركز الادارة قبل كلكل .
- (١١٨) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٩٠ - ٩١ .
- (١١٩) انظر الوثيقة رقم (٨٣) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين ظفرامات شقرة عيسى من ص (١٦/٢٢ ، ١٧/٢٣ ، ١٧/٢٤) ظفرامات رقم (٢٣٨) وكذلك انظر ايضا الوثيقة رقم (٨٤) دفتر رقم (٢٩) وارد ظفرامات عابدين شقرة عيسى من ص (٢٨/٥٥ ، ٢٨/٥٦ ، ٢٩/٥٧) ظفرامات رقم (٤١٣) .
- (١٢٠) مكي شبيكة (مكتور) : المرجع السابق من ص ٩٢ .
- (١٢١) فيلارناتمة : وهي منطقة يسكنها قبائل نامة وهم مجاورون لقبائل القبر من جهة الغرب .
- (١٢٢) المساليت : وهم مجاورون لقبائل القبر من جهة الجنوب .
- (١٢٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٩٠ ، ٩١ .
- (١٢٤) انظر الوثيقة رقم (٨٥) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين ظفرامات شقرة عيسى من ص (٣٤/٦٨) ظفرامات رقم (٤٤٩) .
- (١٢٥) انظر الوثيقة رقم (٨٦) محفظة رقم (٥١) محبة سنية تركي وثيقة رقم (٣٧٧) قصيرات .

(١٢٦) انظر الوثيقة رقم (٨٧) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين ظفرامات شجرة
عربى من (٩/١٨) ظفراف رقم (١٤٣) .

(١٢٧) انظر الوثيقة رقم (٨٨) دفتر رقم (٢) أوامر عربية من (٤٤) امر
رقم (٧٥) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٨٩) دفتر بدون نمرة محمية من (٥٠) ظفراف
رقم (١) .

(١٢٨) مكى شببكة (دكتور) : المرجع السابق من ٩٢ - ٩٣ وكذلك
الوثيقة رقم (٩٠) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات شجرة تركى من
(١٤/٢٨ ، ١٥/٢٩ ، ١٥/٣٠) ظفراف رقم (٢٣١) وانظر كذلك الوثيقة رقم (٩١)
دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات شجرة تركى من (٢٦/٥٢) ظفراف رقم (٤١٠)
وكذلك انظر ايضا الوثيقة رقم (٩٢) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات شجرة
تركى من من (٢٧/٥٣) ظفراف رقم (٤١١) وكذلك انظر ايضا الوثيقة رقم (٩٣)
دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات شجرة عربى من من (٢٧/٥٤ ، ٢٧/٥٤ ،
٢٨/٥٥) ظفراف رقم (٤١٢) .

(١٢٩) انظر الوثيقة رقم (٩٤) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات شجرة
عربى من (٣١/٦١) ظفراف رقم (٤١٥) .

(١٣٠) انظر الوثيقة رقم (٩٥) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات شجرة
عربى من (٣٠/٦٢) ظفراف رقم (٤١٦) .

(١٣١) انظر الوثيقة رقم (٩٦) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات شجرة
عربى من من (٣١/٦٢ ، ٣٢/٦٣) ظفراف رقم (٤١٨) .

(١٣٢) انظر الوثيقة رقم (٩٧) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين ظفرامات شجرة
تركى من (٤٢/٨٣) ظفراف رقم (٦٢٤) .

(١٣٣) مكى شببكة (دكتور) : المرجع السابق من ٩٤ - ٩٥ وكذلك
انظر الوثيقة رقم (٩٨) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين ظفرامات شجرة تركى من
(٤٦/٩٢ ، ٤٧/٩٣ ، ٤٧/٩٤ ، ٤٨/٩٥) ظفراف رقم (٦٩١) وكذلك انظر الوثيقة
رقم (٩٩) دفتر رقم (٣٠) وارد عابدين ظفرامات شجرة عربى من من (٩/١٨ ، ١٩/
١٠ ، ١٠/٢٠) ظفراف رقم (٤١٦) .

(١٣٤) مكى شببكة (دكتور) : المرجع السابق من ٩٥ - ٩٦ .

(١٣٥) محمد أحمد الجببارى : من شأن الله وتاريخ السودان كما يرويه
أهله من ١١٥ ، محمد الدين الزبير : المرجع السابق من ٢٧ .

(١٣٦) أنظر الوثيقة رقم (١٠٠) دفتر رقم (٢٢١) وابدع عابدين طغرافات
 مسرة مري من (٢٠/٤١) طغراف رقم (٢٢٧) .
 (١٣٧) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق من ٩٦ - ٩٧ .
 (١٣٨) أنظر الوثيقة رقم (١٠١) دفتر رقم (٢٩) وابدع عابدين طغرافات
 مسرة مري من (٢٩/٧٣) طغراف رقم (٢٩٥) وكذلك الوثيقة رقم (١٠٢) دفتر
 رقم (٢٦) صادر طغرافات عابدين مسرة تركي طغراف رقم (٢٢٩) وكذلك أنظر
 أيضا الوثيقة رقم (١٠٣) دفتر رقم (٢٦) صادر عابدين طغرافات من (بدون)
 طغراف رقم (٢٣٠) .

(١٣٩) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق من ٩٧ .
 (١٤٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ٩٨ .
 (١٤١) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ج ١ من ٩٤ .
 (١٤٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ٩٨ .
 (١٤٣) Duncan, J.S.F. : The Sudan A Record of a .
 achievement P. 18.

(١٤٤) غرار صالح غرار : تاريخ السودان الحديث من ٨٤ .



الفصل الرابع

الزبير وجوردون

١٩٣

(م ١٣ - الزبير باشا)

الزبير وجوردون

سافر الزبير الى مصر ليعرض قضيته على الخديو بعد ان ترك ابنه سليمان يدير أماله ومصالحه في السودان . وفى ١٠ يونيو سنة ١٨٧٥ م الموافق ٦ جمادى الأول سنة ١٢٩٢ هـ وصل الزبير الى مصر حيث استقبل هناك استقبالا حافلا وكلما أراد العودة الى بلاده استبقى في مصر بأعذار مختلفة حتى سنة ١٨٧٧ م الموافق سنة ١٢٩٤ م (١) وفى هذه السنة كان جوردون قد عاد بعد زيارة قصيرة لانتجلترا الى السودان كحاكم عام يتمتع بكافة الامتيازات والسلطات ، وساعده حظه ان الزبير قد أخطأ بزيارته القاهرة (٢) . ومن أجل تقوية واطسلاق يد جوردون فانه تم وضع الزبير في منزل الضيافة ورصدت الحكومة كل حركة من حركاته (٣) حيث رفضت الحكومة المصرية السماح لضيفها المخلص بالعودة الى بلاده التي حقق فيها انتصاراته وفتوحه (٤) .

الدور الذى لعبه الزبير في الحرب الروسية التركية :

(سنة ١٨٧٧ م — سنة ١٢٩٤ هـ) :

اندلعت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية في سنة ١٨٧٧ م ، وعين ضمن ضباط الحملة التي عهد اليها الامير حسن

باشا بأمر قيادتها . وأسند إلى الزبير قيادة وحدة خاصة من الجيش مكونة من أربعة آلاف رجل . وقد أبقى الزبير باشا بفرقته بلاء حسنا في هذه الحرب وكان بفرقته دوما في طليعة المهاجمين وكثيرا ما أوقعت الهزيمة في صفوف الجيوش الروسية (٦) .

ولما نشبت معركة مدينة صاري (٧) ظهرت بطونة ودوة شسكيته في القتال وقد كاد الزبير أن يفقد حياته مرتين في ذلك اليوم . وقد انتهت المعركة بانتصار الجيش العثماني . وقد أثنى عليه الأمير حسن باشا وقال له وهو يشد على يده مصاحبا « لم أكن أصدق كل ما كان يقال من شجاعتك ودهائك في القتال في ربوع السودان ، ولكنني بعد أن رأيتك بالأمس وأنت كلما سقط من تحتك جواد تستبدل به غيره ثم تمضي متقدما الصفوف . آمنت بأن ما يقال عنك إنما هو في الواقع شيء قليل بالقياس لما أنت عليه » (٨) .

سأمت حالة الزبير الصحية بعد ذلك ووقع عريضة للمرض وراى القيادة أعفاه من التقدم فأرسل في حراسة نصيلة من الأتراك إلى الأستانة حيث أنزلوه في أحد المستشفيات للعلاج ، وبعد أن تماثل للشفاء دعى لمقابلة السلطان عبد الحميد ، وكان قد وصله أخبار حسن بلالته في معركة صاري نصوحا ، فرحب به وأنعم عليه برتبة الفريق الرفيعة وبالنيشان العثماني الثالث ثم سأله عن أحواله وعما قام به في السودان ، ثم أمر بإوره بلاسهر على راحته مدة إقامته بالأستانة حيث أقام في أحد القصور المطلة على البسفور وبعد تمام شفائه عاد إلى القاهرة ، فعاد الخديو تهنئته ثم نزل في قصر الجيزة (٩) .

وقد قيل أن الزبير حاول التسييس ضد مصر والخديو لدى بعض الشخصيات البارزة في القسطنطينية ولكنه لم ينجح وذلك

فى أثناء اقامته فيها (١٠) . وهذا ما لم تثبته المصادر التاريخية .
اذ كيف يصدر كل هذا من رجل استقبلته القاهرة احسن
استقبال ووفرت له اسباب العيش الكريم ، وأنعمت عليه
ومن معه بالرتب والنياشين يضاف الى ذلك أنها وثقت به ووكلت
اليه قيادة احدى فرقها المشتركة فى الحملة التى أرسلتها لمساعدة
الدولة العثمانية . كما ان الفترة التى قضاها الزبير فى القسطنطينية
كان فيها طريق الفرائض نتيجة ما أصابه بسبب ما بذله من جهد أثناء
الحرب ، فكيف بعد كل هذا يحاول الدسيسة ضد الخديو ورجاله
لدى القسطنطينية ؟ ثم ما هى الفائدة التى سوف تعود عيله من
جاء قيامة بهذا العمل ؟ (١١) .

وهكذا يواصل الحانتون على الزبير الوشاية به حتى بعد أن
تم إبعاده عن السودان وتخليه كلياً عن جميع مصالحه وأملكه من
مشارع وتجارة وخلافه . ولكن الزبير بشخصيته وصبره
استطاع أن يرد كيد هؤلاء دون أن يظفروا بأية نتيجة من وراء
وشاياتهم .

ثورة سليمان الزبير ومقتله على يد جيسى :

(سنة ١٨٧٩ م - سنة ١٢٩٦ هـ)

عاد الزبير الى مصر من الأستانة بعد انتهاء مهمته التى كلف
بها ضمن الحملة المصرية فى الحرب الروسية التركية . وكان يبنى
نفسه بالعودة الى بلاده ، ولكنه لم ينجح فى ذلك للمرة الثانية . وفى
سنة ١٨٧٩ م الموافق سنة ١٢٩٦ هـ وانما خبر مصرع ابنه سليمان
على يد روملو جيسى بأوامر من جوردون متهما إياه بالتمرد والعصيان
وكان سليمان من أحب أبنائه اليه وأقربهم الى نفسه وأيقن الزبير
أنه أصبح الأسير الذى لا ينفك أسره وأنه سيبقى هبيس القاهرة
لأجل غير معلوم (١٢) .

وكان سليمان بعد أن غادر أبوه السودان في طريقه إلى مصر ، قد خرج على رأس أربعة آلاف مقاتل متجها إلى شكا ، فأتاهم بها إلى أن حضر جوردون إلى دارفور ، فأرسل إليه أمرا بمقابلته مع جيشه في دارفور ، فصدع سليمان للأمر واجتمع بجوردون في أغسطس سنة ١٨٧٧ م الموافق شعبان سنة ١٢٩٤ هـ ، وقد أتهم السعيد بك حسين (١٣) جوردون بأن سليمان ينوي القيام بالثورة ضد الحكومة انتقاما لأسر الحكومة لأبيه ، وكان جوردون قد عين السعيد بك حسين هذا مديرا على شكا ، بعد ذلك رأى جوردون أن من الأسلم تقريق جيش سليمان بأصدر أوامره بذلك لسليمان ، فصدع لها . وقد زاره جوردون في شهر سبتمبر من نفس العام وطيب خاطره وأنعم عليه بالرتبة الثانية مع لقب بك ، وجعله مديرا على بحر الغزال ، ولكنه لم يلبث أن عزله وحبس مكانه أديس أبتر (١٤) الذي وصف سليمان لدى جوردون ، بأنه يعمل على الاستقلال ببحر الغزال ، فأرسل جوردون إبراهيم فوزي باشا (١٥) للتحقيق معه في هذا الأمر ، وأدين أديس أبتر في هذا التحقيق وزج به جوردون في سجن الخرطوم جزاء له على إثارة الفتنة في إقليم بحر الغزال (١٦) .

بدأت ثورة سليمان الزبير تأخذ مسورتها الجديدة ، نتيجة الوشائيات والمكائد التي حيكت ضده من جانب كل من السعيد بك حسين وأديس أبتر دون مبرر لذلك وكان ذلك في سنة ١٨٧٨ هـ الموافق سنة ١٢٩٥ هـ ، فهاجم سليمان على رأس قواته زربية ديم أديس وقام بذبح جميع أفراد الحامية بها ، واستولى على ما في المخازن الحكومية من مدافع وأسلحة وذخائر ، كما أنه نزع سلاح جميع الأهالي ، ثم أخضع بعد ذلك جميع إقليم بحر الغزال الواسعة بنفوذه وسيطرته ، وأعلن استقلاله ، فأرسل له جوردون أحد قواده ، وهو رومولو جسي الإيطالي بعد أن عينه مديرا على

بحر الغزال بدلا من سليمان ، على رأس حملة توأما سبعة آلاء وخمسمائة رجل (١٧) ، وقد استطاعت هذه الحملة أن تشتت شمل قوات سليمان في كل من بحر الغزال ودارفور .

بلغ الزبير نيا مصيان ابنه عن طريق أحد اتباعه في السودان ، فكتب اليه رسالة بنصحه فيها بالرجوع من مصيان الحكومة ، والدخول في طاعتها والامثال لأوامرها لأنه يخشى مغبة غضبها عليه وأنه لا قبل له بمحاربتها ، وأنه ان يمثل لأوامر جوردون فقد آمن على نفسه وقواته (١٨) .

كذلك كتب جسي لسليمان كتابا لنفس الهدف معطيا له الأمان على حياته أن هو سلم نفسه ورجاله ، ولكن رابع الزبير لم يلق بكلام جسي وانسحب مع بقية الجند الى جهة الغرب حتى وصلوا الى بحيرة تشاد ، وبالرغم من الوعد الذي أعطاه جسي لسليمان بالحفاظ على حياته هو ورجاله فان جسي لم يف بما وعده (١٩) .

وفي ١٤ يوليو ١٨٧٩ م الموافق ٦ شعبان سنة ١٢٤٧ هـ توجه سليمان وبه امانية من أقاربه لتسليم أنفسهم لجسي ، فلم يلبث ان دعاهم جسي في اليوم التالي لتسليمهم ليأشربوا معه أقذاح القهوة في خيمته ، بعدها كان مصيرهم الاعدام رميا بالرصاص ، وبعد مدة أقبل قناوى بك أبو عمورى وهو صديق قديم للزبير ، فقام بتكفيتهم وأوراهم قبرا صغيرا (٢٠) .

وكتب جسي لجوردون بعد ذلك يقول « لقد اضطررت لقتل سليمان الزبير بعد تسليمه لأنه حاول أن يؤلب على رجالى وأن يثير الفتنة في صفوف الجيش (٢١) » .

ويقال ان الحكومة المصرية أبرقت لجوردون لكى يرسل سليمان الى القاهرة ، ولكن جوردون علق على ذلك بقوله : « سامنح جسي

الف عليه اذا نجح في القبض على ابن الزبير وآمل ان يشنقه لانه
لو ارسل الى القاهرة لرحبوا به « (٢٢) » .

الاحداث التي اعقبت مقتل سليمان بن الزبير :

تعرض الزبير وهو في مصر لحملة ضارية من
الافتراءات من جانب جوردون واتهامه بعد مصرع ابنه سليمان ،
رغم انه تسلايه لجسى طبقا لاوامر الحكومة وجوردون ، ونصيحة
والده له . وكان الهدف من هذه الحملة هو الصاق تهمة تحريض
الزبير لابنه على الثورة بحجة احتجازه في القاهرة ، وزعزعة
مكانته لدى الخديو اسماعيل باشا ، ومصادرة امواله
وممتلكاته في السودان ، وتجريده من كافة الامتيازات التي كان
يتمتع بها هو وحاشيته في مصر ، والقضاء على كل اثر له او
نفوذ في بلاد السودان . ولم يكتفوا بذلك بل انهم عملوا على محو
تاريخ الزبير واماله المجيدة في بلاده . قام جوردون بمصادرة
اموال الزبير في السودان محتجا بأنه كتب الى ابنه سليمان من
مصر يحرضه على الثورة . وفي الواقع لا توجد وثيقة تثبت ما
قاله جوردون ، ولكن العكس هو الصحيح وهو وجود ما يثبت
قيام الزبير بتوجيه النصيح والارشاد لابنه بالاستسلام
للحكومة واطاعة اوامرها وذلك في رسالة بعث له بها .
وسوف تثبت الاحداث فيما بعد مسند هذه الحقيقة حينما
تقابل الزبير مع جوردون بالقاهرة ، وطالبه امام الحاضرين بأن
يظهر لهم الرسالة التي ادعى ككبا ان الزبير ارسلها لابنه سليمان ،
فلم يستطع جوردون الاجابة على سؤال الزبير بل التزم الصمت ،
ويكفي للدلالة على براءة الزبير من هذه التهمة الموجهة له ما
ذكرناه من حقائق مضلها اليها الاتي :

أولاً : كيف يقوم الزبير بتحريض ابنه على الثورة وهو يعلم جيداً النتائج المترتبة على هذا العصيان الذى سوف ينتهى بالقضاء عليه من قبل قوات الحكومة ؟

ثانياً : كيف يقوم الزبير بتحريض ابنه على الثورة وهو يعلم أن معظم أتباعه قد تخلوا عن تأييده بل يزيد على ذلك أنهم أصبحوا أعداء له يهيكون له المكائد والوشايات لدى جوردون وجسى من أمثال ادريس ابتر والسعيد بك حسين ؟

ثالثاً : هل من مصلحة الزبير وهو فى القاهرة أن يقوم بتحريض ابنه سليمان على الثورة ضد الحكومة ، دون أن يدرك نتائج هذا التحريض وغضب الحكومة عليه وما يترتب على ذلك من أنزال أشد العقوبة به وبذويه فى مصر والسودان ، ومصادرة ما بقى له من ممتلكات وأموال ؟

رابعاً : كيف تبادر إلى ذهن جوردون قيام الزبير بهذا العمل بعد أن فتحت له حكومة الخديو صدرها ورحبت به وبأتباعه وعملت على تلبية جميع طلباته وأنزلته منزل الراحة ، ووثقت به وولت إليه قيادة إحدى فرقها المشتركة فى الحرب الروسية التركية ، واتعم السultan العثماني عليه بالترتب والنياشين لحسن بلائه فى الحرب ، فهل تكون النهاية أن يخون هذا الرجل الحكومة بعد كل ما قدمته له والاجابة المنطقية والحقيقية هى التى ينطق بها التاريخ وتظل عليها الوثائق .

وتتسع دائرة المؤامرة التى حاكها جوردون وأتباعه ضد الزبير وابن سليمان ، فنراه بعد أن صادر أموال الزبير فى السودان يحشج بأن الزبير قد كتب لابنه سليمان من مصر يحرضه على الثورة لأن الحكومة قد احتجزته فى القاهرة ، وبهذا المعنى أرسل برقية إلى الخديو يخبره فيها بأنه بعد ما تأكد من عصيان ابن

الزبير ومهاجمته لمديرية بحر الغزال وقيامه بالاستيلاء على أسلحة الميرى وقتل الأفراد ، فإنه بناء على هذه الوقائع يطلب صدور الأمر بالقبض على الزبير ووضعها في الحديد ، وحفظ جميع نقوده وأمتعته وهي زيادة عن خمسة آلاف جنيه مع الأذن لجوردون نفسه ببيع جميع أمتعته الموجودة بالسودان وتوريد ثمنها للحكومة ، كذلك القبض على مائلته وأقاربه ووضعهم في السجن (٢٣) .

وقد احتج الزبير على هذا الأمر ، فكان رد الخديو على تلغرافه جوردون « ألا يؤخذ الأب بجناية الابن » (٢٤) .

وقد أخطأ جوردون حين أشسخت في العقوبات التي وقعها على النساء والأطفال من أهل الزبير دون سبب لذلك . وعلى العكس فقد أتى جوردون بحكم بربري في وقت جاء فيه لينهى الأحكام البربرية وذلك من خلال ملاقته بالزبير وابنه سليمان وفي هذه الفترة كانت آراؤه عنهم صدى لأقوال الواشين ، ولم يتحقق من صدق ما قيل أو كذبه . ومع أن جوردون نجح في عدم تمكين سليمان من الاتحاد مع هارون كما كان يتوقع فإنه بطريق غير مباشر جمع بين رغبة أعوانهما في القضاء على الحكم القائم في البلاد ، وترك قبائل غرب السودان وأبناء الجلالة الذين نزحوا من النيل بغرض التجارة هناك متفقين على كراهية الحكومة والسعي لاستقاطها متى توافرت لهم الوسائل وتهيات الأسباب (٢٥) .

رفض الزبير بانسا الاشتراك في حملة سواكن (٢٦) :

انجبت الانظار الى الزبير وتردد اسمه بين الحين والحين عقب الثورة التي قام بها محمد أحمد المهدي ، والتي انتهت باستيلائه هو وأتباعه على مقاليد الحكم في السودان ومصرع جوردون على يد أنصاره بالخرطوم .

وفي سنة ١٨٨٣ م الموافق سنة ١٣٠١ هـ قررت الحكومة المصرية بعد هزيمة حملة الجنرال هيكس ، إرسال قوات من بلوكات النظام بقيادة سار توريوس باشا الى سواكن ، وقوات من السودانيين بقيادة الزبير ، على أن توضع القوتان تحت قيادة الجنرال بيكر ، أرضاء للحكومة الانجليزية ، وكان هدف الحملة تخليص سواكن من يد عثمان ذقنة (٢٧) ، وفتح الطريق ما بين سواكن وبربر ثم ما بين بربر والخرطوم . وقد فتش الخسديو شخصيا القوات السودانية قبل سفرها ، ولكنها سافرت وحدها دون أن يصحبها الزبير . وكان رجال تلك القوة قد طلبوا بدفع مرتباتهم قبل سفرهم ، فقام الزبير بطلب مبلغ ٦٠٠٠ جنيه لصرف مرتبات رجاله ، لتهمة وزارة الحربية بعدم اطاعة الاوامر وامرته بالسفر فوراً (٢٨) .

وكان الاتجاه ان يصحب الزبير باشا هذا الاي وبعلا توجه الى السويس للابحار منها غير أنه علم قبل قيام الحملة بأنه سيكون تحت قيادة بيكر باشا ، فابى هذا واشترط لاستراكه في الحملة أن يذهب مستقلاً في قيادته دون الخضوع لاية أوامر غير التي تصدر له من القاهرة مباشرة ، ولما رفضت الحكومة طلبه هذا تخلف وقفل عائداً الى القاهرة . وأن كان كرومر قد أشار الى أن العدول عن إرسال الزبير باشا الى سواكن كان استجابة لضغط الجمعية التي انشئت لمقاومة تجارة الرقيق على الحكومة الانجليزية (٢٩) . وليس لرفض الزبير كما ذكر .

وبناء على طلب الحكومة المصرية قام اللورد كرومر بمخاطبة الحكومة الانجليزية في رسالة بعث بها في ٩ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م الموافق ٨ صفر سنة ١٣٠١ هـ أوضح فيها ما يأتي :

أولاً : رغبة الحكومة المصرية في إرسال الزبير باشا الى سواكن مع الحملة لعلها بقدرته على قيادة فصائل البدو السودانية

المرسلة الى سواكن ، وتيامه بمقاومة القبائل القاطنة على طريق سواكن بربر وبقية الجهات الاخرى ، وحاجة بيكر باشا الى مثل هذه الخدمة .

ثانيا : نتيجة لتحمل الحكومة المصرية وحدها تبعات تطورات الموقف في السودان ، فليس من الانصاف ان تعرض الحكومة الانجليزية على طلب الحكومة المصرية بندب الزبير الى هذه المهمة رغم ما يحيط بشخصية الزبير لديها بالكثير من الأخطاء (٣٠) .

وقد تلقى اللورد جرانفيل هذه الرسالة فلم ينجح كل ما جاء فيها من الحجج في اقناعه بالموافقة على اقتراح الحكومة المصرية باشتراك الزبير في الحملة . وقد وصلت مسر سارنثوريوس (٣١) نتائج عدم اشتراك الزبير نتيجة عدم موافقة الحكومة الانجليزية بقولها : « وجاء عدم اشتراك الزبير باشا في الحملة ضربة جديدة قاصمة قضت عليها بالفشل مذ اللحظة الاولى ، فقد كان السود من الجند في حاجة ان يتولى تياتهم طبقا لطريقتهم الخاصة في الحرب اذ لم يكن لديهم اى فكرة عن التدريب وقواعد التنظيم ، وكان الوقت ضيقا بحيث لا يسمح باعادة وضعهم في تشكيلات منظمة . ولو وجد الزبير باشا على رأسهم لاستطاع بهم القيام بمجهود رائع ضد السودانيين ولحاربهم بنفس الطريقة التي يتبعونها اما بدونهم فقد بدت هذه القوات السودانية ضساعة مهددة » (٣٢) .

وكانت التعليمات المعطاة للجنرال بيكر تحرم عليه القيساس بعمليات حربية ، ولكنه خرج من ترنكتات (٣٣) في يوم ٤ فبراير سنة ١٨٨٣ م على رأس جيش ثوامه ٣٦٠٠ جندي ومعه ستة مدافع . وكان جنوده غير مدربين ، واستخدم تشكيلات لا تتماشى مع طبيعة الارض ، وانتهى الامر بهزيمة نكراء ، فقد لبها معظم

رجاله وأسلحته ، خصوصا أن معظم المصريين قد رضوا إطاعة الأوامر لاطلاق النيران على السودانيين ، بل لقد انضم عدد منهم إلى قوات الثوار في أثناء المعركة نفسها . وعاد بيكر إلى سواكن ليجدها بحالة من الثورة العارمة ، وكان ذلك بسبب وجود القوات السودانية ولذلك فإن الإمبرالية أمرت بانزال فرق من مشاة الاسطول في سواكن ، وعملت على إرسال بعض الوحدات المصرية إلى السويس ، والوحدات السودانية إلى مصوع . ثم اجتمع مجلس الوزراء البريطاني وقرر إرسال قوات بريطانية إلى البحر الأحمر وذلك لانتقاذ طوكر . وصدرت الأوامر برقيا إلى القائد العام لقوات الاحتلال البريطانية في مصر بإرسال قوات للدفاع عن سواكن ، تحت قيادة الجنرال جراهام . وقد وصلت إلى سواكن ما بين ١٩ و ٢٠ فبراير في نفس الوقت الذي وحل فيه جوردون إلى الخرطوم (٣٤) .

فشلت إذن حملة سواكن بدون اشتراك الزبير فيها وموافقة شروطه كما كان متوقعا .

الزبير وجوردون وحوداث الاخلاء :

مكنت الحكومة الخديوية الكولونيل جوردون في منصب الحاكم العام للقاليم السودانية في ١٧ فبراير سنة ١٨٧٧ م ، ومنحته لقب باشا بعد أن أوصى بذلك فيفان القنصل العام البريطاني في القاهرة . وكانت هذه هي أول مرة يشغل فيها أحد الأوربيين هذا المنصب العام ، فكان عليه أن يشرف من الخرطوم على أراض تمتد شمالا لمسافة ألف ميل ، وجنوبا لمسافة ١٥٠٠ ميل ، وشرقا لمسافة ٤٠٠ ميل حتى سواحل البحر الأحمر ، وقربا لمسافة ٧٥٠ ميلا إلى آخر حدود دارفور . وأظهر جوردون أنه يخدم المصالح البريطانية أكثر من خدمة مصالح مصر (٣٥) .

وقد بدأ جورديون في تنفيذ الكثير من المهام التي كلفه بها الخديو منذ يوم وصوله الى الخرطوم في ٤ مايو سنة ١٨٧٧ م الموافق ١٩ ربيع الثاني سنة ١٢٩٤ هـ . وكان ضمن المهام التي كلف بها العمل على القضاء على تجارة الرقيق ، وقد نجح في ذلك الى حد ما في يوليو سنة ١٨٧٩ م الموافق ٩ رجب سنة ١٢٩٢ هـ ثم اعقب ذلك قيام ثورات منها ثورة سليمان الزبير (٣٦) التي نجح جورديون في القضاء عليها بواسطة صديقه رومولو جسي وكان جورديون قد عاد في أثناء هذه الفترة الى القاهرة سنة ١٨٧٨ م لانتهاء بعض الأمور الخاصة به (٣٧) .

وأخيرا استقدم جورديون من السودان في يونيو سنة ١٨٧٩ م . ولكن بعد أن تخرجت الأمور في السودان . وقد أثبتت الحوادث صدق حكم شابييه لونغ الأمريكى بقوله « لقد وجد جورديون السودان في سلام ورغابية وتركه في سنة ١٨٧٩ م وهو ينوء بالثورة » (٣٨) .

يضاف لأسباب استدعاء جورديون من السودان عزل الخديو اسماعيل صديقه الحميم وتولى ابنه تومبى الحكم ، علاوة على أن الحكومة الجديدة اتهمت جورديون بالتهاون في جمع الضرائب ، وأمام هذا لم يسمع الا أن يقدم استقالته فقبلت منه وعاد بعدها الى إنجلترا ، ولم تلبث الحكومة المصرية أن عينت من بعده رؤوف باشا (٣٩) حكاما للسودان ، الذي قدر له أن يكون أخسر الحكمداريين في العهد المصرى قبل شيوب الثورة المهدية (٤٠) .

وكان الزبير حتى شيوب هذه الثورة مازال محبوسا في القاهرة وكان آخر ما اتصل به هو رفضه الاشتراك في حملة سواكن ، ثم خلافاته ومنازعاته مع جورديون عقب مقتل ابنه سليمان ، وكانت

الثورة المهدية في تلك الأثناء تنمو شيئاً فشيئاً وتنتشر في سرعة حتى عمت جميع أرجاء السودان المصري ، ولم تفلح الجهود التي بذلت في سبيل القضاء على بذور هذه الثورة أو الحد من انتشارها ، في تلك الآونة بدأ تفكير الحكومة الانجليزية في الضغط على الحكومة المصرية من أجل إخلاء السودان ولكن الحكومة المصرية لم تكن تحبذ هذا الرأي ، بل كانت تريد إعادة محاولة إخضاع السودان ، ولكنها في نفس الوقت لم تكن تملك الأداة التي تمكنها من تنفيذ افراضها ، بجيشها الحديث لم يكن إلا أداة بوليسية تحت قيادة بريطانية لحفظ الأمن داخل البلاد ولم تياس الحكومة المصرية في إيجاد حلول أخرى للمشكلة غير الإخلاء ، إلا أنها جميعاً قوبلت بالرفض التام وإقامة المراقيل أمامها من جانب الحكومة البريطانية (١) .

وكانت سياسة الحكومة البريطانية حتى هذا الوقت هي عدم التدخل في الشؤون المصرية ، والدليل على ذلك أن اللورد نهرين اقترح منذ شهر نوفمبر سنة ١٨٨٢ م إرسال جوردون لإعادة الأمن والنظام إلى السودان ، ولكن لم يؤخذ بهذا الاقتراح ، لأن الحكومة المصرية عارضت في استخدام جوردون للمرة الثانية ، ولكن الموقف لم يلبث أن تغير بعد هزيمة حملة هيكس في موقعة شيكان ، وأنباء الهزائم التي وصلت القاهرة والتي حدثت في السودان الشرقي . فكان من أثر هذه الأخبار أن جعلت السير أيفلين يارنج يتحول في الفترة ما بين ٦ و ١٠ ديسمبر سنة ١٨٨٢ م من سياسة عدم التدخل التي ظل حتى هذا الوقت يشير بها على حكومته ويبذل قصارى جهده في تأييدها ، إلى سياسة التدخل . فبعث ببرقية إلى حكومته يوم ١٠ ديسمبر سنة ١٨٨٢ م لطلب تعليمات أكثر تحديداً نحوه أن يفرض على الوزراء المصريين اتباع سياسة معينة بشأن السودان ، وهي سياسة التخلي عن

كل الاراضى الواقعة الى الجنوب من وادى حلفا والتي ترقب عليها فى النهاية اراء هذا الضغط الصريح من انجلترا . ان قدم شريف باشا استقالة وزارته فى ٧ يناير سنة ١٨٨٢ م . وتالفت وزارة نوبار باشا فى العاشر من يناير سنة ١٨٨٤ م . وعلى ذلك ابقر جرانفيل مرة أخرى الى بارنج فى نفس التاريخ يسأله اذا كان استخدام جوردون فى السودان ممكنا . وللمرة الثانية اجاب بارنج انه بعد التشاور مع نوبار لا يعتقد ان من الممكن استخدام جوردون او السير تشارلس ولسون فى الوقت الحاضر . ولكن بارنج الذى استعان بقليل من الضغط على المسئولين فى القاهرة استطاع ان يبرق الى جرانفيل فى ١٦ يناير سنة ١٨٨٤ م ان جوردون خير من يمكن استخدامه فى السودان . وجاء هذا الضغط الذى استعان به بارنج نتيجة لموافقة المستر جلاستون نفسه منذ ١٤ يناير سنة ١٨٨٤ م على اقتراح وزير خارجيته جرانفيل ، باستخدام شيء من الضغط على بارنج حتى يقبل هذا ذهاب جوردون الى السودان اذ ابدى ان فى وسعه بفضل نفوذه الشخصى مع القبائل ان يجعل هؤلاء يحرسون حامية وسكان الخرطوم فى طريق انسحابهم منها الى سواكن (٤٢) .

وكان اول امر لوزارة نوبار باشا هو اخلاء السودان وهو يحمل تاريخ تأليفها ، وصدر مرسوم فى الخامس عشر من نفس الشهر بان يتبع السودان وزارة الحربية بعد ان كان يتبع رئاسة مجلس الوزراء . وفى ٢٤ يناير من نفس الشهر قرر مجلس الوزراء البريطانى ان يعهد الى الجنرال جوردون بمهمة اخلاء السودان ، وصدرت الاوامر لجوردون بالتوجه الى القاهرة لتسلم الاوامر الخاصة بمهمته من الخديو شخصيا ، فوصل الى القاهرة فى السادس والعشرين من يناير من نفس السنة ، وقبل جوردون الحاكم السابق القيام بهذه المهمة برغم معارضة السير

أيفلينين بارنيج ألتفصل البريطانى فى مصر . اذ كان يراه رجلاً
متردداً ضيق الامق ، وقصير النظر ، وكان من الغريب أن يعهد
الى رجل مسيحي متعصب ليتولى انقاذ جيش بمسلم من داعية
مسلم يتبعه أنصار مسلمون ، ومن هنا بدت مسئولية الحكومة
البريطانية فى النتيجة التى انتهت اليها مصير هذا الرجل وقد فوئح
جوردون فى هذا الأمر فقبل دون تردد كى يكون هذا الأمر شفيماً
له لتجسين معاشه وكان قبول جوردون على أساس أن يذهب
الى السودان ليختبر الحالة ويكتب تقريراً عما يراه (٤٣) .

أما الحكومة الانجليزية فقد سلمت اليه خطاباً بالتعليمات
اللازمة وملخص ما جاء فيها :

أولاً : تقديم تقرير عن الحالة العسكرية فى السودان
والوسائل التى يجب اتخاذها لضمان حياة الجالية المصرية
والأوربية .

ثانياً : ضمان أمن وإدارة موانئ البحر الأحمر التى هى
تحت سيادة الحكومة المصرية .

ثالثاً : توضيح الوسائل الفعالة التى يجب اتخاذها لردع
الحركة الثورية وجلاء القوات المصرية بحيث لا ينجم عن ذلك ما
يعزز تجارة الرقيق .

رابعاً : أن يأخذ تعليماته من السير ايفلين بارنيج ويعتبر نفسه
كوكيل ومفوض لاتمام أية مأمورية تكلفه بها الحكومة المصرية ،
وأن يصحب معه الكولونيل ستيورات ليساعده فى هذه المأمورية .

خامساً : أن يتصل فور وصوله لمصر بالسير ايفلين بارنيج
الذى سوف يقرر ذهابه الى سواكن أو إرسال الكولونيل ستيورات
الى الخرطوم أو التوجه بذاته (٤٤) .

ولم ي ٢٤ يناير سنة ١٨٨٤ م بينما جوردون في طريقه الى مصر تلقى اللورد كرومر (بارنج) برقية من اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية يخبره فيها بأن يتخذ الحيلة لمراقبة الزبير لمنع اتصاله سرا بالسودان . ولم تكف العيون عن مراقبة الزبير بعد ذلك فعلا (٤٥) .

وقد كان جوردون ما يزال عند رايه في أن الزبير هو العنصر الخطر على الثورة في السودان ، وقد يزيد من اذكتها ، وقد يهب ليتعاون مع المهدي . وعندما وصلت السفينة المقلّة لجوردون الى بورسعيد جاءه رسول يحمل له خطابا يطلب منه الحضور مورا الى القاهرة . ولما كانت هذه أوامر بارنج فلم يكن جوردون ليستطيع الرفض ، فاستقل قطارا خاصا بمفرده ، وبعد مدة ساعات كان جوردون مع القنصل العام ، ولم يكن الرجلان قد تقابلا منذ سبع سنوات ، وكانت الأحداث التي تلت ذلك غريبة جدا فكان على الرجلين أولا مقابلة الخديو توفيق ، وتمت المقابلة واعتذر جوردون عما بدر منه من انتقاد للخديو وبالتالي تم تشييته في وظيفته كحاكم عام . ثم بعد ذلك كان عليهما تحديد مهام وظيفته ، وكان هذا هو الوقت المناسب لاخلاء الحاميات من السودان والا تمخر اخراجها بعد ذلك . وقد كان لابد من ايجاد نوع من الحكم هناك . ولم يكن احياء الشياخات القديمة ونظام زعماء القبائل كافيا وكان لابد من ايجاد شخص يملك من السلطة ما يمكنها توحيد هذه الشياخات والقضاء في وحدة فيدرالية . وتقدم جوردون باقتراح اذهل الجميع لماذا لا يكون الزبير هو ذلك الرجل ؟ . وكتب جوردون الى السير ايفلين بارنج يبلغه فيه بشموره بأن تعاون الزبير معه سوف يحسم موضوع السودان لصالح جلالة الملكة والحكومة المصرية واقترح تنظيم لقاء بين السر ايفلين بارنج ونوبار باشا رئيس الوزراء ويكون هو معهم والزبير ، وليسكن بارنج قال

أنه لا يثق في تلك الأدلة القائمة على الشعور الدينى ومع ذلك علم بمعارض بارنج اختبار الزبير فقد كان الرجل أقدر من يستطيع إدارة شئون السودان (٤٦) .

وحين وصل جوردون الى القاهرة في سنة ١٨٨٤ م كان الزبير يعيش في رغد كفله له مرتبه الكبير ، ورغم أنه كان محتجزا في القاهرة ، فإنه لم تفرض عليه أية قيود في حياته تمس حريته رغم سطوته ، وكان يكره جوردون من كل قلبه ويحمله مسئولية مقتل ابنه . وقد تصرف جوردون كأنه لا يربى في شيء سوى رغبته في ضم الزبير تحت لوائه ، لا لسبب الا لان هذا الباشا الأسود كان اكبر تاجر عربى التاريخ واعتبر الورد جرانفيل والسيسير اينغلبين بارنج تأييد جوردون للزبير دليلا على عدم توازن شخصية جوردون . وكتب وزير الخارجية للقنصل العام يقول له : « ان خطابات جوردون تثير قلقى ، فتغيره نحو الزبير لا يستطيع ان اقنعهم كنهه » ولكن جوردون كان يعرف ما يريد ، فقدم الى بارنج في صباح ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤م انذارا مكتوبا مرض فيه للحوادث ابتلى ادت الى طرد الزبير من السودان ويؤيد ثقته في قدرته على إدارة حكومة السودان ، والقضاء على ثورة المهدي باجتذاب أتباعه لانهم كانوا أصلا قادة لدى الزبير ، وكذلك عظمتته وبطولته في القتال ، وانه اى جوردون مستعد لتحمل مسئولية الاعتماد على الزبير لانه مقتنع بذلك . هذا الانذار لا يخلو من الحكمة والعقل ، وهو يوضح ان جوردون كان انسانا واقعيا يبحث عن النتائج ، فهو يعلم عيوب الزبير ، ويدرك العداء الشخصى الذى يكنه له هذا الزعيم العجوز ، ومع ذلك حاول اكتساب تأييد الزبير ، ذلك ان قدرة وشجاعة الباشا الحزين لمقتل ابنه هو ما يحتاج اليه لضمان الجلاء من السودان والسيطرة على تجارة الرقيق « الامانة هي

أحسن سسسية « وقد قرر جوردون أن الزبير سسبج هذا
المبدأ (٤٧) .

لقد بقيت مسألة أخرى تحتاج إلى تفكير ، إذ أنه لم يكن هناك
أسر قوية يستطيع أفرادها أن يتخذوا السلطة اللازمة في دنشة
أو كسلا أو الخرطوم ، أي المناطق التي تكون قلب السودان بعد
سحب القوات المصرية منها . وكان حكم الثوار راسخ القدم في
دارفور ، ولم يكن من المستطاع تطبيق سياسة إعادة الأسر القدية
إلى مناطق السودان إلا في دارفور . أما في الخرطوم وهي مفتاح
السودان فكان جوردون شديد الرغبة في عدم أرجاء أمانتها إلى
إدارة الباشاوات المصريين ، وكان يتردد بين التنازل عنها ، أو
بمعنى أصبح أمانتها إلى تركيا ، وإقامة نظام حماية بريطانية
شديد المرونة عليها . ولم يكن في استطاعته أن يحسم هذه
الامكار إلا بعد وصوله للخرطوم ، ولكنها كانت تشغله بدون شك
وهو لا يزال في القاهرة . وعلى أي حال فقد فكر منذ وجوده في
القاهرة في أنه يحتاج إلى رجل يحل محله بعد اتهام الإخلاء ،
وذلك لكي يتولى السلطة بأي شكل ، فكان من الضروري أن يجد
رجلاً له اسم وتنوذ يفرضه على الأهالي « وكان من نتيجة
ذلك أن طالب جوردون بتعيين الزبير باشا لكي يعاونه في مهمته .

هذا على الرغم من أن الزبير لا ينسب لجوردون قتله لابنه حينما
كان حاكماً عاماً في الخرطوم . وكان الزبير رحمة من أصل
شريف وينتسب إلى العباسيين وقد تمكن بشجاعة ومقدرته
وكرمه وثروته من أن يصبح من رجال السودان المعدودين . وأراد
جوردون أن يستفيد من وجود الزبير معه لا لعملية سحب القوات
المصرية من السودان بل ذات ، ولكن لإقامة نوع من الحكومة
المحلية في الخرطوم تحت رئاسته ، وتخضع لسيطرة البريطانيين ،

فأعلن أن السودان محتاج إلى هذا الزعيم السودانى قبل احتياجه إليه هو الجندى الانجليزى ، وذكر أن الزبير هو الرجل الوحيد الذى يستطيع نفوذه أن يعادل نفوذ المهدي ، ويجعل الزعماء السودانيين المنتمين إليه يهجرونه ، وهو الرجل البعيد الذى تستطيع إنجلترا أن تحاول استغلال تدخله للوصول إلى تسوية لشئون السودان (٤٨) .

اجتماع الزبير وجوردون فى القاهرة :

فى ٢٥ يناير سنة ١٨٨٤ م تم اللقاء بين الزبير وجوردون فى منزل السير ايفلين بارنج وكان يشغل منصب المعتقد البريطانى فى مصر (٤٩) . وبحضور كل من السير ايفلين وود وجيرالد بورتال والماجور الاونورايل منتيج ستيورات ورثلى والكولونيل واطسون وجيجلر باشا (٥٠) ، وقد كان الموقف عصيبا بالنسبة لهم جميعا ، لقد كان جوردون هو المسئول عن اعدام سليمان الزبير لذلك رفض الزبير مصانحته . وكتب بارنج بصف الموقف بأنه كان مثيرا للغاية ، وكان الزبير باشا وجوردون مذمولين الى درجة كبيرة ويتحدثان بعصبية واضحة ، وانكر الزبير انه هو الذى حرض سليمان على الثورة ولكن جوردون أعلن أن لديه الدليل على ذلك وهو الخطاب الذى اخذه من جسى بعد قتله (٥١) .

وفى هذه الاثناء طلب الزبير من جوردون بأن يقدم هذه الوثيقة ، فأرسل الى وزارة الحربية المصرية لطلب احضار اجراءات المحكمة العسكرية وعند عرضها وجدت باختتامها منذ سنة ١٨٧٩ م أى أنها لم تنقض اختتامها لخمس سنوات وبالبحث لم يعثر على الوثيقة التى اشار اليها جوردون حيثئذ قال جوردون ان الأمر كان مأساة وأن العدل انحرف عن مجراه وأنى سوف اعمل ما يمكن لتوضيحه الزبير (٥٢)

ولم ينس الزبير طلب جوردون الملح بسجنه هو ومصادرة أملاكه وسجن أقاربه ، وأخيرا المطالبة بمحاكمته على أنه قد أوعز لابته بالثورة ولولا معارضة الخديو آنذاك لأعدم جوردون الزبير . ولقد فعل جوردون ذلك وهو يعتقد أن ابن الزبير غنى طائش انساق إلى الثورة بتحريض من والده وكلاهما خرج على الحكومة فكلاهما يستحق الأعدام . وجرت معاتبات بين الاثنين أصر فيها جوردون على موقفه وما اقتنع الزبير فيها بحجة ، وبالرغم من ذلك يصر جوردون في مرافقة الزبير له ، وبالرغم من أخطائه وعدم خضومه يتوسم فيه السوداني الوحيد الذي يساعد في حل المواقف في السودان . لاحظ الحاضرون لبارنج ونوبار الهوة السحيقة بين الرجلين وأنهما أن سمحا للزبير بمرافقة جوردون غربا يحدث منه ما يمرقل خطط جوردون بدلا من معونته واحتياطا لهذا الاحتمال رفض بارنج ما طلبه جوردون (٥٣) .

وعقب هذه المقابلة التي تمت بين جوردون والزبير كتب جوردون مذكرة إلى بارنج يلح فيها على اصطحاب الزبير باثنا معه للسودان ويقول : « إذا كانت المهمة المطلوبة هي إخلاء السودان بأسرع وقت مع المحافظة على سلامة المواطنين المصريين فلأداء هذه المهمة وحدها لا أراى في حاجة إلى الزبير . إما إذا كان على بالإضافة إلى ما تقدم أن أترك ورائى في السودان تسوية مرضية للكمورغان وجود الزبير معى يصحسبح عندئذ بندا بها لا غناء عنه » (٥٤) . وهكذا رأى نفسه يتلقى الرفض في أول مطالبه ، وقد قيل له أنه سيلقى التعضسسيد والمعونة الكافيين من بارنج والحكومة المصرية (٥٥) .

والحق أن هذا الاقتراح وهو الاستعانة بالزبير كان الوحيد الذى كان يمكن أن يهطم الثورة ، فالزبير سودانى كالمهدى ، وليس غريبا وله العقلية التى تستطيع أن تؤثر في السودانيين أكثر من

عقوبة المصريين والبريطانيين كما ان شخصيته لها ماضى فى السودان ، وله انصار من بين تجار الرقيق الذين كانوا يكونون نواة انصار المهدي ، فكان هو الشخص الذى يستطيع ان يجتذب السودانين اليه ، فيشطر انصار المهدي ، ولكن يبدو ان الحكومة البريطانية لم يكن يعنىها شئ كثير او قليل تحطيم الثورة ، فأوعزت الى كل من الجرائد وجمعيات مقاومة تجار الرقيق بهاجمة الفكرة . وقد نتحت الحكومة له امتدادا ضخما وزودته بمسؤولين احدهما بتنصيبه حاكما عاما مفوضا على السودان ، والأمر الآخر يتضمن الغرض الذى نذب له (٥٦) وتركت له حرية التصرف وهذه هى هفوة اخرى نسجلها على الحكومة المصرية ، فما كان لها ان تفعل معه ذلك وهو الرجل العسكرى الذى لا يعرف الا الطاعة العمياء لموسيه ولم يكن صاحب رأى خاص ولا صاحب تصسف شخصى . ونرى دليل ذلك فيما كتبه ستيفوارت (٥٧) الى بارنج فيقول : ان جوردون شى حالة عصبسية قلقة يبدو عليه عدم الاستقرار وذلك من خلال البرقيات والخطابات التى يكتبها الى بارنج وغيره أينما ذهب ودون أن يتدبر ما فعله . ما برح جوردون القاهرة ليقوم بعملية الاخلاء دون أن تكون معه قوة تمكنه من حماية الانسحاب مع أن من المعروف أن الانسحاب دائما أصعب من الهجوم (٥٨) .

استطاع جوردون معه عند سفره الى الخرطوم الكولونيل ستيفورات الذى سبق أن زار السودان مستطلعا ، وابراهيم فوزى ياوره الخاص ، والأمير عبد الشكور ، أحد اقرباء سلطان دارفور السابق الذى أراد جوردون أن يمنحه حكم هذه المديرية لكى يعمل على تخليصها من أيدي الثوار وأخيرا نان الجنرال السير جيرالد جراهام أحد أصدقائه المخلصين قد سافر معه حتى كرسكو ، وأعطى لنا صورة رؤية عن جوردون الذى كان شديد الاعتدال

بنفسه وواثقا من انه سيرتب كل الأمور في مدى ستة أشهر . وكان الأمير عبد الشكور يعيش في القاهرة ، فاستدعته الحكومة الخديوية وأعطته كسوة مزرکشة وطلبت منه مصاحبة جوردون الى السودان لاحتلال دارفور ، ودفعت له ٢٠٠٠ زء جنيه . وكانت رحلته جزءا من سياسة إعادة الأسر الحاكمة القديمة الى السودان والأسر الى تستطيع أن تحتفظ بنوع من الولاء للخديو ولحماته الجدد البريطانيين . ولكن جوردون كان يحتقر عبد الشكور مكان غير مهذب معه على ظهر الباخرة .. مما اضطره الى النزول في اسوان وعلان عزمه على عدم متابعة السفر ، ولكنه سافر حتى دنقلة حيث انتظر بضعة أشهر ثم عاد مع أسرته الى القاهرة (٥٩) .

وعندما كانوا يودعون في محطة القاهرة حاول بارنج تخفيف ما لقيه جوردون من صدمة بخصوص رفض إرسال الزبير معه ووعدده بالنظر في ذلك مرة أخرى فيما لو أصر على الزبير حين وصوله الخرطوم ورأى لزوم إرساله وعلى هذه الحالة النفسية قام القطار به في رحلته النهائية يوم ٢٦ يناير ١٨٨٤ م التي ما عاد بعدها بل كانت آخر سفرياته . ومن غرائب المسافرات أنه لقي حتفه في يوم ٢٦ يناير من السنة التالية وهي سنة ١٨٨٥ م (٦٠) .

اقتراح جوردون بإعادة استخدام الزبير في السودان :

بعد أسابيع قليلة من وصول جوردون للخرطوم وقعت حوادث سياسية مهمة تتعلق بمهمته في السودان ومن ثم نقد أعاد جوردون اقتراحه بتعيين الزبير باشا حاكما للسودان بوصفه نائبا عن الحكومة المصرية (٦١) .

وقد كان جوردون يهدف من وراء اقتراحه هذا ، تمويش الزبير باشا مما تقدمه من ملك في دارفور وبحر الغزال ومن ابنه سليمان ، ومن ناحية أخرى كان يعتقد أن الزبير باشا هو السوداني الوحيد الذي يستطيع أن يحكم البلاد ويقاوم المهدي ، ثم أنه كان يرى أن الزبير مؤمن بالوحدة بين السودان ومصر وأنه سيظل أميناً لهذه العقيدة ، وكان جوردون يرى كذلك أن الزبير رجل كفاء عسكرياً وإدارياً وأنه سيسوف ينفذ القرار الخاص بمنع تجارة الرقيق (٦٢) .

في هذا الوقت كانت حاجة الحكومة المصرية المصرية قد اشتدت إلى إيجاد حل مناسب لاختلاف الفرق المصرية في السودان . لذلك فقد رأى مستشار الخديو ، ورات السلطات البريطانية في القاهرة أن العلاج الحاسم في الرجل الذي سلبوه حريته وصاندروا ممتلكاته وقتلوا ولده ، وكان هذا الرجل بالنسبة للحكومة المصرية ذا أهمية بالغة ، وكانت هذه الفكرة معضدة من جانب كل من كان على علم ودراية ومعرفة بالأحوال الداخلية ، فبعد أسبوع واحد رفض السير أيفيلين بارنج الاقتراحات التي عرضها جوردون مكتوبة من جانبه شخصياً (٦٣) وتردده هو وستيورات في أول الأمر بخصوص مسألة استصواب إرسال الزبير . وجدنا أن الاثنين سرعان ما انحازا لرأي جوردون ووقف الاثنان معا يطلبان بالحاح بل من اقتناع بأن الاختلاف لا يتم دون إقامة حكومة قوية وأن الرجل الوحيد الذي يستطيع تسيير الدفة هو الزبير والزبير وحده (٦٤) .

وقد أجاب بارنج بأن الزبير رجل ذو نشاط عظيم وعزم وتصميم . وقد أخذت الحكومة في الاعتبار أن خدمات الزبير ربما تكون ذات نفع ، ومن المؤكد أن الحكومة المصرية كان لديها الحرية .

فى أن يكون الزبير وكيلا لها وأن يرسل مستقبلا الى السودان
كسلطان عليها يساعده فى ذلك جيوشه وأمواله لكى يكون رأسا
مناهضا ضد المهدي . وكان من المحتمل فى هذه الفترة بالذات أن
يسكت المهدي قبل أن يناهضه رجل كان له من الشهرة ما يعادل
شهرة المهدي نفسه ، وكان لديه من الامدادات ما تجعله أكثر
عظمة وقوة من التى يمتلكها المهدي . وقد كان طبيعيا الا تستصوب
الوزارة البريطانية التفاوض أو التدخل من جانب هذا الرجل وهو
الزبير (٦٥) .

كانت الحكومة الانجليزية التى كانت تحت رحمة الراى العام
العام لا تستطيع أن توافق على راى كهذا بهى أن وافقت
أصبحت ملزمة بالاشراف على النظام الجديد وهذا معناه تحمل
مسئولية الحكم فى السودان . وعموق هذا ربما انتهى الراى العام
بالتفريط فى التقاليد الانجليزية ، وتقاليد الحرية والقضاء على
الرق ، وما عرف الراى العام البريطانى عن الزبير سوى أنه أكبر
نحاس أنجبته افريقيا ، وأخيرا خضعت الوزارة البريطانية لراى
عام نشرته الجرائد ضد الزبير . بل أن أحد النواب فى المعارضة
ووزيرا سابقا التقى فى مجلس العموم خطبة فياضة تحدث فيها
بالسهاب عن السمعة التى تصيب بريطانيا فى الصميم فيما لو أقدمت
على إرسال الزبير وتمضيده (٦٦) .

أما بالنسبة لجوردون فإنه عقب رحيله من القاهرة الى
الخرطوم لم يهل نفسه وقتا لدراسة الموقف على الطبيعة ، بل
بدأ فى إرسال سبيل من البرقيات المتضمنة اقتراحاته وآرائه
المختلفة حول المسألة الخاصة باتمام اخلاء السودان ، وانتداب
الزبير لهذه المهمة وموضوعات كثيرة مختلفة كانت تتراعى له من
حين لآخر فيضمنها برقية ويبعث بها الى القاهرة . وفى أول

نبرابر سنة ١٨٨٤ م أرسل برقية الى القاهرة تتضمن ما يأتى :
« أن مشكلة المشاكل هي معرفة كيف ولئن ترك ترسانات الخرطوم
ودنقلة وكسلا ، ومعلوم انه لا توجد أسر عريقة في هذه المدن
وأن الخرطوم وكسلا مدينتان حديثتان لأن بداية انشائها ترجع
الى أيام الفتح في عهد محمد علي (٦٧) .

وفي الثامن من نفس الشهر سنة ١٨٨٤ م كتب جوردون
الى السير ايفيلين بارنج من بلدة أبي حمد برقية تتضمن ابلاغه
بثبات مركز حكومة القاهرة في السودان ، وجزع السكان من
مسألة انفصالهم عن مصر انفصالا كلياً واقتراحه بأن يكون
الانسحاب جزئياً وليس الهجرة من السودان كله ، وتغيير نمران
تعيينه بالنقص على الرقابة الادبية والسيادة الاسمية لمصر على
السودان (٦٨) .

وفي اول نبرابر سنة ١٨٨٤ م وصل خطاب الى السير
ايفيلين بارنج من ستوروات وهو في كرسكو جاء فيه : « لا يزال
جوردون متشبهاً بالزبير ، ويقول انه يشعر بعطف عليه حتى انه
قد يطلب نجاهاً بارساله الى السودان لما حدث هذا اعتقد انك
لن تسمح للزبير بمغادرة القاهرة الا لأسباب قوية جداً ، انى مقتنع
بأن مجيئه تجربة خطيرة ، ويحتمل الا يظهر بالنفوذ المنسوب
اليه وخصوصاً أن جنوده المعرومين بالبازنقر لم يعد لهم وجود » .
وفي ٨ نبرابر سنة ١٨٨٤ م أبرق جوردون للمرة الثانية وهو في
بلدة أبي حمد الى اللورد كرومر يشرح له فيه أن الزبير وحده هو
الذى يصلح لأن يكون حاكماً عاماً على السودان ولا امراض له
على وجودنا معه . كما رجاء ان تراه زوجته اللادى بارنج . وهكذا
لا يبقى شك في أن جوردون بعد اقترابه من الخرطوم ووقوفه
على حقيقة احوال السودان لم يفقد كثيراً من تفاؤله السابق فقط ،

بل أن عطفه على اهالى البلاد جعله ينسى الغرض الرئيسى من المهمة التى ندب خصيصا لانجازها ، وبعد شهور قليلة نرى نفس الرجل الذى بصر على النص فى التعليمات المسلمة له على عدم تغيير سياسة الجلاء عن السودان باى حال من الاحوال يكتب فى أوراقه قائلا : « انى امتنت حكومة جلالة الملكة من جراء فكرة الجلاء عن السودان بعد أن كانت السبب فى جميع مناعب هذه البلاد » (٦٩) .

ولعل أول تنبيه لبارنج على مدى تبدل وتغير آراء جوردون هو خطاب ستيورات الذى أرسله الى السير اينفيلين بارنج بالقاهرة من بربر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٨٤ م وقد أوضح به مدى تخطيط جوردون وخطئه بين عطفه المندفق على السكان من جراء عملية الجلاء وقيامه بتنفيذ خطة الجلاء نفسها وهى فى نظر ستيورات افضل الحلول لجميع الاطراف وكان جوردون قد وصل الى بربر فى الحادى عشر من فبراير (٧٠) .

ومقب وصوله الخرطوم مباشرة أبرق مرة أخرى الى القاهرة فى ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م يتحدث عن الفوضى التى مستعم البلاد بعد اتمام عملية الجلاء لجميع المصريين عنها ، ومسئولية الحكومة فى ادارة البلاد بعد اتمام عملية الجلاء وهو يقترح تجنباً لهذه الفوضى أن يعين مسئول يتولى ادارة البلاد بالشروط التى سيسردها وأن تؤيده الحكومة البريطانية تأييداً أدبيا دون منحه مالا أو رجالا . وقد رشع لهذا المنصب الزبير باشا تأكيدا لما سبق بقوله « واعنى به الزبير ، فهو وحده الذى يستطيع حكم السودان ويرضى عنه السودانيون ويمكن منحه بعض الهدايا » أما الشروط فهى :

أولا : ألا تمتد سلطته الى الاقاليم الجنوبية وخصوصا منطقة بحر الغزال ،

ثانياً : ألا تمتد سلطته إلى دارفور :

ثالثاً : يوالى اشعار الحكومة المصرية بارتفاع مناسيب مياه النيل . نظير مائتي جنيه سنوياً .

رابعاً : أن يظل في حالة سلمية مع اثيوبيا .

خامساً : أن يفرض ضرائب لا تزيد على ٤٪ على الصادرات او الواردات .

سادساً : ألا يحاول الانتقام من أى شخص اشترك في سحق ثورة ابنه .

سابعاً : أن يقوم بدمع المعاشيات التي كانت تمهدت بها الحكومة المصرية لموظفيها القدامى .

وفي نهاية هذه البرقية أوضح أن احتجاز الزبير لمدة عشرة ايام في القاهرة واختلاطه بالأوربيين لابد ان يكون قد أحدث تأثيراً شديداً في اخلاقه . كما أن تعيينه يكفل عودة جميع التجار الأوربيين وغيرهم الى السودان ، وقد طلب من مستورات ابداء رأيه مستقلاً تحاشياً لابداء وجهة نظر واحدة (٧١) .

وفي نفس الوقت وصلت الى السير ايفيلين بارنج برقية من مستورات جاء فيها : « بمناسبة برقية جوردون المرسلة لكم اليوم ، اعتقد أن السياسة التي يلح في اتباعها ، تساعد على تسهيل مهمة انسحابنا الى حد كبير ، ولكنني اعتقد فيما يتعلق بالزبير باشا أن معلوماتنا القليلة عن السودان ، لن تمكننا من تكوين أى رأى الآن ، ومع ذلك يحتمل أن أى رجل يتم تعيينه يكون مقبولا لفترة ما » (٧٢) .

وقد ظهر بأدىء ذى بدء أن جوردون وضع اقتراحه عن

الانتفاع بالزبير بغير روية كافية أثناء وجوده بالقاهرة ، فلمسا وجد بلرنج انه مازال على عقيدته بعد انصرام ثلاثة اسابيع ، توامرت له خلالها فرصة دراسة الموقف في الخرطوم ولاح له انه محق في افتراضه انه لا يعبر عن رأى مدروس ، ولا يقتض كما حدث مرارا برأى ظهر للحظنسه ، ولذلك مول كرومر على تأييده الى المدى الذى يحقق الانتفاع بالزبير انتفاعا كليا ، ولو انه كان واضحا من الناحية الأخرى ان من المجازمة بمكان السماح لهما بأن يقيما في الخرطوم معا . ولكن لما كان سسستيورات زميل جوردون الحذر المتشكك في حكمته بشأن استخدام الزبير ، وكان كرومر من جهته عظيم الثقة في حكم ستيورات على الأشياء ، فقد رغب في امساح الوقت له كطلبه ، ليتمكن من تكوين رأيه . وقد بعث اللورد كرومر بنص هاتين البرقيتين الى اللورد جراتفيل يوم ١٩ فبراير سنة ١٨٨٤ م وأضاف اليهما الملاحظات الآتية :

أولا : تأييده لفكرة جوردون في تعيين الزبير بالسودان مع الشهادة بكمايته ونشاطه ونفوذه العظيم داخل البلاد .

ثانيا : عدم تأثر تجارة الرقيق بوجود الزبير من عنده .

ثالثا : اقتناعه بفكرة تأثر الزبير خلال فترة وجوده في مصر باخلاق الأوربيين وادراكه لقوة أوربا .

رابعا : عدم تأييد فكرة الجمع بين الزبير وجوردون في الخرطوم او وضعه تحت سيطرته بل يعتقد أن واجب جوردون يقتصر على امداد وسائل انسحاب الحماية لباقي العناصر المصرية .

خامسا : ان يصدر الأمر بتعيينه حاكما عاما على السودان بمساعدة حكومة جلالة الملكة ، ويقترن ذلك بالنص على اعتماده على موارده الخاصة للمحافظة على مركزه وأن يحصل على مبلغ

منصب من المال من الحكومة المصرية ليبدأ به عمله . وأن يلتقى
ما يسمى بالمساعدة الأدبية التى لن يفهمها .

سادسا : اقتراحه بأن تكون اتصالاته بالحكومة المصرية عن
طريق ممثل الحكومة البريطانية فى مصر ، وعدم اعتقاده فى جد
الشروط التى وضعها جوردون لتعيينه .

سابعا : عدم تأكده من قبول الزبير لهذا المنصب المقترح من
عده (٧٢) .

وفى ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٤ م أجاب اللورد جرانفيل على
برقية اللورد كرومر برفضه لفكرة تعيين الزبير رفضا مطلقا ، نظرا
لعدم موافقة الراى العام البريطانى على ذلك ووجود اعتراضات
شديدة لفكرة تعيين الزبير خلفا لجوردون (٧٤) .

وفى وقت وصول هذه البرقية طقى اللورد كرومر مذكرة من
جوردون حررها ببلدة أبى حمد فى ٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م ورغم
اختلافها بعض الشيء عن مقترحاته فى البرقية المؤرخة فى ١٨
فبراير ، ثلثها مكنت اللورد كرومر من تفهم الخطوط الرئيسية
لخطته التى يريد انتهاجها (٧٥) .

وبادر كرومر الى ابلاغ جوردون نص برقية جرانفيل المؤرخة
فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٤ م مضيئا اليها ملاحظاته التى تلخص
فى اختلاف آراء جوردون فى برقيته المؤرخة فى ١٨ فبراير عن
آرائه الواردة فى برقيته المؤرخة فى ٨ فبراير ، وطلب من جوردون
اقتراح اسماء اخرى جديدة غير الزبير لتولى إدارة شئون البلاد
حتى جنوبى وادى حلفا او إدارة الحكم فى الخرطوم نفسها نظرا
لوجود اعتراضات ضد الزبير فى إنجلترا (٧٦) .

وقد مول كرومر على تأجيل اتصاله بجرايميل ريثما يتلقى رد جوردون ، فجاءه هذا الرد في ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ م الذي أوضح فيه عدم استطاعة اقتراح رجل آخر غير الزبير وبسهولة تنفيذ عملية الجلاء نفسها ، وصعوبة تأمين مصر ، وتحطيم المهدي بعد أن يستولى على الخرطوم . إلا أنه اقترح لتحطيم المهدي أن يرسل للزبير ألف جنيه أخرى ، ومائتي جندي هندي إلى وادي حلفا ، وضباط إلى دنقلة للتظاهر بأن في الامكان النزول بها ، وبين كيفية تحطيم المهدي في الوقت الحاضر بسهولة (٧٧) .

ويذكر د . ابراهيم أنه لا يدري ان كانت فكرة استخدام الزبير باشا في حد ذاتها رجيية ام لا . لا شك أنه كان لبقا ويعرف السودان معرفة طيبة ، ولكن كيف يقاوم هذا الرجل دعوة دينية كدعوة المهدي ؟ حقا كان في استطاعة الزبير ان يجمع حوله شيوخا وامراء وبعض الاتباع ، وانما كان لا يستطيع الصمود امام الالاف المؤلفة من اتباع المهدي ، الذين كانوا يشبهون بالموت في سبيله . وعلى كل فمسألة استدعاء الزبير تبين ان جوردون لم يكن متنبها كل التنبيه لحقيقة الثورة المهدية (٧٨) .

وفي ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ م وهو تاريخ وصول برقية جوردون كان قد مضى تسعة وثلاثون يوما على سفره من القاهرة ، وثمانية ايام على وصوله الخرطوم وفي غضون هذه المدة بصرف النظر عن ذكر آرائه الكثيرة المتناقضة اخط لنفسه لا اقل من خمس خطط ، تعارض بعضها مع البعض الآخر تعارضا كليا بينما لا يتفق ما بقي منها مع بعضها في النواحي التي لها أهمية عظمى بنوع خاص ، فقد دفعه تيار هذه المراحل خلال هذه المدة من فكرة الحكومة في وضع تقارير عن شئون السودان الى تحبيذ سياسة تحطيم المهدي ، ومن اتواله في هذا الصدد ان تحطيمه امر سهل

ميسور . ولزيادة ايضاح صعوبة الموقف بعث اللورد نورثبروك (٧٩) برسالة الى اللورد كرومر مؤرخة في ٢٩ فبراير سنة ١٨٨٤ م تضمنت وصفا مفصلا لمدى صعوبة الموقف آنذاك وشذوذ جوردون وسرعة تقلب آرائه ، وقد سردها في سبعة نقاط وجميعها متناقضة واشتمل بقية الخطاب على الكثير من الاسئلة حول افساء الثقة على الزبير ، ومعاداة الزبير للمهدى والكثير من الاسئلة حول الزبير ، وفي نهاية خطابه يقترح لتحطيم المهدى من اجل سلامة مصر هو اطلاق مسلمين على مسلمين يحمل تركيا على القيام من اجل الأتراك ضد العرب (٨٠) .

وفي ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م ارسل السير ايفيلين بارنج الى جرانفيل مضمون برقية جوردون المؤرخة في ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ م . و اضاف اليها بعض الملاحظات المهمة حول اقتراحات جوردون المتضاربة لانتماء الانسحاب من السودان من عدم انشاء حكومة قبل الرحيل ، والآخر باقامة حكومة مستقرة تخلف الادارة المصرية فيها بعد الانسحاب . وقد أوضح في ملاحظاته أن جوردون في جانب الطريقة الثانية وأنه أي (بارنج) متفق معه ويؤيد تجربتها ، وقد بين ايضا مدى الفوضى التي ستحدث نتيجة لرحيل جوردون ما لم تتخذ بعض الاجراءات سلفا لمنعها . وبخصوص مسألة الزبير وتعيينه خلفا لجوردون كتب السير ايفيلين بارنج في ملاحظاته الى جرانفيل ما معناه انه ان لم ترغب الحكومة الانجليزية في تحميل أية مسؤولية ، كان من الواجب منح جوردون والحكومة الخديوية مطلق الحرية لعمل اصلاح ما يريدان عمله وهو تعيين الزبير خلفا لجوردون مع اعطائه قفرا من المال ليبدأ مهمته ، الى جانب هبة سنوية مقدارها خمسون ألفا من الجنيهات يستمر دفعها لمدة خمسة اعوام ، وذلك لمعرفة مدى امكان الاعتماد على حسن سلوكه . ويؤكد بارنج ان هذه الهبة ستتمكن من الاحتفاظ

بجيش متوسط الحجم بينما يكون التدبير بأكمله اقتصاديا بالنسبة للحكومة المصرية ، وفى نهاية رسالته يؤكد على تزكية الزبير دون غيره خلفا لجوردون كما يؤيده فى ذلك نوبار باشا (٨١) .

وفى أول مارس سنة ١٨٨٤ م أجاب جرانفيل على رسالة بارنج بطلب المزيد من الايضاحات عن الضرورة الموجبة للتمجيل بتعيين خلف لجوردون الذى سستطول اقامته فى الخرطوم بعض الوقت لأن الحكومة ستضغ رايه موضع الاعتبار عن الشخص اللائق للمنصب ، وهى ترى ضرورة الحصول على موافقة السلطان فى حالة التعيين . وقد بادر السير ايفيلين بارنج بإرسال صورة هذه البرقية الى جوردون . وفى نفس الوقت كتب جرانفيل لبارنج كتابا خاصا أوضح فيه وجهة نظر الحكومة البريطانية ، ويؤكد ثقتها فيه بخصوص رايه ورأى جوردون ونوبار فى تعيين الزبير خلفا لجوردون ، ولكن طلب منه الاجابة على مدى ضمانه فى أن المعونة الرسمية التى تحدد للزبير تكون رشوة كافية تحول دون رجوعه الى مزاولة عملياته السابقة المريحة ، او حتى عدم انحيازه للمهدى ، وكان جليا ان بارنج لا يستطيع إعطاء الضمان لجرانفيل (٧٢) .

وخلال الفترة من ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ م الى أول مارس من نفس السنة أرسل جوردون سيلا من البرقيات الى السير ايفيلين بارنج وكلها تدور حول الاخلاء ، ومسألة إيجاد حكومة مستقرة بعد الرحيل . وفى ٢ مارس ١٨٨٤ م أبرق السير ايفيلين بارنج الى جوردون بأنه يرغب فى مساعدته وتأييده لولا صعوبة ادراك ما يريده لذلك طلب منه أن يدرس مقترحاته بعناية ويبلغها له فى برقية واحدة ، حتى يستطيع اذا دعت الضرورة الحصول على تعليمات الحكومة . وفى نفس اليوم أبرق بارنج لستيفورات

يبلغه بأقتناع جوردون بأن فرضه مساعدته بأقصى سرعة ، ولكن الذى يزيد متاعبه هو تناقض برقياته فى مسائل دقيقة تتعلق بالسياسة (٨٣) .

وقد أجابه ستیورات فى برقية أرسلها فى ٤ مارس سنة ١٨٨٤ م يشاركه فيها شعوره نحو برقيات جوردون الكثيرة (٨٤) .

وقبل البرقية السابقة كان بارنيج قد أرسل برقية خاصة الى جرانفيل يبلغه فيها أيضا بكثرة برقيات جوردون ، وبالتالي كثرة اقتراحاته ، وبصعوبة تبليغه هذه المقترحات جملة واحدة او بطريقة متتابعة ، وطلب اعطائه ثقة الحكومة البريطانية ، وسرعة البت فى مسألة الزبير ، فأجابه جرانفيل فى ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ م بأنه يعطيه الثقة والسلطة التامة التى يطلبها على أن يوافيه فيها بعد بأسباب طلبه هذا (٨٥) .

وقد قام جوردون بإلرد على برقية بارنيج المؤرخة فى ٢ مارس سنة ١٨٨٤ م بعدة برقيات وهو يعيد فيها اصراره على إرسال الزبير للخرطوم شرطا لنجاحه فى مهمته لأن الزبير سيبدرك أن حصوله على المعونة المالية يتوقف على سلامته ، وقد علل جوردون ضعف مركزه لأنه شخص أجنبى مسيحى ، وأخيرا يطلب من بارنيج أن يسأل ستیورات بلا تردد عن أى موضوع يريده ليوقف على رأيه مستقلا عن رأى جوردون شخصيا . وهو يطلب ضرورة فتح الطريق من بربر الى سواكن وإرسال مائتى جندي بريطاني الى واوى حلما بقصد ادخال الهيئة فى قلوب المهديين (٨٦) .

وفى نفس الوقت وصل بارنيج برقية من ستیورات مؤرخة فى ٤ مارس سنة ١٨٨٤ م تتضمن اتفاقه مع جوردون فى ضرورة استقدام الزبير سريعا لأنه يملك هيئة كائنية لحكم السودان عقب

الجللاء لبعض الوقت على الأقل ، وسيكون خصماً للمهدى ، وبما أنه باشا وسط طائفة من الشايكية غير القانونيين ، فإنه سيتمكن من الوصول الى مصادر المعلومات الصحيحة . وسوف يقدم الزبير مساعدة كبيرة عند سحب حاميات سنار . وقد أشار ايضا في برقيته الى اقتراحات جوردون الثانوية بخصوص تطهير طريق بربر سواكن وارسال قوة صغيرة من خيالة الهنود أو البريطانيين الى بربر وارسال قوة من الخيالة البريطانيين الى وادي خلنا لان هذه الاجراءات توحى بوجود قوات تحت امرتهم (يقصد جوردون وستيورات) تساعد كثيرا في مفاوضاتهم مع الثوار ، وتعجيل تنفيذ الجللاء (٨٧) .

وحتى هذا الوقت كان بارنج يضغط على الحكومة البريطانية لتوافق على تعيين الزبير خلفا لجوردون في الخرطوم واقتصر اعتراضه على فكرة ارساله في الحال وكانت حجته في هذا مزودة الاولى خوفا على حياة جوردون من حقد الزبير الدفين والثانية ثقته في حكم ستيورات على الاشياء اكثر من ثقته في حكم جوردون عليها . فحتى يوم ٤ مارس ظل ستيورات مترددا في استصواب تعيين الزبير ، ولكن برقيته السابقة جعلت بارنج يعيد النظر في نوعياته التي قدمها اليه في ذلك الوقت . فقد كان واضحا أن الحالة تزداد حرجا في الخرطوم ، والقبائل بينها وبين بربر تتردد في الانضمام الى الثوار أو الحكومة ، بينما تدفعه الظروف دفعا الى مراعى المهدى ، كما كان جليا أنه اذا كان لابد من عمل شيء لانشاء جبهة معارضة للمهدى ، وجب عدم اضاعة الوقت . وكان جوردون بالغ بشدة في ارسال الزبير فورا ويقول بالنسبة لسلامته الشخصية أن مصلحة الزبير دون اضراره به . ولم يلبث ستيورات أن انضم الى رايه نصار يؤيد تعيين الزبير فورا (٨٨) .

ولم ي ٤ مارس سنة ١٨٨٤ م أبلغ المسير ايفيلين جرانفيل
ببرقيتي جوردون المؤرخين في ٢ و ٣ مارس سنة ١٨٨٤ م ،
وبرقية ستيورات في ٤ منه وأضاف إليها بعض الملاحظات التي
تتلخص في ضرورة سرعة إرسال الزبير خطنا لجوردون لأن
التأخير سوف يضر جوردون وستيورات والحاميات المصرية ،
ويرى بارنج ضرورة الاجتماع بالزبير قبل اعطاء رأيه النهائي
ولا فائدة من رأيه إذا لم تقرر الحكومة ذهاب الزبير من عنده إلى
السودان ويتعجل رد الحكومة على هذه النقطة . وكان المسير
ايفيلين بارنج يقصد حين أرسل هذه البرقيات ، أن يرى الزبير
لتكوين رأي نهائي عن صواب إرساله أو عدم صوابه بعد الانصات
إلى كلامه وملاحظاته وانفعالاته . وكان سيقول له إذا أتت عملية
الجلاء بنجاح ، ويخص بذلك إذا عاد جوردون وستيورات إلى
القاهرة بسلام فإنه يعين حاكما عاما على السودان كله ، ويتخذ
مائة ألف جنيه إعانة سنوية من الحكومة المصرية مادام سلوكه
مرضيا . وعلى العكس إذا ما أصابها ضرر ، أو على العموم
إذا اتبع فيما بعد سياسة عدائية ضد مصر ، فإنه يثير شائنة كل
من الحكومتين المصرية والبريطانية ، حينئذ يكون مصيره الإعدام
إذا وقع في قبضة أحدهما . ومع ذلك لم تكن هناك فائدة في
الدخول في أية مفاوضات من هذا النوع ، حتى تمنحه (أي بارنج)
الحكومة البريطانية حرية التصرف في الأمر طبقا لأفضل ما يراه ،
والذي يجب ملاحظته أن جوردون وستيورات الحان في برقيتي
٣ و ٤ مارس في استصواب فتح طريق بربر سواكن ، بينما
اقترح ستيورات إرسال قوة من الخيالة البريطانية أو الهندية من
سواكن إلى بربر (٨٩) .

وقد كان جوردون لسوء حظه يبعث بتلغرافاته إلى المسير
ايفيلين بارنج . وقد رأينا كيف كان ينصب نفسه لمعاكسته والنصح

للحكومة البريطانية بعدم الالتفات إلى شيء من مطالبه حيال تلك التصريحات التي تقدم ذكرها عن الجناب الخديو أو سياسة الانجليز الذين تعهدوا بمساعدته ومعاونته في سبيل العمل على نجاح مأموريته حتى أن نجاحه كان متوقفا على إرسال مائة جندي إلى أسوان ووادي حلفا ، فلم ير السير بارنج لزوما للمخاطرة بهذه الكوكبة الصغيرة ، فهل بعد ذلك كله من حاجة إلى برهان بأن جورردون أرسل لموت ويترك السودان إلى الغوضى ؟ ومن ظفرافات السير ايفيلين بارنج إلى جورردون بتاريخ ٢ مارس عبارته التي يقول فيها « أتني شديد الرغبة في مساعدتك بكل طريقة » ثم نراه ينصح حكومته بعدم إرسال المائة فارس إلى أسوان ووادي حلفا لأن إرسالهم قد يكون سببا في إبعاد الخطر عن جورردون بعض الأبعاد وقد كان قصد جورردون من إرسال هؤلاء الجنود أن تصل أخبارهم إلى المهدي بغلو كثير حيث يظن أن جنودا قادمون لإمداد جورردون ، فلا يجسر على التقدم عليه ومناجزته ولو عملت الحكومة الانجليزية برأي جورردون وأرسلت المائة فارس لكانت النتيجة حسنة ولم تسقط بربر في أيد المهديين حيث بسقوطها أهدق الخطر بجورردون ، وانقطع أمله في وصول نجدة عن طريق وادي حلفا أو سواكن لأن بربر نقطة اللقاء الطريقتين (٨) .

في ذلك الوقت كان الجنرال جراهام مرابطا في سواكن وعلى أهبة التقدم نحو عثمان زقنة . كان هناك أمل في أن حسين باشا خليفة الذي كان وقتئذ في بربر ، قد يستطيع في حالة انهزام عثمان فتح الطريق إلى سواكن بدون مساعدة قوة بريطانية ، يضساف إلى ذلك أنه مادام هناك أمل في إرسال الزبير إلى الخرطوم ، وبالتالي حل المسألة السودانية بالطرق الدبلوماسية ، فإن بارنج لم يكن مستعدا لتحمل تبعه الموافقة على إرسال قوة بريطانية إلى السودان ، لذلك أبرق بارنج إلى جرانفيل

فى ٤ مارس (٩١) بعدم موافقته على اقتراح سسستيورات بشأن ارسال خيالة بريطانيين او هنود من سواكن الى مبر ، وفى ٥ مارس ابرق جسرانفيل الى بارنج (٩٢) بقوله : « ان الحكومة الانجليزية ترفض تغيير شمسورها من الزبير الذى تكون نتيجة الاسباب التى سردها جوردون وستيورات فى مذكراتها المحرة فى ٢٣ يناير سنة ١٨٨٤ م على ظهر السفينة تانجور فاذا لم يكن فى الامكان ازالة هذا الشعور ، فان الحكومة لا تستطيع تحمل مسئولية ارساله الى الخرطوم . وفى نهاية برقيته اراد ان يستفسر من بارنج كيف رتب اقتراحه بحيث جعله بين تعيين الزبير ومنع او عدم تشجيع تجارة الرقيق وصيد ثم بينه وبين سياسة الجلاء التام بل توخى سلامة مصر ، واراد ان يستفسر عن مدى التقدم فى مسألة انقاذ الحاميات ، ومقدار المدة التى تمضى حسب تقديره قبل انسحابها كلها او الجزء الاكبر منها ، وبما انها تحتاج الى بيانات منصلة عن كل حامية على حدة . كما رجاه ان يدلنى برأيه فى الاقتراح الخاص باستشارة الزعماء المحليين عن الحكومة المستقبلية للبلاد (٩٣) .

ويبدو ان حكومة جلالة الملكة كان غرضها ان يمهّد جوردون المسبيل لوقوع البلاد فى مخابب الفوضى ، ويقضى على نفوذ مصر فى تلك الأرجاء . أما الخديو توفيق باشا فكان مقصده إعادة الأمن والسلام الى تلك الأقطار ثم أجبر على تحويل مقاصده بحيث يجعلها مقصورة على انقاذ المخلصين من رعاياه من الخطر المحقق بهم من الشرور التى كان متوقعا حدوثها من نتيجة مأمورية جوردون الذى ارسل ليهوت حتى يتم فرض دولته . على ان جوردون لم يكن جاهلا بكنه تلك النية . ولهذا كان يرسل التلغرافات تترى ويدون المذكرات لا ليقنع قومه بالعدول من ذلك العزم ، بل ليجعل التاريخ

حكما بينه وبين قومه لاعتقاده أن ظفرأمانه ومذكراته لابد أن تنشر على الجمهور ويطلع عليها العالم أجمع وهم لابد أن يحكموا له لا عليه (٩٤) .

الفشل في ضمان استخدام الزبير :

في هذا الوقت بدأ الشعمور باليأس يتسرب إلى نفس السير اينيلين بارنج بعد أن تظن برقية اللورد جرانفيل السابقة الذكر ، فقد ظهر منها أن الحكومة لم تكن تعلم بطبيعة الحالة على حقيقتها في الخرطوم ، ومن ثم صار مطلوبا من بارنج أن يوفق بين اقتراح تعيين الزبير ومنع أو عدم تشجيع تجارة الرقيق وصيده ، وكذلك بينه وبين السياسة التي ترمى إلى الجلاء التام ، وكذلك ضمان سلامة مصر وإلى بقية ما جاء بالبرقية المشار إليها سابقا من مطالب ، وهي تكليفه بأن يرسل تقارير تفصيلية عن كل حامية على حدة مع أنه كان قد سبق أن أرسل مثل هذه التقارير من قبل ورغم أن كل لحظة من اللحظات التي كانت تمر في هذا الحين كانت عظيمة القيمة . فان الحكومة لم تدرك ذلك بل يزيد على ذلك أنها ظنت أن جوردون وستيورات ليسا أمام خطر عاجل ، رغم كثرة ما أرسل إلى لندن من البرقيات التي شرحت فيها الحالة تفصيلا أكثر من مرة . وأن هناك فسحة من الوقت لبحث خطوط سير العمل مستقبلا في السودان . والذي يعنيها من كل هذا أنه كان من بين الأهداف التي يرمى بارنج من تعيين الزبير من وراءها ، أن يتولى تسهيل عملية انتفاذ الحاميات المحاصرة بمنع القبائل المرددة في موقفها من الانحياز للمهدى واستمالتها لجنائب الحكومة (٩٥) .

وكتب آلن مورهد تيسيل « لم يكن بارنج ميالا للمغامرات ولكنه كان يرى أن الموقف قد تدهور للغاية وكان ضروريا الاحتفاظ

بولاء قبائل الشمال والا قطعوا الطريق بين القاهرة والخرطوم ،
وذلك لأن شيوخ هذه القبائل كانوا من اتباع الزبير « (٩٦) » .

وأخيرا بعد أن وازن بارنج كل شيء بعناية انتهى الى أن
خير ما يجب عمله هو معاودة السعى للانتفاع بخدمات الزبير .
ورأى أن الطريقة المثلى لحصل الحكومة للاذعان لمطلبه ، تكليف
جوردون بإرسال خطابا تكتب أسبابه بعناية ردا على امتراضات
جرانفيل في برقيته المؤرخة ٥ مارس سنة ١٨٨٤ م ، ولذلك أرسل
اليه محوى هذه البرقية وأضاف اليها الملاحظات الآتية وتلخص
في :

أولاً : هل يمكن اختيار رجل آخر غير الزبير ؟ وهل حجج
تعيينه كافية لتخفيف ثقل عيوبه ؟

ثانياً : النظر في مسألة جمع الزعماء في الخرطوم للاتفاق
معه على مستقبل البلاد .

كذلك أبدى بارنج لجوردون اهتمامه في ضرورة النظر في
كيف يتفق اقتراحه من تعيين الزبير وأعبائه ماليا ، مع سياسة
الجللاء ، ومع فكرة منع أو عدم تشجيع اصطبياد الرقيق وتجارتهم ،
ومع توخي سلامة مصر ؟ وإلى أي مدى يمكن الوثوق في بقاء
الزبير مواليا لمصر ؟ كما أنه ليس من الجائز أن يتفق الزبير مع
المهدى عندما يصبح قويا فيكون مصدر خطر أكبر منه مصدر تعاون
مع مصر ؟ كما أبلغه أن كثيرين يعتقدون حرص المهدى على
ثورته . وفي نهاية ملاحظاته طلب منه أن يجيب على جرانفيل
بإفاضة عن الخطوات المتخذة لانقاذ الحاميات بما فيها حامية
دارفور (٩٧) .

وفي ٨ مارس سنة ١٨٨٤ م وصّل لبارنج برقية من
جوردون (٩٨) ردا على برقيته السابقة ملخص ما جاء فيها فيما
يتعلق بإرسال الزبير الى السودان معناه ضمان الآتي :

أولاً : اخراج الموظفين المصريين من الخرطوم .

ثانياً : انقاذ حاميتي سنار وكسلا .

ثالثاً : التأثير على من حوله لعلمهم أنه سيقيم هناك إقامة مستمرة .

رابعاً : عدم استطاعته التدخل في مسألة تجارة الرقيق لأن معاهدة سنة ١٨٧٧ م بمنع تنفيذ ، كما أن الجلاء عن بحر الغزال والمديريات الاستوائية سوف يمنعه منعا باتاً ، كما أنه يمكن الضغط عليه في مساكن التي سبقت في أيدي الانجليز .

خامساً : لن يكون لديه الفرصة للاتفاق مع المهدي .

أما فيما يتعلق بسلامة مصر فإن إقامته بالقاهرة أظهرت أنه مبلغ قوتها . أما فيما يتعلق بهدي التقدم في انقاذ الحاميات ، فقد قام جوردون بترحيل الرجال المرضى والنساء وأطفال الذين قتلوا في كردفان ، أما سنار فهي في أمان تام ، وكسلا صاعدة . وختم برقيته بقوله أن كان للمهدي في السودان قوة البابا فسيكون للزبير قوة السلطان ، كما أن الزبير الذي يكره القبائل هو الذي ضاعف نيران الثورة على أهل اختياره هو لأطفائها ، ولعل يد القدرة الحديدية هي التي تحقق له بفيتته إذا ما أرسل إلى هناك (٩٩) .

وكتب ونستون تشرشل يقول : « . . لقد كان جوردون على حق عندما قال بأن الزبير باشا هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يكلف بهذه المهمة ، فنوبار باشا كان يعطف عليه كذلك الدكتور بوهند روف الرحالة الذي كان يؤكد ويثبت ما قاله الجنرال جوردون من تأثير الزبير باشا » (١٠٠) .

وفي نفس الوقت وصلت السير ابفيلين بارننج برقيات أخرى من جوردون تظهر ازدياد خطر المواصلات بين بربر والخرطوم .

وقد أضاف جوردون العبارة الآتية في إحدى برقيات هذه بقوله :
« .. وبالنسبة للخرطوم نفسها ليس هناك خطر عليها .. » ،
وفي ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م نقل بارنج إلى جرانفيل برقية جوردون
المطولة السابقة الذكر والمؤرخة في ٨ مارس وأضاف إليها :
« .. أن إرسال الزبير إلى الخرطوم مع منحه أمانة مالية لا يتعارض
مع سياسة الجلاء ، كما أنه لن يؤثر في مسألة تجارة الرقيق بأي
ناحية من نواحيها ، أما خطر معاداته لمصر فهو خطر ضئيل يمكن
إحتماله ، ولا يمكن احتمال الأضرار المحققة التي تنتج من وراء
الانسحاب بدون أعداد ما يلزم لحكم السودان في المستقبل ويقع
بعد ذلك تحت حكم المهدي » (١ : ١) .

وقد كان من الممكن حينذاك أن ينتصر السير إيفيلين بارنج
بعد هذا فقد قال جلادستون أنه على استعداد لتجريب خطه مع
الزبير رغم أن ذلك سيؤدي إلى أن يسحب مجلس العموم ثقته
منه ، وأعطت الملكة فكتوريا موافقتها ولكن أعضاء مجلس الوزراء
كانوا في رعب من هذا القرار ، كما أنه لم يكن من الممكن أن
يفضل الرأي العام في إنجلترا فكرة جوردون بتعيين الزبير حاكما
للسودان ، فقد كان ذلك من شأنه أن يسقط أي وزارة ، وكانت
هذه المسألة تعادل قرار إبادة الدمار في إنجلترا . ورغم ذلك
نقصد كان من الممكن أن يوافق الرأي العام على تعيين الزبير لو
مُرحلت له أسباب ذلك ، وكانت المراسلات التي جرت بخصوص
الزبير حتى ذلك الوقت سرية ، ولكنه لم يكن مسيرا التقدم بهذا
الاقتراح عن طريق الصحافة ومجلس العموم . وقد اختار جوردون
هذه اللحظة لهدم سياسة الحظر والمثابرة التي انتهجها بارنج ،
وفي لحظة غضب بسبب تأخير طلبه بالسماح له بالمزيد من السلطة ،
وضمع أمام مراسل جريدة التايمز وأمام المجلس البريطاني في
الخرطوم كل المناقشات التي دارت حول مسألة تعيين الزبير (٢ : ١) .

وأما ما يتصل بالسير ايفيلين بارنج بخصوص هذا الموضوع فقد حدثنا تفصيلا عنه بقوله : « . . أنه حدث عندئذ حدث قضى فعلا على كل أمل في الانتفاع بخدمات الزبير ، وحتى تلك اللحظة لم يكن اقتراح إرساله معروفا للناس ، وكان مستر باور مراسلا خصوصيا لجريدة التايمز في الخرطوم . ففي ٨ أو ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م أرسل له موهرلى الذى كان مراسلا لتلك الجريدة للقطر المصرى برقية مرسله له من مستر باور لتحويلها الى الجريدة بلندن ، وفيها يبين أن جوردون اعطاه جميع المعلومات الخاصة بمحتويات برقياته وعقب ذلك وصل بارنج خطاب من ستيورات تاريخه ٨ مارس عن تفصيلات هذا الموضوع مضيفا أنه ضمن هذه البرقيات برقية تتضمن استقالته اذا كانت اقتراحاته لن تنفذ ، كما تضايق من ستيورات لأنه لم يبلغ بارنج بإرسال الزبير مع قوة بريطانية الى بربر ، فأبلغه بأن الصفوية ليست في القاهرة بل في لندن (١٠٣) .

وكتب جوردون في أوراقه بأن بارنج أنهى بإذاعة سسر البرقيات المتبادلة والخاصة بتعيين الزبير في السودان ، وقد صرح بأنه تعمد ذلك لينفذ حكومة جلالة الملكة من الغضب الذى تتعرض له من وراء هذه الخطوة . وقد نتج عن اذاعة جوردون هذا السر زوبعة من الاحتجاجات على تعيين الزبير ، ليس في انجلترا بحسب بل كان سببا في زيادة الصعوبات الخاصة بمفاوضة الزبير نفسه بعد أن كان بارنج في موقف يمكنه من طلب الزبير بأثنا ، وانهاهه بأنه كان غارقا حتى ذلك الوقت في سحابة كفاء حجت سيرته ، وأن الفرصة سنحت لاستعادة اعتباره وخبرته ، وأصبح هو في مركز يتيح له امعلا شروطه على بارنج ، والواقع أنه تلقى النصيح في القاهرة بفعل ذلك ، من أولئك الكثيرين الذين كانوا ينتظرون أية فرصة تمكنه من اظهار عداوته لانتجلترا وهذا ما قاله بارنج (١٠٤) .

أما بالنسبة للأمر الذي أحدثه أمضى هذا السر فقد أرسل
المستر سيبرج رئيس جمعية محاربة الرق إلى اللورد جرانفيل في
١٨ مارس سنة ١٨٨٤ م بأنه مكلف من قبل الجمعية التي انعقدت
بكامبل هيتا لابلاغكم أن أي وضع تضع فيه الحكومة هذا الشخص
وهو الزبير يكون تحقيرا لانجلترا وفضيحة لأوربا ولكن هذا التصرف
من هذه الجمعية ، كان عملا غير حكيم ، فلاحظك أن هذه المعارضة
إلى جانب الحقيقة التي تدل على أن المسألة استغلت حزبيا في
انجلترا ، تسييسيت في رفض آراء كل من بارنج وجوردون
وستورات (١٠٥) .

وقبل أن تعرض برقية جرانفيل ردا على برقية بارنج
المؤرخة في ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م ، يجب أن نشير للمكاتبات
والبرقيات التي طارت بين جوردون وبارنج في ٩ و ١٠ و ١١
مارس سنة ١٨٨٤ م ، ففي ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م أبقى جوردون
لبارنج مخبرا آياه بأنه سينتظر رأيه بشأن الزبير ، فإذا كانت
الأسلاك البرقية مقطوعة فسيعتبر سكوته موافقة على اقتراحه ،
ويبقى في الخرطوم منتظرا الزبير والاستعراض البريطاني في
بربر ، وقد كان لا يزال هناك بعض الأمل في أن يسمح بالانتفاع
بالزبير ، ولكن بالنظر إلى احتمال اضطراب المواصلات البرقية مع
الخرطوم في أية لحظة ، لم يكن عدلا ولا لائقا أن يدع بارنج الأمل
بداعمب جوردون ، بأن الحكومة تنوي إرسال حملة إلى بربر ، لذلك
فقد أرسل له بارنج يجيبه في الحال على برقيته بأنه حسب علمه
لا تنوي الحكومة إرسال قوة إنجليزية إلى بربر (١٠٦) .

وفي ١٠ و ١١ مارس سنة ١٨٨٤ م تلقى بارنج طائفة أخرى
من برقيات جوردون ولكنه أشار فيها إلى أن الشيخ مبيد لم يقرر
بعد الانضمام للمهدى أم لا ، وأن الفائدة المرجوة من استخدام
الزبير قد نقصت كثيرا بسبب تأخير البت في مسألة تعيينه ، مما

أضطر الموالين له إلى الانضمام للعدو . ومما مثله جوردون في برقيته : « .. إذا كانت الحكومة البريطانية مصممة على عمل الاستعراض العسكري البريطاني في بربر وتعيين الزبير والاحتفال بوضعه في الخرطوم يستحق هذا العمل بقاءه في الخرطوم وبالعكس إذا لم تقرر الحكومة هذه الخطوات ، فإنه لا يرى فائدة من بقاءه لأنه يستحيل عليه مساعدة الحاميات الأخرى ، ويتسبب نقط في التضحية بجميع الجنود والموظفين هنا ، واستستطرت جوردون في برقيته يقول : « أنه يرجو أن تقبل حكومة جلالة الملكة استقالته من بعثته ، وأنه سوف يأخذ جميع المخزونات والسفن إلى مديريات خط الاستواء ومديريات بحر الغزال ، حيث يعتبرها كأنها تحت حكم ملك بلجيكا ، وسوف يمكن في هذه الحالة نقل جميع الموظفين المصريين والجنود البيض من بربر إلى دنقلة ثم وادي حلفا ، ويكون هذا هو الرأي النهائي لجوردون ، وهذا في حالة تصميمهم على الجلاء الناجز عن الخرطوم .. » .

وقد أجاب جرانفيل على برقية بارنج المؤرخة في ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م ، وفي ١١ مارس بما يأتي : .. بحثت الحكومة برقيتك المؤرخة في ٩ مارس بعناية فيما يتعلق بحكومة الخرطوم والسودان مستقبلا ، ولكنها تعتبر أن الأجوبة على الاستقهايات الخاصة بتعيين الزبير غير شافية .. وفي ختام البرقية شرح الحلول التي يمكن أن تقدمها الحكومة البريطانية في سبيل اتهام الانسحاب .

وفي ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ م أرسل جرانفيل برقية إلى كرومر جاء فيها « .. تود الحكومة أن تعلم إذا كان جوردون يقصده باقتراحه أن الذي يخلقه على السودان كله أم لا ، وإذا لم يكن ذلك غاية مراكر يخلقه عليها ؟ وهل سلطة هذا الخلف تهدد إلى نقط يمكن أن تكون مراكر تساعد تجار الرقيق وصياديه

على مزاولته نشاطهم « نقل بارنج فحوى هذه البرقية ، وطلب منه البقاء في الخرطوم حتى يتصل ثانية بالحكومة الانجليزية ، وحذره من الذهاب الى بحر الغزال والمديريات الاستوائية بآية صورة من الصور ، ويبدو أن جوردون لم يتسلم هذه البرقية ، وقد ندم بارنج فيما بعد على ارسالها بهذا المعنى ، فقد كان من الأفضل كما قال بارنج أن يترك له الحرية في الذهاب جنوبا ، وكان من الأفضل لبارنج أن يقبل النتيجة التي تدل على أن الحكومة صممت على عدم استخدام الزبير باشا ، فلو كان جوردون أعلن قبل ثورة القبائل بين بربر والخرطوم عن قرب الاحتمال بتعيين الزبير باشا حاكما عاما على السودان مع جنود من السود يكونون تحت تصرفه للمحافظة على النظام لكان من المحتمل ألا ينضم الشسيخ عبيد وأتباعه للمهدى ، وبذا افلقت الفرصة من جوردون ، ويبدو من برقيتي جرانفيل المؤرختين في ١١ و ١٢ مارس أن مسألة تعيين الزبير لم تبحث بعد ، لذلك فقد أرسل بارنج الى جرانفيل ملخصا لبرقيات جوردون الأخيرة وأجاب بانقاسة على الأسئلة التي وجهها له كما أرسل له برقية خاصة جاء فيها : « .. اذا قررتم في النهاية ارسال الزبير ، أرجو ابقاء القرار سرياً اذا أمكن حتى اتحدث اليه هنا ، فقد بلغنى انه لن يذهب الى الخرطوم الا اذا جاء جوردون الى القاهرة خشية اتهامه اذا حدث لجوردون مكروه » ، ولعل إعلان جوردون لمسألة تعيين الزبير أمر مؤسف للغاية ، لأن مراسلى الصحف يترددون على هذا الأخير بينما يحضه بعض الناس في القاهرة على املاء شروطه باعتبار الانجليز لا يستطيع السير بدونه ، وهذا كله يجعل مسساومته شاقة . فاجاب جرانفيل بارنج في ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م بما معناه أنه يرفض اقتراح جوردون بتعيين الزبير أو ارسال جنود بريطانيين الى بربر ، ويترك لجوردون حرية البقاء في الخرطوم لاقامة حكومة مستقرة او الرحيل عنها .

وفي ١٤ مارس سنة ١٨٨٤ م كتب جرانفيل لبارنج يخبره :
« بأن الوزارة اجتمعت مرتين ولم يكن جلاستون حاضرا ،
فكان هناك انقسام في الرأي عن وجود أو عدم وجود منافع للزبير ،
ولكن أعضاء مجلس العموم مجمعون على أنه لا توجد حكومة من
الاحرار أو المحافظين تستطيع تعيينه ، أما مسألة ارسال جنود
الى بربر فهي صعبة جدا فقد تؤدي الى مناعب لا نهاية لها .
وقد اجاب بارنج على برقية جرانفيل المؤرخة في ١٣ مارس ، وقد
استعرض في هذه البرقية تعليمات الحكومة الى جوردون وتعليقه
عليها الى أن وصل » . . ومن الناحية الاخرى اذا كان القصد
مجرد تأجيل اقتراح استخدام الزبير بضعة شهور اخرى ، فأتى
لؤكد أن هذا التعطل لا يسهل مهوريته ، بل على العكس من ذلك
أعتقد أن مشقة اقامة حكومة مستقرة تزيد ولا تنقص . . » .
وقد أشار أيضا الى الرأي القائل بالجلاء الفوري عن الخرطوم ،
والالتجاء الى بربر وصعوبة تنفيذ ذلك ، وأشار الى امكانية التقهر
دون تعرض جوردون ومسئوريات لاي خطر ، وأبدى موافقته
المطلقة على مقترحات جوردون بخصوص سحب الحاميات ،
واعداد حكومة مستقلة كذلك قوله بعدم وجود خلف له غير
الزبير ، وفي نهاية برقيته أشار الى عدم وجود من يخلف الزبير
والأسس الخاطئة التي تقوم عليها الآراء السائدة ضده ،
والصعوبات التي ستظهر اذا ما تم تعيينه (١٠٧) .

تطور الأحداث ، والنتائج التي ترتبت نتيجة عدم استخدام الزبير :

تطورت الاحداث وتتابعت بعد ذلك بصورة خطيرة ليس من
اليسير على اولى الامر في مصر أو بريطانيا ضبطها أو العمل
عليها وقفها بأي صورة من الصور ، ففي الوقت الذي وصلت
عنه الرسالة سالمة الذكر الى جرانفيل التي عرض فيها بارنج
تقويمه للموقف برمه ، وصل من الانباء ما يؤكد انضمام الشيخ عبيد

للمهدي وثورة القبائل ما بين بربر وشندي ، وفي ١٦ مارس سنة ١٨٨٤ م أرسل جرانفيل الى بارنج برقية يبلغه فيها بتمسك الحكومة الانجليزية بتعليماتها الموضحة في برقيته المؤرخة في ١٢ مارس ويخبره فيها « . . وبينما لم يتغير رأيها في الزبير ، ويبدو أن فكرة انتظار النتائج الطيبة من وراء تعيينه تضاءلت كثيرا . . » ، وقد كان واضحا أنه لا فائدة من الاستمرار في هذه المكاتبات ، فالحكومة مصممة على عدم ارسال الزبير ، ولم يعد هناك شك في انضمام القبائل ما بين بربر والخرطوم الى المهدي ، وأن الوقت المناسب لارسال الزبير قد مضى ، لذلك ارسل بارنج الى جوردون في ١٧ مارس سنة ١٨٨٤ م برقية يبلغه فيها بنتيجة مراسلاته مع جرانفيل ، وأضاف اليها بعض الملاحظات التي جاء فيها « . . في ظني أن فكرة ارسال الزبير قد تلاشت نهائيا ، وأن واجبك الآن أن تسير في أعمالك كاحسن ما تستطيع ، وفي حدود التعليمات الواردة في برقيات جرانفيل . . » . ومن المؤكد أن هذه البرقية لم تصله . وفي نفس التاريخ أرسل بارنج الى جرانفيل رسالة ذكر فيها عدم ضرورة الاستمرار في مراسلاته بشأن الزبير (١٠٨) .

وقد بدأت الأحداث منذ ١١ مارس تجري بسرعة بصورة قضت في النهاية على كل أمل في إخلاء الخرطوم . ففي الحادي عشر من مارس كان جوردون قد أبرق بان الثوار يشجعون في حصار الخرطوم ، وفي نفس اليوم أبرق لشقيقته يخبرها بأنه ربما قد تكون هذه آخر رسالة يبعث بها لها نتيجة لتخرج الموقف . وفي ١٢ مارس قطع الثوار الخط التلغرافي ما بين الخرطوم والعالم الخارجي ، وقد كان ذلك سببا في أن جوردون لم يلق في حينه البرقية التي بعث بها بارنج مع التعليمات المرسلة له من لندن بتاريخ ١٢ مارس ، ولا شك أن جوردون

كان لا يزال لديه الفرصة - برغم قطع خط التلغراف في ١٢ مارس وبداية الحصار على الخرطوم ، وكذا خلال شهر أبريل بأكمله وحتى منتصف مايو - للخروج من الخرطوم والنجاة بنفسه ومن معه عن طريق بربر . ولكنه اضاع هذه الفرصة في الفترة من ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م حتى ١٢ مارس ، ولم تصل اليه رسالة بارنج المؤرخة في ١٣ مارس الا في ٩ أبريل عن طريق رسول خاص (١٠٩) .

وفي ٢٨ مارس سنة ١٨٨٤ م كتب جرانفيل لبارنج رسالة مطولة مسرد فيها أسباب رفض استخدام الزبير ، وأشار الى الاتهامات التي دأب جوردون في مناسبات مختلفة على ترديدها في احاديثه عن الزبير ، كما أشار بشيء من الدقة الى أن بارنج وستيورات سبق أن غيرا في آرائهما الاصلية تغييرا كبيرا في مراسلاتهما (١١٠) .

وفي ١٤ أبريل سنة ١٨٨٤ م أجاب بارنج ببرقية أشار فيها الى ما تضمنته رسالته السابقة عن مسألة تعيين الزبير ، وتعبيرها بصدق عن رأى الحكومة وجاء في نهايتها ما يأتي « . . فإذا تيسر في النهاية الوصول الى حل - افضل من الحلول السابقة ، غاى أكون أول من يسلم بخطئه في اقتراح ارسال الزبير » (١١١) .

ولا يغيب عن اذهاننا أن نذكر انه في الوقت الذي رأى فيه جوردون أنه لا فائدة من استمالة المهدي ، فكر في انتداب الزبير ماشا ليكون وكيلا له نظرا لأنه من رجال السودان العظام وله كلمة مسوعة وأقارب وأخوان ، فأرسل له برقية يقول له فيها « . . سعادة انقدم الزبير باشا بهصر نحن عينا سعادتكم وكيلا تحكيدارية عموم السسودان ، فيكون معلوم سعادتكم ذلك وعند حضوركم لبربر تخابروننا وتسمعون لما فيه الامسسالاح بحضور

سـمـعـائـتـكـم تـنـظـروـن فـيـمـا إذا كان يـمـكـن أرسـسـال وأبـورين
لـحـضـور سـمـعـائـتـكـم ويـجـرى أرسـالـهـما وسـمـعـائـتـكـم تـعـمـلـون تـرتـيـب
كـيـفـيـة حـضـورـكـم للـخـرطـوم بالأبـورين المـذـكـورين والـاثـنـين
الـآخـرين بـبـرير بـواسـسـطـة أـمـال درأوى من الحـديـد لـوقـاية ما بـهـم
من العـسـسـاكر من ضـرب الرصـصـا من وتـحـضـرون ما هو لـازـم مـعـكم
من الجـعـلـيـن وتـعـمـلـون مـقـدـمـا اسـتـكـشـافـات بالطـرـيـق بـدون مـخـاطـر
لـسـمـعـائـتـكـم انـتـم «(١١٢) .

فـاجـاب الزبـير عـلـيـه فـي ١٦ أـبـرـيل سـنـة ١٨٨٤ م بالتـلـغـراف
التـالـي « ألى جـورـدون باشا بالخـرطـوم — قد تـشـرـفـنا بـورود تـلـغـراف
سـمـعـائـتـكـم المـتـضـمن تـعـيـيـنـنا من طـرف سـمـعـائـتـكـم وكيـلا لـحـكـمـاريـة
عـمـوم السـودان وتـعـرف سـمـعـائـتـكـم انـنا فـي غـايـة التـشـكر
ونـهاـيـة المـنـونـيـة من حـسـن التـفـات سـمـعـائـتـكـم وجـمـيل تـوجـهـاتـكـم فـي
سـائـر الأـحوال ويسـوعـنى ان أعـرف جـنـابـكـم مـع غـايـة الأسـف بأن
الـحـالـة الحـاضـرة لا تـسـعـف الآن بالمـرغـوب وأرجو الله تـعـالى ان يـنـيـم
سـسـلـامـتـكـم ويـتم نـجـاحـكـم بما فـيـه الخـير والصـلـاح العـمـومى
انـتـم «(١١٣) .

ولم يـبـخـل الزبـير باشا عـلى جـورـدون بالمـسـاعـدة بـنـاء عـلى
أوامر الحـضـرة الخـديـويـة ، مـقـد أرسـسـل فـي ٢١ مـايـو سـنـة
١٨٨٤ م بـواسـسـطـة فـضـل الله انـندى ومـحـمد أبو جـبـالى ومـحـمد
ولـد رـحـمـة خـطـابـين الى عـشـائـر السـودانـيـين والـقـبـائـل المـحـاصـسـرة
والـخـرطـوم يـرجـوهم فـيـها ادخـال هـؤـلاء الـثـلـاثـة لمـقـابـلة جـورـدون ،
وطلـب مـنـهم ان يـطـلـقـوا لـه الحـريـة ويـرأقـوه حـتى كرسـكـور فـي حـنـة
ما إذا اراد المـهـاجـرة ، ولـكن كل هـذه الجـهـود لم تـفـن شـيـئا ، وكان
هـذان الخـطـابـان مـوجـهـين الى أعيان السـودان لنـصـحـهم لـاظـهـار
الطـاعـة والـانـضـمـام لجـورـدون «(١١٤) .

ولقد كان لقطع المواصلات بين الخرطوم والعالم الخارجى أثره فى دفع الوزارة البريطانية فى التفكير فى إرسال حملة لانتقاذ جوردون تصل الى هناك فى نوفمبر ، فى حين يتولى جوردون الدفاع عن الخرطوم حتى هذا الميعاد ، وفى ١٩ مايو سقطت بربر ، وفى ١٢ يوليو أرسل جوردون الى القاهرة بأنه يستطيع الدفاع عن الخرطوم لمدة أربعة اشهر ، ورغم أنه أخذ فى خلال هذه الفترة الجهد لرفع الحصار والحصول على المؤن الكافية وتحصين العاصمة ، ورغم احرازه لبعض الانتصارات على قوات المهدي ، فان كل هذه المحاولات لم تفلح ، فقرر أخيراً إرسال ستيورات لمصر لشرح الموقف واستعجال حملة ولسلى الا أنه قتل هو ومن معه فى ١٨ سبتمبر سنة ١٨٨٤ م قبل أن يصل الى مصر (١١٥) .

حملة الجنرال ولسلى :

عينت انجلترا الجنرال اللورد ولسلى قائدا عاما فى مصر ، وأصدرت تعليماتها الى الجنرال سستيغفنسن قائد عام جيش الاحتلال البريطانى بأعطائه كل معونة ممكنة ووصل اللورد ولسلى الى القاهرة فى ٩ سبتمبر سنة ١ٸ٨٤ م وكانت معظم القوات المصرية فى ذلك الوقت على الحدود ، عاملة على تحصين أسوان وكروسكو ووادى حلفا ، فأصدر ولسلى أمره الى الجنرال وود سردار الجيش المصرى بالاضطلاع مع رجاله لبحث التسهيلات للحملة الجديدة ، وصل ولسلى الى وادى حلفا مصحوباً بآركان حربه فى يوم ٥ أكتوبر وقرر البقاء فيها لمدة شهر قبل سفره الى دنقلة . وفى يوم وصوله استلم تقريراً من الميجر كتشنر ، يذكر فيه أن الكولونيل ستيورات - مساعد جوردون فى الخرطوم - قد ضُرب بربر بقنابل مدفعية احدى بواخره التى كانت تحمل

أربعين جنديا ، وأن البواخر الأخرى المصاحبة لها قد اضطرت إلى العودة إلى الخرطوم ، أما هذه الباخرة فقد اصطدمت بالشاطئ على بعد يومين من مروي ، واضطر رايكوها للنزول منها ، مما نتج عنه قتل ستينوارت وصاحبه بعد مهاجمة الأهالي لهم . كان من نتيجة ذلك أن وصلت تعليمات برقية من لندن بعد ثلاثة أيام إلى ولسلي تشرح له أن هدف حملته الرئيسى هو مساعدة الجنرال جوردون على ترك الخرطوم ، فعليه أن يتجنب كل عملية هجومية بعد ذلك . ولقد أصرت هذه التعليمات على ضرورة تحديد ولسلي لعملياته إلى أقصى درجة ممكنة ، وكان عليه أن يتذكر جيدا أن سياسة الحكومة البريطانية هي العمل على إنهاء سلطة مصر على السودان . كما أنها تقبل تعيين أحد الرؤساء الوطنيين — غير الزبير — للمحافظة على النظام ، وضمان حسن سير الملاحة في النيل ، والمحافظة على السلم مع مصر ، ودفع الهجمات الموجهة ضدها من الثوار ، وعدم تشجيع تجارة الرقيق .

أمر ولسلي مدير دنقلة بالسير في أقرب وقت ممكن صوب مروي ، ويعمل كل ما في وسعه لكي يصل إلى تحرير الأوربيين الذين قد يكونون قد وقعوا أسرى في أيدي الأهالي هناك . وكان على هذا المدير أن يحاول اغراء رجال القبائل على اقتداء الأسرى الأوربيين بمبلغ من المال . ولكن وقت العمل كان قد انقضى ، وأبرق ولسون في يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٨٨٤ م أن الأهالي قد رأوا جثثا تعوم في النيل منذ ثلاثة أسابيع . وهكذا لم يكن في استطاعة أي عملية حربية أن تنفذ هؤلاء الأوربيين .

وقد اعترضت عقبات كثيرة وجسيمة طريق النيل هذا ، فكانت الحملة تحتاج إلى ٨٠٠ سفينة ذات غاطس مسطح لنقل الجنود حتى مروي ، وكانت تحتاج إلى عدد كبير من الجمال لنقل

المهمات ولهاهم الاستطلاع في الصحراء صوب الخرطوم ، ثم كان على المصريين أن يقوموا بجرها فوق الشلال . ويبدأ ركوب الجند في السفن في أول نوفمبر ولكن سرعان ما ظهرت مصاعب جديدة ، وهي نقص كمية الفحم اللازم لتسيير هذه السفن ، مما تسبب في تعطيل جديد لمدة ثلاثة أسابيع .

وفي أثناء ذلك الوقت وصل الجنرال ونسلي إلى دنقلة في يوم ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٤ م ، وقرا في اجتماع رسمي فرمانا صادرا من الخديو وموجها إلى المديرين والعلماء والقضاة والوجهاء والتجار وشيوخ القبائل في السودان يعلنهم فيه أنه قد عين قائدا عاما للقوات البريطانية المرسلة للسودان ، وأنه قد حصل على تعليمات من الخديو ، وصار من الواجب عليهم اطاعة أوامره .

ووصلت القوات البريطانية مقتبعة إلى كورتى ثم أصبدر ونسلي أمره إلى الجنرال ستيوارت في يوم ٣٠ ديسمبر بالتقدم في الصحراء صوب شندي ثم صوب المتمة على النيل حيث كان يأمل أن يصل بعد أسبوع . ولكنه اشتبك وهو على بعد ٢٢ ميلا من هذه القرية في قتال مع قوة من الثوار من بربر والمتمة وأم درمان تبلغ حوالي ١٠٠٠ رجل . ولكن هذه المعركة المسماة أبو طليح لم تمنع الانجليز من التقدم صوب الخرطوم .

وتسلم الكولونيل ولسمسون قيادة هذه القوة البريطانية المتجمعة قرب النيل وشاهدت في يوم ٢١ يناير سفين جوردون الأربع التي كانت قد حضرت لطلب الانتقاذ والنجدة . ولكن الانجليز أضاعوا ثلاثة أيام في سحب هذه السفن فوق الصخور في الشلال السادس وما أن وصلوا إلى قرب جزيرة توتى حتى تأكدوا من عدم وجود أى علم يرغرف على سراى الحاكم العام في الخرطوم . وبعد قليل هاجمت ثيران مدفعية الثوار السفن المصاحبة

للقوة الانجليزية . كانت الخرطوم قد سقطت في أيدي الثوار في يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ م ، ووصلت النجدة متأخرة .

أما الجنرال السير ايفلين وود الذي كان قد استلم أوامر ولسلي — بعد مقتل ستيوارت وقبل وصول أنباء سقوط الخرطوم — لتنظيم انسحاب الجنود ، فإنه قابل القوة الانجليزية في منتصف الطريق مائدة من الخرطوم مؤكدة سقوطها في أيدي السودانيين . ولم يكن هناك أي مجال للقيام بأي عملية هجومية ، خصوصا أنه لم يبق للانجليز الا ٣٥ جملا من ٢٢٠٠ ر . وكان على الجنرال وود أن يعنى بالجرحى وبمخازن الامداد والقوي بين رجال منهوكي القوى وفي حالة لا يحسدون عليها من الروح المعنوية وقد كان هذا الهجوم المضاد من جانب القوات البريطانية في شرق السودان وشماله ، علاوة على تأثيرات امدادات حملة الانقاذ مما ساعد على تقوية روح الكفاح عند انصار المهدي وأدى الى سقوط الخرطوم في أيديهم ، كمرحلة نهائية في انتصارات الثورة (١١٦) .

وهكذا كانت نهاية تصميم وعناد الحكومة البريطانية — ممثلة في جلادستون وجرانفيل والسير ايفلين بارنج في القاهرة — في عدم الأخذ باقتراح جوردون باستخدام الزبير في مساعدته في عملية الاخلاء بالسودان أو الموافقة على تعيينه حاكما عاما للسودان بعد خروج جوردون وستيوارت منها . ورغم تأييد الكثيرين من المصريين والانجليز أنفسهم لهذا الاقتراح ، ورغم البرقيات الكثيرة التي تبودلت بين القاهرة والخرطوم من جهة وبين لندن والقاهرة من جهة أخرى بخصوص هذا الاقتراح ، فإنه لم ينق صدق لدى السياسة الانجليزية وكان اعتراضهم على ذلك هو ان الزبير أولا وقبل كل شيء تاجر رقيق ، وليس من المنطق أو اللائق تعيينه في مثل هذه الوظيفة أو طلب مساعدته لجوردون في المهمة التي وكلت اليه في السودان . رغم أنه لم يكن هناك حل

بديل لهذا الاقتراح ، كما أن الحكومة الانجليزية كانت تخشى عند تعيين الزبير أو الاستعانة به في السودان أن يقوم بالانتقام من جوردون لقتل ابنه ، وهذا من الأسباب الظاهرية التي تحجج بها سياسة الانجليز لعدم الأخذ باقتراح جوردون باستخدام الزبير . لأن السياسة البريطانية في ذلك الوقت كانت تهدف إلى أبعد من ذلك وهو إقصاء النفوذ المصري عن السودان بأية وسيلة ، ولو كان ثمن ذلك حياة جوردون وسسستيوارت ومن معها من المصريين والأوربيين على السواء . ولم تكن حملة ولسلي سوى خطوة اتخذتها الحكومة الانجليزية من جانبها ، حتى لا يقال أن إنجلترا قد تركت قائداً من أبنائها دون أن تهب لانتقاذه كما كان الهدف منها اظهار روح التعاون في صورة مزية للخديو في مصر بأن إنجلترا حريصة على عدم عقد مصر للسودان . وقد ترتب على عدم الأخذ باقتراح تعيين الزبير باشا حاكماً عاماً للسودان أو الاستعانة به في عملية الاخلاء النتائج الآتية :

أولاً : ضياع الوقت الذي كان في الامكان استغلاله للقيام بعمل عسكري مخطط لتنظيم عملية اخلاء الحاميات المصرية في السودان بجميع مديرياتها .

ثانياً : فشل حملة هيكس باشا ووقوعها في شرك قوات المهدي وكان من الصواب عدم إرسالها في هذا الوقت ، وإلى هذا المكان (كردفان) لأن هزيمتها كانت سبباً في تقوية شوكة المهديين وإضعاف القوة الدافعة للاستمرار في عملية سحب الحاميات المصرية من السودان .

ثالثاً : تقلص النفوذ المصري رويداً رويداً من مديريات السودان حتى انتهى إلى الخرطوم التي كانت هي الأخرى عرضة لزعوال النفوذ المصري منها بين لحظة وأخرى .

رابعاً : فقد مصر لاعداد هائلة من جنودها وموظفيها نتيجة عدم التخطيط الجيد لعملية الاخلاء او الاخذ بالنسب الحلول وهو تعيين الزبير باشا في عملية الاخلاء ذاتها .

خامساً : مقتل كل من ستيوارت ومن معه قبل ان يصل الى القاهرة لشرح الحالة على المسؤولين بها كي تسرع الحملة الانجليزية في التقدم لانقاذ الخرطوم .

سادساً : مقتل جوردون باشا قبل ان تصله حملة الانتقاذ بعد ان ضيق عليه السياسة الانجليز الخناق من جميع النواحي ، فكما كان يقترح كانوا هم يرفضون دون بديل لمقترحاته ، حتى اقي مصيره المحتوم على ايدي المهديين .

سابعاً : بروز مكانة وأهمية الزبير وبسط هذه الاحداث وظهوره بمظهر الرجل المنتقذ الذي لا غنى عنه في جميع الاحوال .

ثامناً : القضاء نهائيا على النفوذ المصري في السودان بسقوط العاصمة الخرطوم في ايدي المهديين ومقتل جوردون وفشل حملة ولسلي .

تاسعاً : يضاف الى ما سبق من نتائج رئيسية انه كان هناك نتائج جانبية او فرعية اهمها فقد الحكومة المصرية للكثير من الاموال ، والاسلحة والذخائر ، والسفن وما الى ذلك من المخزونات التي كانت توجد بالخرطوم وعواصم المنيريات .

وهكذا كما رأينا النتائج التي ترتبت على عدم الاخذ باقتراح جوردون باستخدام الزبير وهي ولا شك كان لها تأثيرها الواضح على الموقف السياسى والعسكرى في كل من مصر والسودان وما جاورها في ذلك الوقت . ولو ان الحكومة البريطانية لم تتشدد وتصر على عنادها ، لكانت النتائج التي سبق ذكرها عكس

ذلك ، ولكن لم يكن هناك من سبيل إلا أن تتقبل الحكومة المصرية هذا الوضع على مفض منها نتيجة الضسفسط السفسفس الذى مارسفه علفها برفسفانفا مفسف فى معفمفها السفسفسر افسلففن بارفسج (كرففر) وما فبع ففك من افسفلالها العسكرف لمصر .

ما بفن مؤففى ومعارفس اسففءام الفزفر فى السفءان :

وقف كان هناك الكففر ممن كافوا يؤفءون اقفراف اسففءام الفزفر فى السفءان وكفلك كان هناك القفلون الففن بمعارفسون ففك ، إلا أن المنطق والصواب فقران اسففءام الفزفر فى هفف المرحلة الفرفة من فارفسج السفءان ، لأنه لم فكن هناك من حل آخر للخرفج من هفف الأزمة الفف ففاقف فى ففك الوقت . وسوف نعرف هنا لأراء من فناولوا هفا الموضوع فى المعالفة الفارفسفة من مؤرففن وسفسفسفن سواء من المصرفن أو الأفافب .

كفب السفسفس المعروف ونسفنون فشرشل فقول فى هفا الموضوع : « . . فجب علف مؤرفى المسففل أنفسهم فى فقرر افها كان علف فف أو علف باطل ؟ جورفون ومؤفءوه أم الفكومة الانفسفزة ؟ والفى بفءو أن الفكومة البرفسفانفة لم فكن مفعمة فعلا بففف المسألة مفسفئف فى هفف الفالة ففس لففها هناك أى سفسب أو فف فى ففوففها الفرفة علف الفزفر » . وفى موضفج آخر فقول : « . . وكان رفض المسفساف بففعفن الفزفر باشا بمفابة فبول أو الفسلفم بأن فسفن أو أعمال السفءان كلفا فى المقام الأول ففس شرف انفسفرا كفا أنها ففس شرف مصر . . وبرفض المساف للفزفر باشا للفهاب إلى السفءان بفأ نزاع فوفل فففلفه فوع من الفأس بفن الفكومة ومؤفءفها ومعارفسفها ، وكان من الواجب علف الأطراف الفرفة الفف لها فلة بالموضوع أن فقفرج حلولا أخرى

عندما أوصى هؤلاء برفض طلب الزبير رغم أن جوردون ومن معه كانوا يضعون الخطة تطو الخطة بقصد عدم عقد الأمل في الوصول إلى حل مناسب ، ولكن الطرف الآخر وهو الحكومة البريطانية اتخذ موقفا عكسيا يتسم بالصلابة والعناد تجاه هذه المشكلة .. « (١١٧) » .

ونخرج بنتيجة مؤداها أن ونستون تشرشل — وهو رجل به ثقله في عالم السياسة — كان من مؤيدي الأخذ بأحد الحلول التي اقترحها جوردون ومن أهمها استخدام الزبير باشا ، وليس رفضها جميعا دون أننى سبب لذلك ، وقد عاب كما رأينا موقف حكومته المتشدد من جهة عدم قبول تعيين الزبير في السودان دون النظر لمصلحة مصر وإنجلترا من وراء تعيينه .

ومن الآراء التي عرضت بشأن استخدام الزبير ما كتبه د . جلال يحيى بقوله : « .. بدأ الجنرال جوردون مهمته في الخرطوم دون أن يظهر من بعد النظر مثل ما أظهره مساعده الكولونيل ستيوارت ، فاعتقد منذ وصوله للخرطوم أنه جاء إلى السودان محررا ، ولكن سرعان ما تبلور شعور "السودانيين نحوه" وشعر هو بالاتجاه الطبيعي لهذا التبلور ، فاضطر إلى تغيير اتجاهه بشكل يجعل منه أكثر تطابقا مع أوامره التي استلمها من لندن . وسرعان ما شعر جوردون بتلك الحمى التي سادت السودان في ذلك الوقت حقيقة أن جنوده كانوا من المصريين والسودانيين ، ولكنه كان أجنبيا قبل كل شيء . وكان جوردون يعتبر بالنسبة لتلك الجماعة من الثوار — الذين كانوا يأسفون على إلغاء تجارة الرقيق — أكبر عدو قديم ، وأخذ اتجاه الثورة الدينية يزداد وضوحا بعد وصول جوردون المسيحي . شعر جوردون إذن بنوع من العزلة النفسية ، وشعر أنه لن يقدر على عمل أي

شيء بمفرده ، فأخذ يطلب من الحكومة الانجليزية في كل يوم طلبا جديدا ويقترح عليها اقتراحا خاصا .

وكان اقتراح جوردون الخاص بارسيسال الزبير هو أكثر الاقتراحات التي ألح عليها ، ولم يكن يهدف من هذا إلا إلى تأكيد فصل السودان عن مصر ، وتأكيد سيطرة إنجلترا على شئون السودان . وقد استطاع في هذه المسألة أن يكسب تأييد السير ايفلين بارنج ، وهو من اعتبرته إنجلترا خبيرا في الشئون السودانية ، وكان هذا ناتجة لتأييد آخرين من المسئولين البريطانيين في القاهرة . وهكذا نرى أن سستيوارت الذي كان مترددا في هذا الموضوع يصبح المنادى بتنفيذ هذه السياسة ، مثله في هذا مثل نوبار ، وسيؤيد السير ايفلين بارنج جوردون في هذا المشروع كل التأييد وسيؤسف من الأسف على رفض الحكومة البريطانية له . . » .

وفي موضع آخر يقول : « . . وجدت الحكومة البريطانية نفسها في موقف حرج ، وخاصة إزاء الرأي العام البريطاني ، واحتجاجات جمعية منع تجارة الرقيق . وكان جوردون قد بدأ بإعادة تجارة الرقيق في السودان ، وأخذ يطلب بارسال الذي كان أكبر تاجر للرقيق في الاقاليم السودانية . ولم تكن الحكومة البريطانية مستعدة للتفكير في هذه الأمر ، وكانت ترفض كل مسئولية تنتج عن إرساله . . » .

وفي موضع آخر يقول : « . . وأخيرا فإن فكرة ارسيسال الزبير إلى الخرطوم قد رفضت نهائيا ، وكان هذا الرفض البات سببا في نشوب الخلاف بشكل نهائي بين حكومة لندن ومبعوثها في الخرطوم ، فاعتقد جوردون بأن حكومته تريد فرض رأيها عليه ، وأن تحرمه من حرية الحركة ، وتقطع عليه خط التراجع ، واعتقد

أن رفضها الموافقة على إرسال الزبير لاخلاء الحلييات من السودان يفرض عليها مسئولية انقاذه هو في وقت قريب . وإذا كان على الحكومة البريطانية أن تحدد مسئولياتها ومسئوليته هو ، فلم يكن عليها إلا أن تقبل استقالته من هذه المهمة ولكن شيئا من هذا لم يقع . وقد جوردون سيطرته على أعصابه ، ولكنه بقي في الخرطوم مدعيا أن شرعه الشخصي يحرم عليه التخلي عن عهد بهم إليه « (١١٨) » .

حتى السير ايفيلين بارنج بعد مضي عدة أعوام يرى أن استخدام الزبير كان أمرا واجبا ، ولو لم تضع الحكومة البريطانية المراقيل التي تمنع استخدام الزبير وقت إرسال برقية جوردون الأولى في ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م لتغير سير الحوادث ، ولو أيد ستورات جوردون مرة واحدة لاضطر بارنج للاستسلام للحاج جوردون في طلب إرسال الزبير ، وهو الطلب الذي كره الموافقة عليه في الابتداء ، ولأمكن سفر الزبير في نهاية فبراير أو أوائل مارس ، ومن الجائز أن اعلان سفره كان سوف يمنع القبائل المتارجحة في وقتها حول الخرطوم من الانضمام للمهدي . ولكن الفرصة المواتية افلتت سريعا ويتضح مما حدث بعد بحث للمسألة امتد الى أسبوعين وهو أكثر من المدة الضرورية لبحثها ، وحتى لو خضعت الحكومة البريطانية وقت انتهاء المراسلات في منتصف مارس لما أمكن عمل شيء مفيد بعد نوات الفرصة ، وقد كتب لورد نورثبروك لبارنج يبلغه بأنه يعتقد بأنه لو أرسل الزبير الزبير لكان إرساله رمية من رميات مقابر ، وأن جميع الاحتمالات كانت توحى بانقلاب على جوردون ، وأن من شأن توطيد سلطته أن يكون خطره على مصر أكثر من الخطر الذي تتعرض له الآن ، والرأي الذي انتهى إليه لورد نورثبروك كان ضد الزبير ، ولو أن

بارنج كان يرى أن الفسائدة من تعيين الزبير تتأرجح على تلك
المجازفات عند الموازنة مع عدم تعيينه (١١٩) .

وفي ٢١ مارس سنة ١٨٨٥ م أرسل جرانفيل الى بارج
خطابا يبلغه فيه بأنه كان هناك تشكك كبير في الآراء حول استحقاق
الزبير لإرساله الى السودان ، ولم يكن شيء من هذا القبيل بالنسبة
للمصويت في مجلس العموم . فقد حدث أن ثلاثة من الأعضاء
المؤيدين للزبير لم يتغلبوا عليه ويوافقوا على اقتراح لوم الحكومة
المقدم فقط بل طالبوا برفض اقتراح إرسال الزبير في الحال .
أما جلادستون فقد قال في مجلس العموم في يوم ٢٢ فبراير سنة
١٨٨٥ م ، أنه لو وافقت الحكومة البريطانية على إرسال الزبير
عندما طلب منها ذلك ، لكان أي خطاب يرسله هذا المجلس
الى التاج كافيًا لشغل حركة الوزارة قبل مضي ٤٨ ساعة ،
وبرغم أن قرار الرفض كان نتيجة لرأي الوزارة وحكم أعضائها ،
فإنه حكم البرلمان وحكم الناس أيضا على المسألة . ولا شك
أن أكثر هذا الدفاع صحيح لولا وجود الاختلاف البين بين الحكومة
من جانب والبرلمان والجمهور في الجانب الآخر فالأولى كانت على
علم بالحقائق ، والجانب الآخر يجهلها الى حد كبير ولو تم تعيين
الزبير لكان من المحتمل أن تكون تفادي وقوع كارثة بالخرطوم ، فإذا
كان بارج على رايه هذا فالمسئولية الرئيسية وأثمة بالطبيعة
على الحكومة التي يرأسها جلادستون وكانت العدالة تقضي
بتسليم هذه المسئولية بين البرلمان الاتجليزي والشعب
وخصوصا جمعية محاربة تجارة الرقيق ، وبالرغم من ذلك وحتى
مع افتراض عدم الخطأ في تقدير الحقائق يجب التسليم بأن أي
حكم غير صائب في مسألة بالغة الصعوبة كهذه المسألة يستحق
التسامح فيها على الأقل (١٢٠) .

ويمكن تلخيص الأسباب التي أدت إلى عدم استخدام الزبير فيما يلي :

أولاً : الموقف المتعنت الذي اتخذته جمعية مقاومة تجارة الرقيق تجاه الزبير ، واثارتها للرأى العام البريطانى من طريق الصحف ، وكذلك الحكومة البريطانية ممثلة فى جلادستون وجرانفيل .

ثانياً : سياسة المراوغة التي مارستها الحكومة الانجليزية تحت رئاسة جلادستون وجرانفيل فى الاجابة على المقترحات والحلول التي كان يقترحها جوردون ، وبلغها الى المسؤولين فى الحكومة الانجليزية من طريق السير اينيلين بارنج فى القاهرة ومماثلة الحكومة فى اتخاذ رأى حازم وصريح فى أى منها .

ثالثاً : الضغط الذى مارسه الحكومة الانجليزية على الحكومة المصرية لكي تمنعها من أن تتخذ أى قرار من جانبها تراه ضرورياً لانتفاذ الموقف فى السودان ، وعلى الأخص الأخذ باقتراح استخدام الزبير الذى لم يكن هناك حل بديل له لانتفاذ الموقف .

رابعاً : عدم ثقة الحكومة الانجليزية فى المقترحات والآراء التي اقترحها جوردون حلاً للموقف الشائك فى السودان ، مما جعلها تستغرق مدة أكثر من اللازم للتأكد من صحة مقترحاته هذه ، مما جعل الموقف فى السودان يسير من سيئ إلى أسوأ حتى أفلت زمام حل الموقف من يديها فى النهاية .

خامساً : السرية التي فرضتها الحكومة الانجليزية وساستها على البرقيات والمكاتبات المتداولة بينها وبين بارنج من ناحية وبين سارنج وجوردون من ناحية أخرى حول اقتراح استخدام الزبير فى السودان أو تعيينه حاكماً عاماً عليها ، مما جعل الرأى العام البريطانى والسياسة البريطانية تجهل حقائق الموقف ، وحقيقة

شخصية الزبير المؤيدة لتعيينه في منصب الحاكم العام ، والتي لو حررها الشعب والصحافة لكان بالإمكان أن يتغير الموقف لصالح الزبير لصالح كل من الحكومة المصرية والبريطانية والسودان ذاته ، وفي نفس الوقت انتقاد جوردون من الموقف المتحرج الذي أوقفته فيه سياسة حكومته المتقوية .

سائلا : كثرة ما اقترحه جوردون من خطط وافكار الواحدة طو الأخرى دون التمسك بأحد هذه الحلول ولو لمدة وجيزة حتى يتم البت فيها ، مما جعل المسئولين من الانجليز يتشككون في ايها يصلح للخروج من هذه الأزمة ، كما أنهم كانوا ضد فكرة ارسال حملة لانتقاد جوردون وتعيين الزبير . وعلى كل فقد أيد كل من السير اينلين بارنج وستيوارت وتوبار باشا والحكومة المصرية الاقتراح الخاص بتعيين الزبير حاكما على السودان لانتقاد الحاميات المصرية أولا ولانشاء حكومة مستقلة في البلاد بعد رحيل جوردون عنها ، وذلك عن اقتناع بمنطق الحقائق والواقع الحي للمشكلة دون أدنى تحيز ، ولكن كان لكل طرف من هذه الاطراف بعض التحفظات التي اشترطها لاستخدام الزبير أو أي حل آخر لانتقاد الموقف في السودان .

نفي الزبير باشا الى جبل طارق سنة ١٨٨٥ م :

انتهينا الى ان اعداء الزبير من الانجليز وغيرهم قد نجحوا في مساعيهم من اجل العمل على انهيار اقتراح جوردون باستخدام الزبير في السودان بعد ان وضعوا امامه ما شاعوا من العراقيل في طريق هذا الحل ، واغلقوا جميع المنافذ دون ان يطرحوا حلا بديلا لاقتراح استخدام الزبير ، أو ابداء اسباب رفضهم لهذا الاقتراح ، أو الاخذ بأحد الحلول التي اقترحتها جوردون وستيوارت.

للخروج من الموقف المتأزم ، بل رفضوها جميعا وتركوا جوردون ومساعدته سنيوارت وحيدين يصارعان المهدي وجيوشه بما لديهم من إمكانيات لا تذكر ، الى أن انتهى الأمر بمضرع سنيوارت أثناء توجهه الى مصر لاستعجال حملة الانقاذ ، ومقتل جوردون في النهاية بعد تمكن المهديين من دخول العاصمة الخرطوم ، وفي أثناء وجود ولسلي وحملته في دنقلة تم ضبط أربع خطابات قيل انها من الزبير باشا أرسلها لأحد المشايخ في أسوان لتسليمها للمهدي ، فبعث ولسلي ببرقية الى بارنج في القاهرة بهذا المعنى لكي يأمره بالقبض على الزبير باشا ، وعند عرض هذا الموضوع على الخديو وتوبار باشا لم يوافقا على ما جاء ببرقية ولسلي (١٢١) .

وقد ترتب على ذلك أن اشاع المفرضون من أعداء الزبير أن الهدف الأساسي من المكاتبات التي تم ضبطها والمرسلة من الزبير للمهدي ، هو التهديد لهروب الزبير الى السودان لكي يشترك المهدي في ثورته وقيامتها ، ثم العمل بعد ذلك معا للزحف على مصر ، وهكذا أفلح الواشيسون في وشايتهم وتم القبض على الزبير (١٢٢) .

لم تلبث الأوامر أن صدرت الى قوات البوليس في مساء ٢١ من يناير سنة ١٨٨٥ م بمحاصرة قصر الزبير بالقلي (١٢٣) ومهاجمته لتفتيشه ، والبحث عما يثبت لهم اتصاله بالمهديين ، فلم يعثروا بعد عملية تفتيش دقيقة على شيء يؤيد دعواهم هذه ، فعادوا وان كانوا لم يكتفوا بعد ذلك عن تحيين الفرصة المناسبة للقبض عليه وإبعاده عن القاهرة . الى أن كان صيف نفس العام عندما دعاه الشيخ عمر السنوسي أحد العلماء المغاربة ، وكان يقطن بالاسكندرية ، لقضاء أشهر الصيف هناك ، فقبل الزبير الدعوة فسافر الى الاسكندرية ونزل غيليا عليه . وفي صباح أحد

أيام شهر يوليو سنة ١٨٨٥ م طلب مقابلة الزبير أحد الضباط
الإنجليز ، وبعد مقابلته أبلغه في رقة ولطف أن قائد السفينة
انديا — India — وكان قد تعمسرف عليه الزبير من قبسل في
دار محافظة الاسكندرية أثناء زيارته له — بدعوه لتناول قدح من
الشاي على ظهر السفينة في الساعة الرابعة من بعد الظهر
فقبل الزبير الدعوة شاكرا ، ومضى الى هذا الميعاد دون أن يدرك
ما الذي تخبئه له الأقدار من وراء هذا الكرم المفاجيء من القائد
الإنجليزي ، وهذه الدعوة غير المنتظرة ، وبعد أن مرغ الاثنان من
تناول أقذاح الشاي وتبادل الأحاديث ، تاهب الزبير لمقادرة
السفينة ، عندئذ تلاحظ للزبير أن السفينة قد بدأت ترفع مراسيها ،
وتمضي بهم متجهة نحو عرض البحر . أدرك الزبير المغزى من وراء
هذه الدعوة ، ثم تلفت الى القائد الإنجليزي كأنما يسأله تفسيرا
لهذا الاقتلاع المفاجيء ، عندئذ تقدم قائد السفينة نحوه وأبلغه في
رقة أنه قد أصبح أسيره منذ تلك اللحظة ، وأن الأوامر قد صدرت
إليه بنقله الى جبل طارق (١٢٤) .

وكان السير ايفلين بارنج — بعد أن رمض كل من الشديو
وفويار باشا فكرة القاء القبض على الزبير — قد أمر المساكرا
الإنجليزية بالقبض عليه في منزل الشيخ السنوسي بالاسكندرية
كما تم القبض على ولديه ، وأرسل الجميع الى جبل طارق (١٢٥) .

بعد أن وصلت السفينة الى جبل طارق نزل الزبير ومن معه
بقصر الملكة مكنوريا بالجزيرة ، وقضى الزبير في هذا المنفى ما
يقرب من العامين ، ولم يسمح له بالعودة الى القاهرة الا في سنة
١٨٨٧ م (١٢٦) .

وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن الزبير باشا قد أمضى
في الأسر فترة ثلاثين شهرا ، وفي مقال كتبه أحد الضباط

الانجليز الذين كانوا على اتصال بالزبير باشا أثناء فترة أسره بجبل طارق « ١٨٨٥ م — ١٨٨٦ م » أن الزبير قد أقام في مقر محافظ جبل طارق الصيفي (١٢٧) .

وفي خلال الأشهر الثلاثة التي قضاها الحارس مع الزبير رأى الكثير ، فكذب عن الزبير أنه أعطى أن يقص عليه كيفية سير المغامرات التي قام بها في أوليات حياته في بحر الخزال ، وعندما توطدت العلاقة بين الاثنين أخذ يحدثه عن السسودان والجنرال جوردون والمهدي ونجارة الرقيق وباشساوات القاهرة ونظام العوائد والضرائب وطريقة الحكم في وطنه بطريقة ملؤها الحماسة . وقد كانت هذه الأحاديث تتميز بنوع من الجدية والحقيقة ، وكان ينقلها بترجمة خبيثة رجل يدعى حامد (١٢٨) . وقد كانت إقامة الزبير بجبل طارق طوال فترة أسره تكلفه مبلغا يصل إلى مائة جنيه في الشهر ، ورغم ذلك كان يعاني من نقص الأموال ، وقد كانت مسألة ترك الزبير بهذا الوضع السيء دون إبداء الأسباب لذلك غير مرضية ، فهو لم يقدم للمحاكمة لجريمة أو جنائية ارتكبها ، كما أنه لم يتم الإفراج عنه . وقد كان هذا هو السؤال الذي رفعه العديد من مواطني جبل طارق ، الذين كانوا يسألون أنفسهم في هذا الوقت لماذا لم تطبق وسائل العدالة على الزبير ؟ وكان من الصعب الا تصدق أن السبب كان معروفا في حالة عرابي ، ولكن كان الأمر مجرد شك وحكم على أشياء سابقة يمكن الصاقها بالزبير (١٢٩) .

وفي أثناء إقامة الزبير بجبل طارق زاره في أحد الأيام السير جوي آدي ، وطلب منه أن يكون مستعدا لحضور اجتماع مهم يعتقد في قاعة الاجتماعات بالقصر في اليوم التالي . وفي الموعد المحدد اجتمع المؤتمر بحضور الحاكم ، وياور خاص لجلالة الملكة ، وبعض

الضباط الانجليز والمترجمين ، وبدأ الحديث بمسألة الزبير في مسألة قبول الحكم في السودان مستقلا عن حكومة مصر . وقد كان اقتراحا غريبا بالنسبة للزبير لم يسعه الا ان يرفضه رفضا باتا ، فلم يكن على حد قوله : « . . تاريخ أسسرتنا منذ عام ١٨٢١ م - أي منذ بدء اتصال ولائها بأسرة الحكم في مصر - لا يقبل هذه الخيانة أو عرضا لحكم السودان عن طريق الانجليز » . وكان من الواضح ان الانجليز يريدون ان يجيب الزبير بالاجاب ، ويجعلوا منه اجيرا لمصلحتهم ، فلما اشتد الجدل حول هذا الامر غادر الزبير الاجتماع غاضبا ، وأبى ان يخوض في شئون بلاده مع هؤلاء الانجليز (١٣٠) .

وكتب جاكسون عن الزبير عندما كان يتناقش معه في الدور الذي لعبته بريطانيا من اجل ارساله الى جبل طارق بقوله له : « . . انت انجليزى غير متهم او مدرك ولكنك سطحي بسيط بالاضبط » وقد كان الزبير دائما يرجع فضل اطلاق سراحه من جبل طارق الى السين وينجت . وفى احدى المناسبات اعطى جاكسون تعبيراً طموحاً يدل على اعترافه بالجميل تجاه السير وينجت (١٣١) .

ويصف المستر سدنى لو الزبير عندما تعرف عليه حديثا بقوله انه ذكى وبشوش وشسفيق وجنتليان ، فقد تجانب معه الحديث بعد تناول طعام الغداء في أحد الأيام في مقر الحاكم . ويضيف المستر سدنى لو في وصف الزبير بأنه كان رجلاً يبدو عليه سمات العظيمة ، فارح الطول نحيل الجسم ، وكان دائما يلبس الطربوش وحيانا العمامة ، وفى بعض الاوقات كان يرتدى قبة من السلك ، كما كان يتسم بالصراحة والوضوح ، ولكنه نادرا ما كان يرتدى الزي العربى ، وفى بعض الاحيان كان يرتدى زيا أزرق اللون ينتمى الى عصر الامبراطورية الثانية ، ولكنه في

العادة كان رداؤه أسمر اللون أو بلون الخرطل وفى بعض الأحيان
 يرتدى جاكيتا ضيقا أسود اللون وسروالا مخططا وسساريا . من
 الجلد . وحذاء شرقيا مألوما ، وكان لى رداؤه هذا أشبه بالأوربي
 الذى لم تكمل مدنيته ، وكانت يداه مرسومتين بدقة حساسة
 ذات أصابع طويلة جدا وقدماه نحيفتان طويلتان أيضا . أما بلامجه
 فكانت سوداء جدا وغريبة حقا على ذلك اللون الاسمر ، وكانت
 جبهته بارزة تشبه الجمجمة يبدو الجلد منها مشدودا والعينان
 غائرتين لا يكاد يبدو لهما بريق ، ولم يكن يتزين بأية مجوهرات
 باستثناء خاتم صاحب اللون غير شفاف كان قد أحضره معه من
 بحر الغزال ، وقد منحه للمستر سدنى لو عندما غادر جبل طارق .
 وقد كان الزبير نادرا ما يخرج من مقره الى الأرض المحيطة لأنه لم
 يكن يشعر بالابتهاج فى هذه المنطقة التى حدثت فيها انقائته أو
 بالنسبة للظروف المحيطة به ، ولكن خطواته كانت تنصف بالسرعة
 والانسحاب والتى نسميها بحركة الحصان ، وقد كان هناك وداع
 حزين بين كاتب المقاتل والزبير أراد الزبير أن يسجله بقوله :
 « لقد أصبحيت رجلا عجوزا وأصبحت من الآن أترقب الموت ، ولكننى
 قبل أن أموت أحب أن أرى بلادى التى شهدت أيام صباى تنعم
 بالسكينة والسلام ، وأن أرى التجارة تزدهر عبر النيل من القصاه
 الى أدناه قد لا أعود الى وطنى ، ولكن اذا ما تيسر ذلك فأننى
 سأعمل على تقديم النصيحة التى أعطيها الآن لشعبى الذى سيشارك
 ويذكر اسمى بكل ما هو طيب لأننى لا أرغب فى أن أكون عظيما ،
 فسوف أنال ما أستحقه من دعوات فى قبرى بعد موتى بزمان طويل
 ولو أنهم استخدمونى لعمل أى شىء فأننى سأكون مسرورا وسيكون
 ذلك شسبنا طيبا ، وإذا لم أجد بلا مائدة فأن ذلك أيضا شىء
 طيب ، ولكن دعنى وعائلتى نرحل من القاهرة الى السسودان
 فسوف أذهب الى إحدى المدن المقدسة مكة أو المدينة أو القدس ،
 وهكذا أنضى بقية أيامى .. » (١٣٢) .

كانت هذه آخر كلمات الزبير وهو يودع صاحب هذا المقاتل
والحارس لقر اقامته ، وقد رأينا كيف أنها تعبر عن نفس منافية
لا يلموها الحق أو الضغينة على أحد بل كانت هذه النفس مريسة
لمن ظنوا به سوءا دون أن يحمل لهم هو أى كراهية رغم ما فعلوه
معه .

وقد اعتاد الزبير أثناء فترة أسره أن يسلى نفسه بترديد
بعض القصائد من الشعر يجد فيها وحيته ، وملأذا للتفريج من
نفسه ، وبعد أن أمضى هذه الفترة الطويلة في الأسر وتأكد
المستولون من برأته ، أو على وجه الصواب زال السبب الذي
أخافهم من بقاءه في القاهرة ، في الوقت الذي بلغت فيه المهديّة
أوجها في السودان ، فأُخلى سبيله وسمحوا له بالعودة إلى
القاهرة ، فبلغها في شهر أغسطس سنة ١٨٨٧ م وتشرّف بمقابلة
جناب الخديو محمد توفيق الذي شمله بمعطى وأهداه مربة ماهرة
تجرها الجياد ، وسينا أثريا نقشيت عليه كلمة الحروب الصليبية
ورصع مقبضه بالذهب والماس (١٣٣) .

هوامش الفصل الرابع

- (١) هـ . س . جاكسون (ترجمة عزيز يوسف عبد المسيح) : جوردون باشا من ص ٦٧ - ٦٨ .
- (٢) Churchill, W. : The River War P. 17.
- (٣) Sparrow, G. : Gordon Mandarin P. 120.
- (٤) Churchill, W. : Op. Cit., P. 17.
- (٥) Jackson, H.C. : Behind The Modern Sudan P. 99
- (٦) عبد الرحمن زكي : اعلام الجيش والبحرية في مصر في اثناء القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٤ .
- (٧) صاري نصوص : وفيها التقى الجيش العثماني تحت قيادة السردار محمد علي باشا بالجيش الروسي تحت قيادة البرنس الكسندر ولي عهد روسيا ، الذي كان قد تحصن في هذه المدينة وكان الزبير قد عهد له بقيادة إحدى فرق الجيش العثماني ووكّل اليها في هذه المعركة مهمة القيام بالهجوم على تحصينات العدو بقصد فتح شفرة لها كي يستطيع منها الجيش العثماني ان يتدفق خلال الجيش الروسي . وكانت خطوط العدو شعبة ، فحاول الزبير بفرقة ان ينفذ من هذه التحصينات بالهجوم عليها بالمواجهة فلم يستطع . الا انه في فجر اليوم التالي توجّه الامداد والنوم بدافع اجلائهم برجال الزبير وهم يندفعون امامهم حشودا من الخيل كلان الزبير قد امر بان تولد صيوائها بالقش وان تفرم فيه النار ، فلما احسّت الخيل بالنار لمق ظهرها مضت تعدو وتنب ورجال الزبير من خلفها يوجهونها نحو صفوف الاعداء ، الذين ما لبث الهرج والمرج ان وقع بينهم من جراء هذه المفاجأة ، فانتهز الزبير هذه الفرصة وقلب الى المعركة بكل قوته فلم يهزم وقتل طيل ثمن كان قد استطاع ربحها الجيش الروسي عن يوائمه

ونجح الثورة المهدوية في حيلولة ، فلم يلبث الجيش العثماني أن تدفق من خلالها واحتدمت المعركة ، واستمر القتال إلى ما بعد منتصف الليل وانتهت المعركة بانتصار الجيش العثماني بفضل شجاعة ودهاء الزبير .

(٨) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان من ١١٤ - ١١٥ .

(٩) سعد الدين الزبير : نفس المرجع من ١١٩ - ١٢٢ .

Gessl, R. : Seven years in the Sudan P. 305. (١٠)

(١١) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق من ٩٤ .

(١٢) عبد الرحمن زكي : نفس المرجع من ٩٤ .

(١٣) السعيد بك حسين : أحد سناجق الجيش لدى جوردون وكان من قبل يعمل نخباً مع ابن الزبير ، وهو من قبيلة الجبيباب ، ولما استقاله جوردون ولأه مخيرة شكا ، ثم خرج على الحكومة ولكن تم اغتياله وجيء به إلى الخرطوم واتهم عليه جوردون بعد ذلك بربطه الميرحمان الربيعية مع لقب باشا وعينه قومانداناً على جنود الباشا يوزي وجعل حسن إبراهيم وكيلاً له .

(١٤) إدريس أيتو : كان من أتباع والد سليمان وعقب سجن جوردون له نتيجة وشكته بسليمان تمكن من استقالة قنصل المانيا بالخرطوم نظير ألف جنيه ، فهرب لجوردون يخبره بأن إدريس أيتو قد سجن ظلياً ، وأنه يرى ما نصب إليه . وكان قنصل المانيا من أخص أصحاب جوردون ويثق به ثقة عمياء ، فأنرج من إدريس وعينه مخيراً ليحرر الغزال والتمس له من أجناب العالمة البرية الدافئة ، وأتم هذا الإجراء الذي اتخذه جوردون لم يسمح إبراهيم فوزي باشا إلا أن قدم استقالته لجوردون محتجاً باعتقال صحته ، فقبلها كما أنه رآها فرصة لأن يرشيه فعينه حاكماً عاماً على إقليم خط الاستواء وأنعم عليه برتبة الأجرالاي والوسام المجيدي الثالث .

(١٥) إبراهيم فوزي باشا : من الشخصيات العسكرية المصرية في السودان، ولد كان له دوره في أحداث بحر الغزال وثورة سليمان ، ورافق جوردون واستبوارت باشا أثناء توجههما للخرطوم في ٢٧ يناير سنة ١٨٨٤ م لتكثيف الإخلاء، وبعد ذلك قبض عليه وسجن بعد سقوط الخرطوم ، ولكن أفرج عنه بعد ذلك حين سجننا بعد دخول الجيش المصري الإنجليزي أم درمان سنة ١٨٩٨ م .

(١٦) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ١٢٤ - ١٢٦ .

Gessl, R. : Op. Cit., PP. 116, 181 - 182. (١٧)

(١٨) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ١٢١ - ١٢٢ .

Jackson, H. : Op. Cit., P. 100. (١٩)

- (٢٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ١٢٤ - ١٢٥ .
 Geogr. R. : Op. Cit., P. 240. (٢١)
 (٢٢) محمد مهدي : الإمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر
 من ٨٢ .
 (٢٣) شوقي عطا الله الجبل (مكتور) : تاريخ السودان وادي النيل ج ٢
 من ص ١٨٤ - ١٨٦ .
 (٢٤) شوقي عطا الله الجبل (مكتور) : نفس المرجع ج ٢ من ١٨٦ .
 (٢٥) ضرار صالح ضرار تاريخ السودان الحديث من ٩٢ .
 (٢٦) سواكن : وهي تقع على البحر الأحمر وهي عبارة عن جزيرة مغطى بها
 بيل ونخيل ، وهي مدينة تجارية قديمة العهد وهي تربط السودان بالحجاز
 والهند ومصر ، ويربطها بالسودان طريق بري ، وقد اعتنقها السلطان مسليم
 اثنتي عشرة سنة ١٥٢٠ م وظلت تابعة للدولة العلية يتولاها حكم من قبل وإلى الحجاز
 إلى أن تنازل الباب العالي عنها لمصر سنة ١٨٦٦ م .
 (٢٧) عثمان نقلة : أصله من أفراد جهاز بكر الدين حطروا إلى سواكن
 مع السلطان سليم المانج . واختلطوا بالهندوه وكان منهم قبيلة النفاوي . وقد
 ولد في سواكن وتفنن بها واشغلت بالتجارة مع السودان والحجاز بالرفيق ، ولما
 منعت الحكومة تجارة الرفيق سمعت حالته وسجن مرة أخرى في جدة مع أخيه
 بسبب اتجارها بالرفيق وعندما علم بالدموة الهندية اعتقد فيها وآمن بها ومات
 عليها ، وكان يعرف اللغة العربية ولغة الهندوه واللجة وكان لها شجاعة مبيتا
 وقد عينه الهدي أميرا على السودان الشرقي .
 (٢٨) جلال يحيى (مكتور) : مصر الأفريقية والأطماع الاستعمارية في
 القرن التاسع عشر ج ٢ من ٤٢٦ .
 (٢٩) شوقي عطا الله الجبل (مكتور) : المرجع السابق ج ٢ من ١٨٧ .
 (٣٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ١٩١ - ١٩٢ .
 (٣١) سمير سارنوربوس : وهي زوجة الكولونيل سارنوربوس مساعد بكر
 باشا قائد حملة سواكن .
 (٣٢) سعد الدين الزبير : نفس المرجع من ١٩٢ .
 (٣٣) تونكلت : مرعا على سواحل البحر الأحمر .
 (٣٤) جلال يحيى : (مكتور) : المرجع السابق من ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .
 (٣٥) جلال يحيى (مكتور) : نفس المرجع من ٢٠٢ .

- (٢٦) انظر تفاصيل ثورة سلها في أول الفصل .
- (٢٧) ه . س جاكسون : (ترجمة عزيز يوسف عبد المسبح) المرجع السابق ص ٥٥ .
- (٢٨) محمد مهدي : المرجع السابق ص ٨٥ .
- (٢٩) رؤوف باشا : (١٢٩٦ : ١٢٩٩ هـ - ١٨٧٩ : ١٨٨٢ م) خلفه جوردون وصدر الأمر العالي بتعيينه في ١٥ ربيع الثاني سنة ١٢٩٧ هـ الموافق ٢٧ مارس ١٨٨٠م وقد باشر رؤوف باشا جميع الأعمال التي تطلبت به مهبة ونشاط وأهتم على وجه الخصوص بتحديد التلقات وتمصيل الأموال فكان آخر الولاة الذين حكموا السودان قبل الثورة المهدية .
- (٣٠) مكي شبكة : (مكتور) : السودان في قرن ١٨١٩ - ١٩١٩ م ص ص ١٢٩ - ١٣٠ .
- (٣١) زاهر رياض (مكتور) : السودان المعاصر منذ الفتح المصري حتى الاستقلال ص ١١٩ .
- (٣٢) محمد غزاد شكري (مكتور) : مصر والسودان (تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ١٨٢٠ - ١٨٩٩ م) ص ص ٣١٢ - ٣١٥ .
- (٣٣) زاهر رياض (مكتور) : المرجع السابق ص ص ١٢٢ - ١٢٣ .
- (٣٤) حمد شفيق : (مذكراتي في نصف قرن) ص ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .
- (٣٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٨٩ .
- (٣٦) Moorhead, Alan : The White Nile PP. 223 - 224 .
- (٣٧) Crabtree, P. : The Sudan and slavery PP. 200 - 202 .
- (٣٨) جاك يحيى : (مكتور) : المرجع السابق ص ص ٤١٨ - ٤٢٠ .
- (٣٩) صرار صالح شرار : المرجع السابق ص ١٤٥ .
- (٤٠) الشاطر بوميلي : معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ١٧٦ .
- (٤١) Moorhead, Alan : Op. Cit. P. 224 .
- (٤٢) الشاطر بوميلي : المرجع السابق ص ص ١٧٦ - ١٧٧ .
- (٤٣) مكي شبكة (مكتور) : المرجع السابق ص ص ١٩٤ - ١٩٥ .
- (٤٤) شوقي الجبل (مكتور) : المرجع السابق ص ١٨٨ .
- (٤٥) مكي شبكة (مكتور) : المرجع السابق ص ١٩٥ .

(٥٦) تقدم أن الحكومة المصرية لما بلغها خبر حادثة مكس في شينجان قر رأيها على اخلاء السودان على عرض هذا القرار على وزارة شريف باشا للتصديق عليه قدم الوزراء استعفائهم من الوزارة تشكلت وزارة أخرى برئاسة نوبار باشا في يناير سنة ١٨٨٤ م وعرض القرار عليها فصدته وتب لهذه المهمة عبد القادر باشا باعتذر لأنه كان ملحقا بالقل بغير جند . فنتجب لها جورجون فحضر القاهرة في ٢٥ يناير ١٨٨٤ م وتشرع في اليوم التالي بمقابلة الخديو : فأسمر له فريادته بقولته حاكما عليا بلوغا على السودان وأمر آخر بتعيين الفرغس الذي نصب له وهو الاخلاء وبعواه : أن الفرغس من أرسالكم الى السودان أرجاع الجنود والموظفين المالكين والتجار الى مصر وذلك مع حفظ النظام في البسلاط بأمانتها التي سلالة الملوك الذين حكموها قبل التبع المصري ولما يزيد الثقة انكم تتفكرون افضل الطرق لانعام هذه المهمة طبقا لرغبتنا والسلام .

(٥٧) الكولونيل سميوارت : الذي قدم تقرير عن السودان في سنة ١٨٨٢ م وهو الذي صاحب جورجون بعد ذلك الى الخرطوم في فبراير سنة ١٨٨٤م في مهمة اخلاء السودان ، ثم قبله النوار المهديون عند قرية حبة في طريق موته مع آخرين الى مصر بالقرب من أبي حيد في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٨٤م بعد ثمانية ايام فقط من مغادرته الخرطوم .

- (٥٨) زاهر رياض (دكتور) : المرجع السابق ص ١٢٥ .
- (٥٩) جلال يحيى (دكتور) : المرجع السابق ص ٤٢٠ - ٤٢١ .
- (٦٠) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق ص ١٩٥ .
- (٦١) كرومر : (تعريب عبد العزيز أحمد) : بريطانيا في السودان ص ٢٠٥ .
- (٦٢) غرار صالح شرار : المرجع السابق ص ١٤٧ .
- Churchill, W. : Op. Cit., P. 88. (٦٣)
- (٦٤) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٢٠٥ .
- Churchill, W.: Op. Cit., PP. 88 — 89. (٦٥)
- (٦٦) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٢٠٥ .
- (٦٧) محمد صبرى : المرجع السابق ص ١١٢ .
- (٦٨) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ١٠٥ -

٢٠٦

- (٦٩) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : ص ١٠٦ - ١٠٧ .
- (٧٠) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٠٧ .

- (٧١) زاهر رياض (مكتون) : المرجع السابق ص ١٢٧ .
- (٧٢) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ١٠٩ .
- (٧٣) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٠٩ - ١١١ .
- (٧٤) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١١١ .
- (٧٥) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١١١ .
- (٧٦) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١١١ .
- (٧٧) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١١١ .
- (٧٨) علي إبراهيم عبده (مكتون) : المئاتسسة الدولية في أعالي النيل ١٨٨٠ - ١٩٠٦ م ج ١ ص ٨٩ .

(٧٩) اللورد نورفولك : وزير البحرية البريطانية في حكومة جاكسون .
(٨٠) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ١١٢ -

- (٨١) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١١٨ - ١٢٠ .
- (٨٢) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢٠ - ١٢١ .
- (٨٣) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢١ - ١٢٢ .
- (٨٤) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢٢ .
- (٨٥) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢٢ .
- (٨٦) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢٣ - ١٢٤ .
- (٨٧) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢٤ .
- (٨٨) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢٤ - ١٢٥ .
- (٨٩) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢٥ - ١٢٦ .
- (٩٠) إبراهيم فوزي : السودان بين يدي جوردون وكاتلر ج ١ ص ٢٠٠ .
- (٩١) انظر ملحق الوثائق المنشورة الوثيقة رقم () .
- (٩٢) انظر ملحق الوثائق المنشورة رقم () .

- (٩٣) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ١٢٧ .
- (٩٤) إبراهيم فوزي : المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٧ .
- (٩٥) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ١٢٧ -

Moorehead, Alan : Op. Cit., P. 219.

- (٩٦) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ١٢٨ -

- (٩٨) انظر ملحق الوثائق المنشورة الوثيقة رقم ()
- (٩٩) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق من ص ١٢٩ ~
- Churchill, W. : Op. Cit., P. 48. (١٠٠) ١٢١
- (١٠١) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق من ص ١٢١ ~
- Moorehead Alan : Op. Cit., P. 250. (١٠٢) ١٢٢
- (١٠٣) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق من ص ١٢٢ ~
- (١٠٤) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٢٣ ~ ١٢٣
- (١٠٥) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٢٤ ~ ١٢٥
- (١٠٦) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٢٤ ~ ١٢٥
- (١٠٧) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٢٤ ~ ١٤١
- (١٠٨) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٤١ . كذلك .
- انظر أيضا ملحق الوثائق المنشورة الوثيقة رقم () .
- (١٠٩) محمد نواز شكري (مكتور) : المرجع السابق من ص ٢٧٦ ~ ٢٧٧
- (١١٠) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق من ص ١٤١ ~
- ١٤٢
- (١١١) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٤٣ .
- (١١٢) أحمد شفيق : المرجع السابق ج ١ من ٢٦٩ .
- (١١٣) أحمد شفيق : نفس المرجع ج ١ من ٢٧٠ .
- (١١٤) أحمد شفيق : نفس المرجع ج ١ من ٢٧١ .
- (١١٥) زاهر رياض (مكتور) : المرجع السابق من ص ١٢٩ ~ ١٣١ .
- (١١٦) جلال يحيى (مكتور) : المرجع السابق من ص ٤٤٥ ~ ٤٤٨ .
- Churchill, W. : Op. Cit., PP. 44 — 45. (١١٧)
- (١١٨) جلال يحيى (مكتور) : المرجع السابق من ص ٤٢٩ ~ (٤٣١ + ٤٣٢) .
- (١١٩) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق من ص ١٤٤ .
- (١٢٠) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٤٥ ~
- ١٤٧
- (١٢١) أحمد شفيق : المرجع السابق ج ١ من ٢٧٦ .

- (١٢٢) عبد الرحمن ركي : المرجع السابق ج ١ ص ٤٥ .
- (١٢٣) وكان الزبير قد انتقل اليه بعد أن أهداه أياه جناب الخديو توفيق باشا سنة ١٨٨٠ م .
- (١٢٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٠ .
- (١٢٥) أحمد شوقي : المرجع السابق ج ١ ص ٢٢٦ .
- (١٢٦) شوقي الجبل (دكتور) : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٦ .
- Ribblesdale, Right H. : Conversation with
Zobeir Basha, at Gibraltar P. 1. (١٢٧)
- متر المحافظ الصيني : وهو المستقل عن القربى الحكومي والكتل على الضواحي الجرداء ما بين منطقة Europa Point وظلح Calalae .
- الطل على المسبق ، وكان هذا القربى حراسة غلبت من الحماية كانت مبهمة إدارة شئون التزل في الحدود التي أصبح بها الامكانيات المتاحة للزبير باشا ، وكذلك المصروفات الأخرى ، ومن مهامه أيضا تسليم رسائله من أفراد محددين وأن ينفذ رغباته في حدود الامكان . كان هذا الحارس هو صاحب هذا القربى ، وقد كلفه السير جون آدمي بهذه المهمة بصفة خاصة ، وكان الحارس يتيم مع الكلية الثقافة في غرفة الأسلحة منذ ديسمبر ١٨٨٥ م . وقد تحمل هذه الواجبات التي كلف بها إلى أن تقلى عنها في العاشر من مارس ١٨٨٦ م عندما عاد إلى وطنه في الإجازة .
- (١٢٨) حامد : جاء هذا الرجل إلى إنجلترا كحارس شخصي لتسليم أون برنس بحر يزور شواطئه إنجلترا ، وتعلم الإنجليزية في مدرسة Roads —
- The Borough ، وقد كان غالبا ما يتنقل بمصنوع الرجال المتوحشين والحيوانات المتوحشة في بحر الخوال ودارفور . وقد عمل كترجم للزبير طوال مدة أسره بجبل طمسارقي .
- Ribblesdale, Right H. : Ibid. P. 4. (١٢٩)
- (١٣٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٢ .
- Jackson, H.C. : Op. Cit., P. 107. (١٣١)
- Ribblesdale, Right Hon : Op. Cit., P. 15. (١٣٢)
- (١٣٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٤ .

الفصل الخامس

الزير باشا رحمة في نهاية حياته

الزبير باشا رحمة في نهاية حياته

بعد عودة الزبير الى مصر من منفاه بجبل طارق بعد أن قضى به قرابة العامين أسيرا دون أن يركتب أى خطأ يبرر نفيه ، سوى ما أشاعه حوله النواشون عن أنه حاول الاتصال سرا بالمهدي عن طريق المراسلات ، مما دعا المسئولين فى القاهرة من الانجليز الى إبعاده ريثما تهدأ الأوضاع ، وتستقر الأمور السياسية والعسكرية فى السودان ، وتنتجلى حقيقة الموقف . وما زالت هذه الأسباب التى كانت سببا فى نفيه الى جبل طارق حتى سمحوا له بالعودة ، فكانت عودته الى القاهرة بعد هذا النفي هى بداية لنهاية حياته السياسية والعسكرية ، التى بدأت بمصادمته مع عرب الرزيقات ، وانتهت فوق صخور جبل طارق . وعند عودته أحس أن الحوادث قد سبقته بسل خلفته وراءها ، وأن دوره السياسى قد انتهى فعلا ، فاستكان لهذه النهاية التى أرادتها له الأقدار (١) .

وقد هارت حياة الزبير بعد ذلك خالية من المتاعب السياسية طابعها الهدوء المطلوب لرجل أنهكته الأحداث السياسية والعسكرية على مدى فترة طويلة من حياته .

عاش الزبير بعد عودته من منفاه فى قصر الجيزة بالقرب من القاهرة ، وكان يقوم بين الحين والآخر بزيارات للسير ايفلين

بارتج . وكان يطالب اللورد كرومر أثناء حديثه معه بأن يحاكم أمام محكمة على الجسرائم التي ظن المسئولون أنه ارتكبها تأكيداً لبراءته ، أو منحه قدراً كبيراً من المال كتعويض له عن الفترة التي قضاها في منفاه بجبل طارق ظلماً (٢) .

وقد كان هذا المطلب مثار خلاف بينه وبين الحكومة في مصر لم ينته إلا بعد وفاته ، ولم يكن الخلاف حول مسألة تعويضه سبباً يمكن أن ينغص حياته الهائلة التي وجدها في القاهرة ، فقد التقى به ونستون تشرشل وكان شاباً صغيراً في طريقه إلى معركة أم درمان ، في القاهرة بعد عدة سنوات ، وكان يلبس معطفاً من الفراء وحذاء لامعاً ويحيط به جو من الثراء والسلطة (٣) .

تعويض الحكومة المصرية للزبير عادياً :

أمتد الخلاف في مسألة تعويض الزبير عادياً منذ جاء إلى مصر لمقابلة الخديو اسماعيل لأول مرة في سنة ١٨٧٥م حيث تقرر يومئذ حجزه في القاهرة وعدم السماح له بالعودة إلى السودان ، فقررت الحكومة في نفس الوقت صرف مبلغ مائة جنيه شهرياً له كمرتب ثابت مع صرف مرتب آخر لمائلته في السودان ، فلما صاهر جوردون أمواله وتجارته في السودان عقب ثورة ابنه سليمان كما تقدم ، أصر الزبير على أن ترد له هذه الأموال التي لم يكن لجوردون الحق في مصادرتها ، مادام لم يثبت عليه اشتراكه في هذه الثورة أو التحريض عليها ، ولكن طلبه هذا رفض ، فأضطر أن يرفع أمره للقضاء مطالباً الحكومة المصرية بأمواله المصادرة ، وبمبلغ يزيد على المليون جنيه قيمة ما أنفق في فتوحاته بالسودان ، وتعويض له عن مقتل ابنه (٤) . وقد ترفع عنه في هذه القضية السير ماريوت لدى الحكومة الانجليزية بقصد تحصيل هذا المبلغ فلم يفلح ورفضت القضية رفضاً نهائياً (٥) .

وعندما رأت الحكومة المصرية أنه قد ان الأوان لتعويض رجلها هذا ، قرر مجلس النظار في أول مايو سنة ١٨٨٣م ضم ما يصرف لعائلته في السودان الى مرتبه مع منحه خمسين جنيها شهريا كتعويض ، ليبلغ جملة مرتبه مائتي جنيه شهريا على ان يكون صرف ذلك اليه مدة حياته ، ومن بعده تصصرف لأولاده وأزواجه بحسب القسمة الشرعية بحيث أنه عند وفاة أحد منهم يصير قطع ما كان مربوطا له كما هو مذكور بصورة الآن الصادر من المالية للروز نامجة في العشرين من مايو سنة ١٨٨٣م . وقرر مجلس النظار أيضا في جلسته المنعقدة في الثامن من نوفمبر سنة ١٩١١م رفع هذا المرتب الى ثلاثمائة جنيه أى بإضافة مائة جنيه (كمنحة لمساعدته بصفة شخصية محضة علاوة على مرتبه اعتبارا من أول نوفمبر المرقوم بشرط ألا يتوارث من بعده) . ولم يكن هذا المبلغ الضئيل ليكفي احتياجات الزبير ومن معه ، وهو الذي اشتهر بالكرم وحب العطاء طسوال حياته ومما يذكر بهذه المناسبة ما رواه بعض الكتاب « من أن أظهر صفاته الكرم والشجاعة وحب الفخر والسلطة » . وقد اشتهر كرمه منذ كان ملكا في بحر الغزال ، فقصدته الكثيرون من أهل البيوتات في السودان الذين خائهم الدهر قازال كريتهم وخرج ضيقهم ، وقد ذكر الزبير في بعض مجالسه المبالغ الكبيرة التي أخصذها قومه وهو في بحر الغزال ، قبله مجموعها نحو العشرين ألف جنيه ولم تزل داره الى الآن (١٩٠٠م) مقصدا عامرا لمن خائنه الدهر وخذلقه الأقدار من أهل السودان المصري والغربي . والزبير بطبعه أبى النفس ، سهل الجتاب ، قوى الإرادة ، قريب الى الخير ، بعيد عن الشر ، محب للعلم وأهله ، غيور على الاسلام والمسلمين مع مسالة الذين على غير دينه وهو لم يزل في معيشته المنزلية من الأكل والشرب والملبس على نحو ما كان عليه في السودان ، ولكنه اذا خرج لبس الطربوش لباس الافرنج (٦) .

حياته في القاهرة واتصالاته برجال الحكم وكبار العلماء :

استقر الزبير بعد عودته من المنفى بقصر الجيزة (٧) على مقربة من القاهرة ، ومن ثم بدأ سريعا يندمج في تيار الحياة العامة ، ويوالى اتصالاته بكبار رجال الدولة ومشاهيرها من العلماء والأدباء ورجال الجيش والحكم ، وكان هو بصفته محبا للعلم وأهله ، قصصارت داره مسرحا للمناقشات والندوات العلمية والسياسية من جانب المقربين اليه ، فشارك في هذه الندوات الكثير من الشعراء الذين منحوه في مصر والسودان ، فأجزل لهم العطاء ومما يذكر عنه أنه شارك بقدر كبير من المال في طبع بعض الكتب الدينية بليدين (٨) .

ولم تمض على اقامته بقصر الجيزة مدة كبيرة حتى تركه إلى حلوان التي لم يلبث أن طأبت له الإقامة فيها بعد زيارته للسودان سنة ١٩٠٥م ، فابتنى لنفسه قصرا فيها ليقتضى بقية عمره . وكان الزبير كثيرا ما يمضى وقته متنزها في حديقة قصره ، أو الخروج في عربته الفاخرة إلى شاطئ النيل بحلوان ، أو إلى ميدان سباق الخيل بالمدينة الذي أنشأه وأجرى فيه عشرة من أجسود الخيول العربية الأصيلة ، أو بين رياض الجزيرة الخضراء ، أو الذهاب إلى قصر عابدين حيث يستأن في الدخول على سمو خديو مصر عباس حلمي الثاني ، فيلقاه جنابه الكريم باليشر والترحساب ، وقد كان الزبير أثناء اقامته بمصر كثيرا ما يقتضيه الواجب من زيارات للأصدقاء والاخوان والمشاركة في الاحتفالات والمناسبات الرسمية ، فإذا ما أقبل المساء عليه أضيئت الأنوار في داره ، وفتحت حجرة الاستقبال لتتلقى الضيوف الأعزاء عليه أمثال عبد القادر باشا حلمي حاكم السودان وأفلاطون باشا وعثمان غالب باشا محافظ القاهرة ، والشيخ سليم البشري وصالح باشا صبحي وحسين باشا

فوزى ، وحسين باشا سرى ، وجودة بك ، واحمد الحسينى بك ، وغيرهم من الأصدقاء الذين أنستهم عشمورتهم أهل السودان ، فيتسامرون معا ويستزيدون من أخبار السودان التى يرونها لهم (٩)

وقد حفلت الكثير من المراجيع بقدر كبير من المناقشات والندوات التى عقدت مع الزبير سواء فى مصر أو السودان فى أخريات حياته ، فعلى سبيل الذكر ذكر لنا جاكسون جانبا من هذه المناقشات فقد سألته ذات مرة بقوله لماذا اختارك جوردون لأن تعود معه الى السودان ؟ وقد كنت قاجر رقيق بينما جوردون ترمى سنوات عديدة من حياته لكى يضع نهاية لتجارة الرقيق فى السودان ؟ وهنا أجاب الزبير بقوله « ربما فى الحقيقة قد فعلت مثلما فعل جوردون لكى أقضى على تجارة الرقيق ، ومن نفسى لم أرسل للقاهرة قط أى فرد سوا ، كان عبدا أو طواشيا (خصى) وعندما حرر جوردون جميع العبيد ، فإنه فعل ذلك لكى يطلق سراحهم أو يعطيهم حريتهم مع أن كثيرا منهم كانوا بعيدين عن أوطانهم كل البعد ، ولا يعرفون كيف يكتسبون معيشتهم فى بلاد غريبة ، وأنا أعلم علم اليقين بأن تجار العبيد كانوا يهاجمون سكان السودان الجنوبي ، ثم يبعثون بهم الى القاهرة أو الى الشمال ، وللعلم فإن مايربو على عشرة آلاف من هؤلاء العبيد قد ماتوا أثناء نقلهم عبر الطرق وذلك بسبب سوء المعاملة وسوء التغذية وكثرة ما استعمل معهم من الأساليب الوحشية . ولقد اعتاد جوردون أن يصنع أكواما من عظام هؤلاء العبيد فى أماكن مختلفة خلال مروره لكى يسترشد بها ، ولكى تكون علامة على أنه مر فى هذا الطريق ، ويعتبر هذا استخفافا بالحياة ومن يملك عبيدا يتطلع الى الوقت الذى يصلون فيه الى القاهرة ، وذلك لا لشيء سوى العمل الذى لا يفتقر فى منازل الباشاس والاعنياء بجانب أننى كرهت بشدة فساد وقسوة الحكومة المصرية ، وأردت أن أجمع أكبر عدد منهم ، وكان كل موظف مصرى من حاكم

فأشودة إلى آل كاتب مقتنع بتجارة الرقيق ومنهمك فيها ، وعندما
القيت القبض على بعض العبيد ، فبدلاً من أن أقوم ببيعهم قمت
بضمهم إلى جيشي الخاص معطياً لهم أجوراً ممتازة ، وحياة
المغامرات التي يحيونها ويفضلونها ، وكثير من هؤلاء السودانيين
الجنوبيين كانوا محاربين عظماء والكثير منهم انضم إلى برغبته
وارادته الحرة ، ولم يكن لهم أن يفعلوا ذلك لو لم أعلمهم معاملة
حسنة وقد كانت جيوشى تصيب النجاح تلو الآخر لدرجة أن تجار
العبيد وموظفى الحكومة أصبحوا غيورين منى ، ونتيجة لذلك
ظلوا يرسلون تقارير كاذبة إلى جناب الخديو يخبرونه فيها بأننى
أنوى القيام بثورة ضد الحكومة ، وعندما طلب منى الخديو الحضور
إلى القاهرة كتبت إليه قائلاً بأننى على أتم استعداد لذلك كما أننى
كنت أرغب فى أن اتناقش معه فى أحسن الطرق لإدارة الاقليم الذى
غزوته بمساعدته ، وقد أخذ الزبير يسترجع فى أيامه الأخيرة بساطة
طفولته الشائقة ، وكان الكولونيل برنارد (فيما بعد سير أدميرال)
واحداً من الذين يحبون استضافة الزبير باشا بغرض الاكرام ، وكان
دائماً ما يلعب معه لعبة عادة ما كانت اثنتى عشر دوراً لا يفشل
حتى تسبب له سعادة غامرة ، وعندما كان الباشا يحضر لقناول
النشأى يجد أريكة خاصة به غير مشغولة معدة لجلوسه ، وبمجرد
جلوسه يبدأ فى لعب الحواجز المفتوحة ، وعندما بلغ الزبير
الثمانين من عمره تقريبا ، وأصبح ضعيف البنية خائر القوى بحكم
مرور السنين رفض أن يعتقد أنه أصبح رجلاً هرمًا ، وفى محاولة
لرفع مؤثرات الشيخوخة عن كاهله كان يلجأ إلى الكى بالأسياخ
الحديدية المدمومة .

وكان الزبير كما وصفه جاكسون رجلاً ذا عبقرية فذة فى
التنظيم ، وكان عظيم الكرم الذى سبب قلقاً بالغاً للحكومة ، وقد
أعطى معاشاً كما سلف الذكر تعويضاً له عن فترة أسره بجبيل

طارق ، ومع ذلك أثبت هذا الدخول أنه غير كاف لرجل كان يعيش في بحبوحة أيام كان في جنوب السودان ، وكان العديد من الخدم يصغون إليه ، وكان هناك مجموعة من الفقهاء يجلسون خارج حجرته يرتلون الأدعية والصلوات بدون انقطاع ، والصراس المسلحون والأسود المقيدة بالأغلال تدرس منزله من القنفل ، ولم يحزن الزبير لحظة العائثر لهذا العاشق القليل ، وظل يجزل العطاء الى زواره في أم درمان (الجبالي) كما كان سخيا مع الآخرين في الأيام الخوالي ، ولم يكن من الدهش أنه عندما انتقل الى رحمة الله ترك خلفه الكثير من الديون التي كان على الحكومة أن تدفعها ، وربما كانت مميزات شخصيته هي التي جعلته في الغالب عزيز القدر للذين يعرفونه جيدا ، ويعرفون ثقته العالية في النظم الانجليزية ، التي خدمها بأخلاص وتفان حتى وفاته ، وبالرغم من الأحداث التي كان يجب أن تستفز أي رجل وتزلزل من إيمانه أو اعتقاده ، فابنه سليمان قد أعدم بأوامر من جوردون ، وهو نفسه سجن في جبل طارق ولكنه رغم ذلك لم يحمل لبريطانيا أي حقد أو ضغينة بسبب ما ناله من قصاص غير مستحسن على يد الانجليز ، معتقد أنه عوقب لسوء فهم الانجليز وانخداع السلطات المصرية ، وكان دائما يشير الى فضل السير ونجت في اطلاق سراحه من جبل طارق . وقد حدث في سنة ١٨٩٩م أن قامت بعض الفرق السودانية بالتمرد بتحريض من المصريين ، ولكن الجنرال ونجت الذي كان كان قد عين لتوه حاكما عاما للسودان ، وسردارا للجيش المصري نجح في حفظ الأمن والعمل على استتباب الأمور ، ولم يلبث ونجت بعد القضاء على المتمردين أن استلم الكثير من خطابات التهديد ، ولكن لم تلبث الأوضاع أن هدأت ، وحضر كثير من الناس ومعهم الزبير باشا الى محطة السكة الحديد لتوديع السير ونجت وجرمه عند سفرهم الى الاسكندرية ومنها الى ميناء تريستا ، وعند وصول

السير ونجت الى المكان الذى بجوار الرصيف الذى ترسو عليه السفن دهش لرؤية الزبير باشا يخف نازلا من العربية الثالية لهيبته وكان هناك فى هذا اليوم حشود وازدحام غير عادى ، فطلب السير ونجت من الزبير باشا أن يسير معه ، وكان ونجت متحمرا جدا لوجود صديقه القديم على الدوام يتوسط بشخصه بينه وبين هذا الزحام ، وعند وصول السفينة شكر ونجت الزبير على مجيئه من القاهرة الى الاسكندرية لتوديعه مرة اخرى ، وهنا أجاب الزبير بقوله : قد وصل مسامعى أنه كانت هناك محاولة تدبر لاهتيالك فى الاسكندرية ، ولكن اسالك الاعتذار لتوسطى بينك وبين حشود مستقبليكم ومودعيكم ، ولكنى كنت مازما على ألا تصلك أى رسالة قاتلة عدا التى تخترق جسمى ، (١٠) .

كانت هذه احدى المناقشات التى دارت بين الزبير وجاكسون فى اخريات أيامه ، وقد تبينا من خلال هذا الحديث مدى الاقتناع القوى للكاتب بشخصية الزبير ، واكثاره من المديح والاطراء له وعرض الصفات الطيبة التى كان يتحلى بها وما كان فى ماضيه السياسى والعسكرى فى السودان من مغامرات ومسؤولات مع الحكومتين المصرية والانجليزية ، كما نستشف من هذا الحديث مدى اعزازه وحبه للسير ونجت الذى كان له فضل الافراج عنه عندما كان فى جبل طارق ويشير هذا الحديث أيضا الى مدى اخلاص الزبير للحكومة المصرية ووفائه لها عندما عرض عليه الانجليز فى جبل طارق تولي الحكم فى السودان ، كما أشار هذا الحديث الى مدى اخلاص الزبير للانجليز رغم ما فعلوه معه .

اتصال الفرنسيين بالزبير فى مصر :

حدث اثناء اقامة الزبير فى القاهرة وبالتحديد فى سنة ١٨٩٦م ان زاره سرا فى أحد الأيام بعض كبار الفرنسيين من أصحاب

النفوذ في بلادهم ، وجلسوا معه الى ما بعد منتصف الليل بساعاتين يحاولون اقناعه بالتوسط بينهم وبين رابع لعقد اتفاق لوقف الحرب الدائرة بينه وبينهم بسبب (برنو) التي كانوا يريدون الاستيلاء عليها ، أو يطلب منه الزبير الانسحاب منها بمقتضى الاتفاق الذي يتم عقده معهم ، وقد عرضوا على الزبير نظير ذلك مبالغ طائلة من المال ، كما أبدوا له استعدادهم لتنفيذ كل ما يطلبه منهم دون أدنى اعتراض ، غير أن الزبير رفض قبول عروضهم هذه أو للتوسط بينهم وبين رابع . وذلك لأن الزبير كان قد نفى يديه من أمور الحرب والقتال ، وما يجرى في السودان منذ مصرع ابنه سليمان . وكان لذكر اسم رابع وانباء الحرب والغزو رد فعل في نفسية الزبير جعلته يحس بريح حزينة تهب في صدره ، وتسود له مراكب الماضي وذكريات أعوام طويلة قضاهها بين رائحة البارود وحلاوة النصر من معركة الى أخرى . وقد كان آخر ما اتصل به بأخبار رابع بعد أن رفض التسليم لرومو لوجسى مع سليمان ابن الزبير ، أن مضى نحو الغرب ومعه ألف من الرجال المسلحين الى أن وصل برنو ، ففتحها وأسس فيها ملكا عظيما جعل عاصمته دكوه جنوبي بحيرة تشاد الى أن دخلت برنو هذه في نطساق النفوذ الفرنسى ، فجردوا عليه جيوشهم ، ولكنه كان ما يزال القائد الذى سار تحت لواء الزبير من نصر الى نصر ، فهزم هذه الجيوش فى أكثر من معركة دامية . ولهذا السبب اتجا الفرنسيون الى الزبير للتوسط بينه وبينهم ولكن الزبير خيب آمالهم (١١) .

وتذكر المصادر التاريخية أن رابع كان قد قضى على بعثة للفرنسيين فى سنة ١٨٩١ يقودها كرامبل J. Crampel وفى نفس العام قضى على بعثة فرنسية أخرى يقودها الملازم البحرى بريتوننت Bretonnet عند توجويا Togoba بعدها اتخذ الفرنسيون فى سبيل التقطع عليه خطوات فعالة ومؤثرة حتى

قتل على يد قوة فرنسية بقيادة جنرال Gentil حاكم اسارة
الشارى بالقرب من بحيرة تشاد (١٢) .

وقد كان الموقف الذى اتخذه الزبير من عرض الفرنسيين موقفا
سليما لا يمكن الطعن فى صحته ، فقد آبت عليه كرامته ووطنيته
وأخلاصه كقائد عسكري ، وزميل كفاح قديم لأربع أن يدنس يديه
بهذه الأموال ، أو أن يقبل عقد اتفاق لا يعلم هل يرتضيه أربع أو
لا ؟ . كما أنه ليس من المستبعد أن يكون هؤلاء الفرنسيون مدسوسين
دفعاً من قبل اعداء الزبير من الانجليز وغيرهم لاختيار مدى حياد
الزبير من جهة ما يدور فى السودان ، وخاصة بعد عودته من
الأسر ، أو العمل على إيقاعه فى شرك الموافقة تحت تأثير الأموال
لكي يمكن اتخاذه مرافقه هذه ذريعة تثبت عليه امكانية معاودته
الاتصال بقواده القدامى للتدخل فيما يحدث فى السودان بسأى
صورة من الصور ، وفى هذه الحالة يتيح لأعدائه الفرصة لأن
يفعلوا به ما يشاءون ، ولكنه كان الرجل الذى لا يابن أمام اغراء
المادة ، فأوصد بذلك الأبواب جميعها أمام من أرادوا له المكيدة
وأبت عليه وطنيته وشرقه العسكري خيانة زميل كفاح قديم .

السماح للزبير بالسفر الى السودان :

لم تملك السلطات الانجليزية والمصرية فى القاهرة بعد مضي
ثلاثة عشر عاماً على عودة الزبير الى مصر من منفاه بجبل طارق ،
واجتيازه فترة الاختبار هذه بنجاح تام ، وتأكد أولى الأسر من
حياده وانصرافه كلية عن الاهتمام بالشئون السياسية والعسكرية ،
وما آلت اليه أحداث السودان من تطورات سريعة الا أن تعمل على
توفير جو من الثقة والأمان لهذا الرجل ، وترد اليه ثقته فيه ، ومن

ثم أعاد إليه كرومر في سنة ١٩٠٠م ماصودر من أملاكه في عهد
جوردون (١٣) .

كانت هذه الخطوة التي اتخذتها الحكومة في سبيل تصفية
جو الخلاف وعدم الثقة الذي كان قائما بينه وبينها ذات أثر طيب
في نفسية الزبير وتبع هذه الخطوة من جسابات الحكومة خطوات
أخرى بعد سنوات قليلة تأكيداً لاعادة ثقتها فيه ، وهي السماح
له بالسفر إلى السودان ، وكان ذلك في أواخر سنة ١٩٠٣م ، وكان
الزبير في هذه الآونة قد بلغ من الكبر مبلغاً ، فقد قارب عمره في
هذه السنة على الثانية والسبعين ، وأصبح الطريق ما بينه وبين
النهاية المرتقبة قريباً جداً ، وقد طالت به أيام الفراق والبعد عن
الأهل والوطن ، وأخذ حنينه وشوقه يزداد بعد غياب للعودة إلى
بلاده لكي تكتحل عيناه برؤية الأرض التي ولد فيها والربوع التي
عاش عليها ، وقضى فيها معظم مراحل حياته تاجراً وقائداً وفاتحاً
مظفراً ينتقل من نصر إلى نصر ، ولم يكن قرار الحكومة الخاص
بالسماح للزبير بالسفر إلى السودان قراراً عشوائياً أو ينطوي على
نوع من الشفقة أو العطف عليه ، بل جاء نتيجة الأسباب التي أشرنا
إليها بالاضافة إلى استقرار الأوضاع في السودان السياسية
والعسكرية ، بعد أن تم استرداده والقضاء المبرم على النفوذ الفعلي
للمهديين واستئصال شأفتهم وذلك بمقتل خليفتهم عبد الله التعايشي
في موقعة أم درمان .

وصل الزبير إلى الخرطوم في أواخر سنة ١٩٠٣م وأمضى
فيها عامين زار فيهما أهله وحشيرته ، ودبر أمر أملاكه التي ردت
إليه وإدارة شئونهما ، وأبتنى له دارين في أم درمان (الجسيلي)
وقضى بين أهله هناك فترة استعاد فيها الكثير من ذكريات الأعوام
الماضية (١٤) .

وقد بانر أحمد أفندي سيف النصر لدى وصول الزبير رحمة
إلى الخرطوم باستضافته في منزله الخاص في أم درمان ، فصر
الزبير باشا سرورا عظيما لهذا الأكرام ، وكان حمدي أفندي وقتذاك
مأمورا لمدينة أم درمان وله النفوذ والسلطان ، وكان أهل السودان
في ذلك الحين أشبه ما يكونون بالريض الذي نجا من الخطر وبدأ
يسترد عافيته رويدا رويدا ، وذلك بعد ما نزل بهم من محن على يد
حكومة عبد الله التعايشي خليفة المهدي ، فقدم حمدي أفندي الممكن
والمستحيل من الخدمات لحفظ مكانة الزبير باشا في أعين قومه
مما حبه إلى قلوب السودانيين وجعل اللسان تلهج بالشكر والثناء
عليه حتى أن الزبير باشا نفسه خاطبه ذات مرة بزجل سوداني أخذ
القوم هناك يرددونه في مناسبات شتى (١٥) .

وقد حدث في أثناء وجوده بالسودان في يناير سنة ١٩٠٥م
أن بلغه خبر زيارة صديقه الشيخ محمد عبده لربيع السودان ، فتاقت
نفسه لرؤيته والتشرف بدعوته لزيارته في مزارعه بالسقاي ، وهي
تقع شمالي الخرطوم وتبعد عن الجابلي بمقدار عشرة كيلو مترات
وكان قد ابتنى له فيها قصيرا من طابقين ، غير أنه كان يعاني في
هذه الأيام من وعكة الزمته الفرائض فرأى أن يوجه إلى الشيخ محمد
عبده كتابا يدعوه فيه لزيارته فكتب إليه يقول :

من الزبير رحمة باشا العباسي بالسقاي ، إلى رئيس العلماء
الكرام وزين الأكرمين الفقهاء ، هزين الأصل ، وشريف النسب
والنسب ، جناب حضرة محمد عبده مفتي الديار المصرية والأقاليم
السودانية ، دام معززا مكرما أمين . بعد تقديم السلام المشتعل على
الأيادي والاقدام ، بغاية كل أدب وخضوع وزيادة احترام ، مع سؤال
القلبي عن صحتكم وعما أنتم فيه وعليه من الأمور الخيرية ، التي
نرجو دوامها عليكم بكرة وعشوية ، أنه على ما يشاء تقدير ،

وبالاجابة جدير ، ثم احيط شريف علمكم وهو أنه قد بلغ مسامعي حلول اقدامكم الشريفة بعاصمة بلادى السودان بالخرطوم ولما بينى وبينكم من المحبة والمودة الخالصة والمخلصة ، فلا شك ولا ريب أن تكون الآن انت ضيفا لى خاصة دون اشراف السودان كلها ، وقد كنت قبل قيامكم من مصر فرحا مسرورا بقدومكم وتشسريف بلادى بها مستعدا لتشريفى بمقابلة ذاتكم مع أول كسرام الناس المستعدين لمقابلتكم . ولكن ياأسفا وياأسفا قد منعنى ما منع قبل أبرهة الحبشى عن البيت الحرام عن مشاهدتكم وتشريفى بمقابلتكم بسبب ما حدث لى من اللطف الشديد ، ولغاية تاريخه ملازم القراش ، انتظر العفو من الله عز وجل ، وأرجو من كرمكم المشهور قبول ما تضمنته هذه الرقعة بالنيابة عن شخصى مع أسفى وعدم مرادى ، كما أن الأمور كلها تجرى بحسب مقادير الله تعالى ، وليست تجرى على حسب خواطر العباد .

وامنىكم وثم امنىكم واهنى اشراف بلادى كلها من علمائها الكرام واشراف قبائلها بقدوم اقدامكم السعيدة ووصولها بعاصمتها بالخرطوم ، واهنى نفسى غاية ونهاية ملحوقا بهسم ، أعادكم الله تعالى إلى مصر سالمين غانمين ، معززين مكرمين فرحين مسرورين ، من علمائنا جميعا ، واهالينا آمين .

وفى الختام أقبلوا فائق الاحترام .

٢٦ يناير سنة ١٩٠٥م

الوزير رحمة باشا العباسى بالسقائى

كاتبه

وقد اعتذر الامام عن عدم الزيارة اعتذاراً رقيقاً لضيق وقته . وقد زاره بعد ذلك فى حلوان بعد عودته إلى مصر فتذاكر معه فى شئون السودان (١٦) .

لم تستمر زيارة الزبير للسودان سوى عامين حتى عاد الى مصر حيث اقام في حلوان التي بنى له فيها قصراً وكان يقيم قبل ذلك في قصر أحمد حشمت (١٧) .

وقد اقام الزبير في قصره بحلوان خلوة لتعليم الصغار القراءة والكتابة والدين ، وقد اختار لهذه الخلوة الشيخ سيدي وكان هذا الشيخ يدعو الزبير باشاً عند قراءة فاتحة الكتاب ، وكان من ضمن التلاميذ ابنه سعد الدين الزبير وقد حفظ القرآن على يده . ومما يذكر عن الزبير في آخريات حياته أنه كان يجلس عقب صلاة الجمعة بين أهله في مكان ما في حديقة منزله الواسعة ، ثم يأمر بوضع علف على بعد مناسب ، ثم يتبارى الإبناء في محاولة أصابة هذا الهدف ومن ينجح في أصابته ينال جائزة مالية من الزبير (١٨) .

الشعر في حياة الزبير :

وحديثنا في هذه النقطة ينقسم الى قسمين :

أولاً : كيف استطاع الزبير أن ينشئ شعراً ؟ وما هو هذا الشعر ؟ .

ثانياً : ما قاله الشعراء من شعر في مدح الزبير وأشادة به وببطلاته في حياته وبعد مماته .

أولاً : ما أنشده الزبير من شعر في حياته :

ولابد لنا أن نقف قليلاً لنرى كيف ان الزبير التاجر المعروف والقائد المظفر قد دخل في حياته الشعر ، برغم ما حفلت به من المشاغل والأحداث الجسام المتتالية التي لم تعطه الفرصة المناسبة لكي ينشئ شعراً بالمفهوم الأدبي المعروف لدى الشعراء ، كما أنه لم يكن لديه موهبة قرض الشعر ، علاوة على أنه لم يدرس أصول

قرض الشعر . ولكن الشيء الذي يمكن أن نعزو إليه قيام الزبير بإنشاء الشعر هو أن البيئة التي ولد فيها قد ساعدته إلى حد كبير على ذلك ، يضاف إلى ذلك المواقف العصيبة التي تعرض لها وأوقعته فريسة للكثير من الضغوط النفسية فكان يلجأ إلى قرض الشعر تفريجا عن نفسه الحزينة .

ونصل إلى القول بأن ما أنشأه الزبير يشبه الشعر إلى حد بعيد ولكن في صورة أجزال انتظمت في عدد قليل من القصائد القصيرة التي لا تحكمها قواعد لغوية معينة ، وقد قالها وهو في ظروف نفسية صعبة اضطرت له لإنشائها لكي يفرج بها عن نفسه ويمسح بها وحدته ، فحين كان أسيرا بجبل طارق كان كثيرا ما يختلج بنفسه ، وتهيج أعماقه بتوازع الغربة ، ويشهد حينه إلى بياره وأهله وما كان فيه من عز وسود ، فكان ينشئ القصائد التي يبثها همه وما يجيش به صدره على الطريقة التي ينشئ بها الشعراء السودانيون قصائدهم ومن هذه القصائد قصيدته التي أنشأها وهو في جبل طارق يقول فيها :

بمسند الأهل والنسب	وبعد العز والحرس
بعد انتظام الصاكر المؤسسة	وبعد فرسان نفسي المخصه
انقلب الدهر وانعكس	بحس الزبير في الأندلسه
يارب ياخالق الكون يا مؤسس	عجل بالفرج قبل النفسه
ترجع وتشوف عزا مؤسسا	من فضلك يا كريم لاينقصا (١٩)

وما قاله أيضا وهو في جبل طارق تلك الأبيات :

يأبيل مائى هيين ولأنى هوين فى الكفر والإسلام أسمى بين
 وفى قومي هناك بيتى بين للمسافر والمقيم قدحى ليسن
 ولجارى والعشير جانبى لين للأقارب والأرحام يعطى بهين
 توفيقا من المولى الكريم المهيمن وكل شى منه والأمر بين (٢٠)

وقد سألته حمدى أفندى سيف النصر ذات مرة عما كان ينتابه
 من هموم وهو أسير فى جيل طارق فأجابته « كنت أدبى ، أى أغنى
 بفناء السودان وأخاطب أعضاء جسمى لأن الحساس لا يفهمون
 لغتى ، وأنا أجهل لغتهم أيضا فكنت أقول :

كم يا الساق خلفناك فوق بشاريه
 وكم اليد جلدتسا بسك جنبى الوحشية

وكم يا القسم إنعمناك مرارة وشسياه
 سستين تموم أهل العصر عاريسه (٢١).

وكما كان الزبير ينشئ شعرا لنفسه كان أيضا يردد بعض
 الأبيات التى كان يحفظها ويرتاج بترديدها فى منقاه بجبل
 طارق منها :

سلوا أم عمر كيف بسات أسيرها
 تفك الأسسرى دونه وهو موثق

فما هو مقتول ففى القتل راحه
 ولا هو ممنون عليه فيطلق (٢٢)

لقد امتدح الزبير حمدى أفندى سيف النصر ذات مرة نظير
 الخدمات التى قدمها للزبير حين موصلته للسودان ، واستضافته له
 فى منزله ، هذه الأبيات :

أنت يا حمدي رفيقي وتمام كيفي
ودرجة عصاي وبسلاي وسيفي
مطمورة فلاني مونة خريفى وصيفى
سكنا عيوى عن نساي وجارى وضيفى

وقد أخذ القوم يرددون هذه الأبيات فى شتى المناسبات (٢٢) .
ثانيا : ما قاله الشعراء فى مدح الزبير والاشادة به وببطولاته
فى حياته وبعد مماته .

ويتلخص حديثنا فى هذه النقطة فى أن كثير من الشعراء
المصريين والسودانيين قد امتدحوا الزبير رحمة مشيدين ببطولاته
وامجاده وشجاعته وشخصيته المحبوبة فى حياته وبعد مماته . وكان
على رأس هؤلاء الشعراء شاعر النيل العظيم حافظ إبراهيم ، وكذلك
شاعر السودان المشهور أبو شوره وهو فى نفس الوقت شاعر بلات
الزبير الخاص ، وكذلك الشاعرة السودانية المشهورة بذت مسرى ،
وفى الأسطر القادمة سوف نرى ما قاله هؤلاء فى مدح الزبير .

ويرى لنا صاحب كتاب الفروسية فى الشعر الشعبي
السوداني أن شاعر الجعليين أبو شوره كان على الاخص شاعر
البلاط للزبير ، ويصف أبو شوره قتال الزبير وقواده ضد حدة
اليلالى سنة ١٨٦٩م بقوله :

ذقتك ذقن الرجال	ماها الدقية أم طوطية
فى اليوم ايبا حروب	سنتك ثغر ميسوطية
بوارق عنقورة وحامد	البسى وثامك مفروطية
سكيت البسلالى	لمن وقع فى اليوطية

وتصف الشاعر بنت مسيس فروسية الزبير فتقول :

سموك الزبير فارسا تشد الخيل
وسموك الزبير فارسا لصد الخيل

وسموك الزبير صالحا تقيم الليل
وسموك الزبير بتغير هوية الليل

قاسم

والعاصي باقسي لكيس

قاسم

والعاصي باقسي لكيس

وهناك قصة تذكرها عن الزبير وهو أنه قد بلغه أن الخارجين على النظام من عرب الرزيقات قد قتلوا أخا لهم وبعض التجار السالكين بطريق القوافل ما بين بحر الغزال وشكا . وكانت رؤياه منامية وقد عرف بصنقها ، فأصبح الزبير متجهم الوجه لا يستطيع أحد أن ينظر إليه أو يفتحه في أمر . فأمر الزبير بسرج فرسه فعلم الجميع أن هناك غزوة جديدة ، ولخشيتهم من سؤال الزبير عن الجهة المتوجهين إليها ، اتفقوا جميعا على قواد الزبير على أن يجعلوا للشاعر أبي شورة نصيبا من المال والمبيد أن هو تمكن بلباقته التي عهدوها فيه والذكاء الحاد من معرفة الجهة التي ينوي الزبير غزوها ، وقطعوا على أنفسهم عهدا بذلك أي بدفع ما اتفقوا عليه لأبي شوره ، فهيا الشاعر نفسه لذلك الموقف وبعد اسسراج الخيول ، وامتطى كل واحد صهوة جواده ، أسرع الشاعر أبي شوره إلى فرس الزبير ، وأمسك بعنانه ، فما وضع الزبير قدمسه على الركاب حتى أنشد الشاعر أبي شوره ووجهه في اتجاه مغاير عن الزبير قائلا :

أمر منى الصلح بخلع
تعزل في القلوب بهم تلح
الرجل تزرع وأنت بتلح
غاطس يا أدرائش مقلح

فرد الزبير بحزم قائلا « شايلا قنلا » وهي اسم بلد ، فاسترسل
أي شورة بعد ما عرف المكان الذي سوف يتوجهون إليه للغزو .

ويذكر المؤلف أن غزوات الزبير تذكره بذلك الفارس الشاعر
العربي نريد بن الصمة الذي قيل عنه أنه غزا مائة غزوة في بلاد
الحرب ، كما خلد أبو الطيب المتنبي سيف الدولة بن حمدان وغزواته
لاستتاب ملكه في بلاد العرب والروم . وعلى كل فليست هنالك
فروسية دون أن يكون لها قرسان مغامرون يتمايزون في صفاتهم
واقترانهم لمواطن الأقدام ، لكي تعرف دروب الفروسية ومقاييسها
بينهم ، ولولا الحياة النائية ولقاء الموت في الميادين لربما اختفت
الفروسية وتلك الفضائل والتميزات يصورها الشهاير أبو الطيب
المتنبي فيقول : -

ولا فضيل فيها للشجاعة والفدى
وهيبر الفلبي لولا لقاء شعوب

ويقول الكاتب أن الأبطال لم يعدموا هذا التمييز لتاريخهم
ومآثرهم الحية ، لذا كان جريا أن يتغنى الشعب السوداني ببطولة
الزبير ود رحمة ، وأن تنال مواقفه وأعماله ورسالته التي أداها
كثيرا من تعجيد البطولة والكرم والفيل ، ونولاه لفقد السودان
مساحات ومديريات شاسعة أضسفت رقعتهسا إلى الجمهورية

السودانية ، ولولا بعض العقبات لكانت هناك أقطار أخرى ضمن نطاق السودان (٢٤) .

وعندما انتصر الزبير باشا على عرب الرزيقات أخذ أنصاره ينشدون له أنشودتهم المشهورة وهي :

« حد باي فرط بوارقه حاققت عربيا وابطة المدرب جاي نخاس
زمانه ياناس حد باي » ومعنى هذه العبارة أن الزبير باشا الشجاع
جاء بخيله ورجاله واقتصر من الأعراب قطاع الطرق وحد باي .
لقب من القاب الفرسان عندهم (٢٥) .

وقد مدحته الشاعرة المشهورة بنت مسيس مرة أخرى بقصيدة نظمها له بعد نزوله إلى مصر منها قولها :

ففي الخرطوم نزل أداسي بالبايجور
وفى بربر رسا بالقهوة غره بسور
جانبوا لسه الجمال الوجهه العصور
خلق الريف نزل قال مصر مستور
في بلد النصارى كسم سحت بالبايجور
كل صبيح جديد راجب على الحلتور
من قمت الجهل أنت المتقديم ماصور
ادوك الامان خافين عليك الجور
في السودان قبيل ما يشبهوك الناس
ويا جبل الذهب الصافي الشاك نحاس
بارود النصارى عن قمزة الكباس
خليست المجسوس ليس من القرطاس

عدي عصره زين في ديار بلاد الناس
وفي دار الغروب دقيقت للرجال اساس

كم قتل السلاطين خلبي الديار ياس
ود رحمة الزبير قام الرجال خلاص (٢٦)

وهذا الشعر الذي أنشدته الشاعرة بنت مسيس غريب في
الفاظه غامض المعنى وليس من السهل فهم معانيه بسهولة لأنه
يميل إلى العامية أكثر من ميله إلى اللغة القصص ، وكانت هذه
عادة شعراء السودان أن ينشئوا شعرهم بالعامية ليسهل ترديده
بين العامة .

وأخيراً فقد رثاء شاعر النيل للعظيم حافظ إبراهيم عندما
بلغه نبأ وفاته ، وكان عندئذ في طريقه إلى السودان ليستشفى من
مرض أصابه فتحركت حينئذ أشجانته وهو يهل على السودان بعد أن
غاب عنه أسده ، وأقبرت رياه من صورته فكتب يقول :

يا روضة النيلين جئت مساماً
فعلبك من لبدن الأله سلام

لي في ربوعك من رجالك معشر
شسم ، إذا جاز الزمان كرام

أين الزبير ؟ أبو الفوارس والندى
قند غيبته عن حماك رجسام

قد كان فخرنا للبلاد ونكسره
بسباق بهما ماكرت الأعوام

كفاه سودنا كفسه حاتم
جودا ، وكفة عتسر وحسنم

وليسى لهاودع كسل قلبه حشيرة
ويكى عليه العرب والأعجم
فجيساه رب الكائنات نعيمه
وسقى نراه من السماء غمام (٢٧)

وهكذا حفلت حياة الزبير بالشعر الذى مدحه به الكثير من شعراء مصر والسودان كذلك ما قاله وأنشأه من شعر كان يردده دائما عندما يضيق صدره أثناء فترة أسره بجبل طارق وهى الفترة التى شهدت كثرة تردده لهذا الشعر .

رحلة الزبير الأخيرة الى السودان :

بعد طول إقامة الزبير فى مصر امتدت لسنوات عديدة بدأت منذ وصوله إليها فى العاشر من يونيو سنة ١٨٧٥م حتى تاريخ رحلته الأخيرة الى السودان فى العاشر من أغسطس سنة ١٩١٢م لم يبتعد فيها الزبير عن مصر الا مرات معدودة ، بدأت بسفره فى الرابع عشر من أغسطس سنة ١٨٧٧م ضمن الحملة التى أرسلتها مصر لمساعدة الدولة العثمانية فى حريها ضد روسيا ، ثم عودته منها فى السنة التالية ، المرة الثانية التى ترك فيها مصر عند نفيه الى جبل طارق فى يوليو سنة ١٨٨٥م ، ثم عودته من المنفى فى أغسطس سنة ١٨٨٧م . والمرة الثالثة هى زيارته الأولى للسودان فى أواخر سنة ١٩٠٣م ، وعودته منها فى أوائل سنة ١٩٠٥م . وبحسبة بسيطة نجد ان الفترة التى قضها خارج مصر فى أسفاره هذه لم تزيد على خمس سنوات بينما امتدت إقامته فى مصر الى السبعة والثلاثين عاما ، وبذلك يمكن القول بأن مصر أصبحت بالنسبة للزبير بمثابة الوطن الثانى ، ولكننا لا نستطيع أن نقول أنه قد أصبح مواطنا مصرية ، لأنه بالرغم من طول مدة إقامته فى مصر ،

وبالرغم من أسفاره الكثيرة خارجها والأحداث والظروف التي مر بها،
والشخصيات التي احتك بها وعرفها ، وبالرغم من المظاهر الحضارية
التي لمسها في مصر وخارجها ، فإن كل ذلك لم يجعله يفرط في
التمسك بسودانيته ، وكل ما يتصل بها من عادات وتقاليد انعكست
صورتها في شخصيته وسلوكه اللذين حببا إليه الكثيرين ممن عرفوه
واتصلوا به ، وإن كان قد تأثر بنواح أخرى تعتبر أساسا من
النواحي المظهرية التي لا تمس الجوهر في شيء وهو جانب النزي
فكان كثيرا ما يرتدى البدلة والطربوش وهما على غير لبس أهل
السودان . إلا أنه رغم ذلك عاد إلى وطنه السودان وهو متمسك
بكل ما هو سوداني فحق لوادي النيل أن يفخر به ويضعه بين
عظمائه .

تاقت نفس الزبير للعودة إلى الوطن بعد ما مرم جسمه ،
واعثلت صحته ، وبلغ من الكبر مبلغا ، وأصبح الطريق بينه وبين
لقاء ربه قريبا ، فرأى أن يقضى ما بقي له من عمره بين أهله
وذويه ، وكان قد تمنى على الله يوما أنه إذا ما أدركته المنية أن يوارى
جسمانه في تربة وطنه لتحتضن ذلك القلب الذي شرب من ماء
النيل ، فكان لا يكف لحظة واحدة عن أن يخفق من أجله . فما
أقبلت أسية العاشر من أغسطس سنة ١٩١٢م حتى كانت محطة
القاهرة للسكة الحديدية قد بدأت تموج بحشود المودعين من كبار
رجال الدولة والجاليات الأجنبية ، وقد أحاطت بقطار خاص أعدته
الحكومة ليقل الزبير رحمة والثلاثمائة من رجاله المخلصين ، وهي
الحاشية التي عاشت في كنفه راضية سعيدة ، إلى السودان . بينما
كان في الجانب الآخر عربة صغيرة تخرق شوارع القاهرة تحمل
أبنة سعد الدين من المدرسة الحربية متجهة إلى المحطة لكي يشارك
في وداع أبيه ولكي يتزود منه بالحنان الذي يفخر به الوالد أبنة ،
وكذلك لكي يتزود بالنصح والارشاد اللذين لابن صغير ، فعرفه

والده من ملابسه الرسمية ونادى عليه ثم عانقه ، وفى هذه اللحظة انهمرت دموع الفراق على وجنتى الأب والابن ، ولم يستطع كل منهما أن يمنع نفسه بما تفيض بها كانت تكتمه من شجن ، فكان منظرا مؤثرا حقا ، ولكن سرعان ما استعاد الزبير رباطة جأشه وأخذ يوهى ابنه بالنصائح اللازمة وبالسمعة الحسنة والمسلك الطيب والجد والمثابرة ، ثم حاول أن يطمئنه فمضى يحدثه بأنه قد أوهى المسئولين فى القاهرة بأن يكون الحاقه بعد تخرجه هو انتهاء دراسته بالقوة المصرية بالسودان حتى يكون الى جواره ، ولكنسه كان اللقاء الأخير بين الأب وابنه ثم تحرك القطار والزبير يدعو لابنه بقوله « هداك الله وأبلغك هناك » وسافر الزبير الى السودان وتشارك مصر فكانت رحلة بلا عودة (٢٨) .

وفياة الزبير باشا وهو بالسودان :

توفى الزبير فى صباح السادس من يناير سنة ١٩١٣م بعد حياة امتدت الى اثنين وثمانين عاما ، التقى فيها بالموت فى ساحات القتال وميادينه أكثر من مائة وخمسين مرة ، فكان يلقاه فى كل مرة أسدا هصورا يصول ويجول ويزوغ منه دائما وينتصر عليه ، وقد بلغ نيا وفاته الى ابنه سعد الدين فى مصر حيث استدعاه قائد المدرسة الحربية وأنهى اليه نيا وفاة والده . وعرض عليه باسم الحكومة المصرية اعانة مالية ، مع رغبته فى أن يكون مسافره للسودان فى الحال هو ومن يرغب من أفراد أسرته على نفقتها .

وفعلا سافر الابن سعد الدين الى السودان بينما كانت الأمور تجري على نحو آخر فيها فقد نكست أعلام الأمة بأكملها حدادا على وفاة الزبير ، وعظمت المصالح والمتاجر ليشارك الجميع فى مراسم ذلك الاحتفال العسكرى المهيب الذى أعدته الحكومة لتشيع به جثمان الفقيد الراحل الى حفره الأخير فى النجاشي . ومضى النعش على

عربية مدفع تحف بها الأورطة الثالثة عشرة السودانية بموسيقاها ،
ومن خلفه مضي كبار رجال الحكم في السودان وأعيانه ، وكيسار
أفراد الجاليات الأجنبية هناك ، الذين حضروا في قطار خاص قام
بهم من الخرطوم إلى الجايلي للاشتراك في تشييع الجنازة . وكان
على الجانبين يقف الأهليون ومعهم الرجال الذين ذاقوا حسالة
النصر في ميدان القتال تحت أعلام القائد الراحل ، وقفوا يتطلعون
إلى المشهد الباكي الحزين ، وفي عيونهم دموع الحزن وفي قلوبهم
حزن أعظم .

وقد بلغ ابنه سعد الدين الزبير السودان بعد أن تم كل شيء
متعلق بمراسم الجنازة وانتظر يتقبل مع الأسرة ما قاضت به قلوب
الجميع من عزاء ومواساة ، ولم يكن والده في هذه اللحظة هو الذي
مات بل كان الذي مات هو رجل مصرر والسودان قبل كل شيء
وفي يوم الاثنين الموافق ٦ يناير سنة ١٩١٣ م كتبت جريدة الاهرام
معيدتها (٢٩) ١٥٩٣ تحت عنوان الزبير باشا تنعى رجل السودان
للمشرق والغرب كله وتقول : « وصل إلينا والاهرام تطيع نبأ وفاته
المرحوم الزبير باشا رحمة السودان المشهور ، وقد توفي رحمه الله
في أم درمان بين أهله وذويه ولا متسع اليوم لبسط شيء من تاريخه
وشهرته في مصر والسودان يكاد يفنى عن تعريفه تغمده الله بطيب
رحمته ورضوانه وإلهم أهله وذويه الصبر الجميل » . وهكذا توفي
الزبير باشا والأمة السودانية كلها حزينة على فراقه كذلك كل من
في مصر بل في العالم العربي بأجمعه . وذلك لأنه فقد بطلا من
أبطاله الذين صنعوا للسودان تاريخا حافلا بالانتصارات ، ولا يفوتنا
أن نذكر في نهاية الحديث عن الزبير رحمة أن السيف الأثري ذا
المقبض المرصع الذي كتبت عليه عبارة الحروب الصليبية ، والذي
كان قد أهداه الخديو إليه عقب عودته من منفاه بجبل طارق ، يرقد

الآن في المتحف البريطاني بلندن وهو أمر لا ينبغي السكوت عليه
بل يجب المطالبة به من جانب الحكومة السودانية .

هكذا كانت نهاية الزبير باشا التاجر الناجح ، والفساح
المتنصر . والقائد المظفر بعد حياة امتدت الى اثنين وثمانين عاما
حفلت على طولها بالكثير مما لا يستطيع حصره من ألوان الكفاح
والنجاح في ميادين الحرب والمغامرة . لذلك فانه لايعوزنا في هذا
المقام أن نعيد ذكر ما حفلت به حياة هذا الرجل العظيم من أمجاد
وانتصارات أو سرد ما تحلى به من صفات طيبة ، فقد كفانا ما سبق
ذكره في صلب الرسالة نقلا عن معاصريه من المؤرخين ورجال
السياسة والحكم وكبار العسكريين ، الذين كان منهم أصدقائه
وأعداؤه ، لايسعنا إلا أن نختم حديثنا عن الزبير باشا بالقول بأنه
كان شخصية لها من القوة والمظمة ما يجعلنا نضعها في مصاف
عظماء وأعلام التاريخ ، وقد كانت حقا جديرة بالدراسة والبحث
ويذل المزيد من الجهد في سبيل الوصول الى حقيقة ما حفلت به
حياته وما اكتنفها من غموض . رحم الله الزبير باشا وهو يكافح في
سبيل وطنه ودينه .

قوامش الفصل الخامس

- (١) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ٢٠٧ .
(٢) Jackson, H.C. : Behind The Modern Sudan P 100.
(٣) Moorehead, Alan : The White Nile P. 182.
(٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٢١٦ .
(٥) نعيم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج ٢ ص ٨٧ .
(٦) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٢١٦ - ٢١٧ - ٢٢٨ - ٢٢٩ .
(٧) قصر الجيزة : وهو خاص بالخديو اسماعيل ولد به الامير احمد فؤاد وكان يكون جزءاً من حديقة الحيوان ، وقد نزل به الزبير بعد قصر العباسية الذي كان يقع بجوار شريط المسكة الحديد أمام جامعة عين شمس وكان يزوره بقصر الجيزة الامير حسن باشا الابن الثالث للخديو اسماعيل .
(٨) عبد الرحمن زكى : اعلام الجيش والبحرية في مصر أثناء القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٥ .
(٩) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٩ ، ٢٠٩ - ٢١٠ .
(١٠) Jackson, H.C. : Op. Cit., PP. 105 - 108.
(١١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٥ - ١٤٦ .
(١٢) Collins, O. Robert : The Southern Sudan 1888 - 1898 P. 189.
(١٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٦ .

- (١٤) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٤٦ .
- (١٥) محمد أحمد الجبري : في شأن الله أو تاريخ السودان كما يرويها
أمله ص ١١٧ - ١١٨ .
- (١٦) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٦ - ١٤٩ .
- (١٧) قصر أحمد حشمت : وهو مدرسة محمد علي الابتدائية الملاصقة
حاليا لقسم السيدة زينب وهو أول شارع طور سيناء بحي السيدة ، وأمام
هذا القصر كان يقيم خدمه وحشمه من العبيد أمام حارة درب الشمس ، وقد
حدث بالقصر حريق أتى على جميع ما به من النقائس والوثائق والتحف
فدمرها .
- (١٨) من حديث مع ابنته الأستاذة محمد جميل الزبير رحمة الذي يقطن
حاليا بمنطقة أمبابة على النيل في أحد العوامات أمام مبنى وزارة الثقافة .
وهو من أصغر أبنائه ويبلغ من العمر السبعين عاما وله ولدان ، وقد اعتاد
التربط على السودان سنويا لمباشرة أعماله ومصالحة هناك وقد استطعت
مقابلاته أكثر من مرة للحصول على ما يمكن الحصول عليه من معلومات أو
وثائق وأخيرا أرشدني إلى بعض النواحي المهمة في حياة والده والتي سأحتقن
في هذه الرسالة .
- (١٩) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٤٤ .
- (٢٠) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٣ ص ٨٦ - ٨٧ .
- (٢١) محمد أحمد الجبري : المرجع السابق ص ١١٨ .
- (٢٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٤ .
- (٢٣) محمد أحمد الجبري : المرجع السابق ص ١١٧ .
- (٢٤) سليمان خالد عبد الحمود : الفروسية في الشعر الشعبي
السوداني ص ٣٦ - ٤٠ .
- (٢٥) محمود القباني : السودان المصري الانجليزى ص ٢١٦ .
- (٢٦) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٢ ص ٨٨ .
- (٢٧) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٢١٤ - ٢١٣ .
- (٢٨) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٢٠٨ - ٢١١ - ٢١٢ .
- (٢٩) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٢١٤ - ٢١٥ ، ٢١٨ .



الخاتمة

ونتائج البحث

الخاتمة

ونتايج البحث

بعد أن استعرضنا في سطور الفصول الخمسة السابقة للرسالة الأصول الأولى لأسرة الزبير باشا رحمة منذ هجرتها من العراق قرارا من بطش المغول الى بلاد الشام ثم انتقالها الى مصر ، وما واجهته خلال هذه المراحل من مصاعب اتسعت بالقسوة والحرارة وخاصة في مصر عندما لم تجد ما كانت تعتقد عليه الآمال ، فكان من نتيجتها وفاة الجد الأكبر الشيخ جموع بن خانم ، وورث الابن ويدهى جميع تركة أبيه المثقلة بالاموال ، الذي لم ينظر متوقفا تطور الأحداث بل عول على أن ينحدر مع أهله وحشيرته ومن اثر الانضمام اليه مع النيل نحو الجنوب والاستقرار على جانبي النيل الأبيض .

وقد تلا ذلك استعراض مفصل لحياة الزبير باشا منذ مولده بجزيرة واوسى الهادئة الخضراء في السابع عشر من محرم سنة ١٢٤٦هـ الموافق الثامن من يولييه سنة ١٨٣١م ، ثم نشأته وتعلمه واشتغاله بالتجارة ، ثم سفره مع ابن عمه الى الجنوب ، والتحاقه بقافلة أبي عموري ، ثم استقلاله بنفسه . وما أعقب ذلك من قيامه بسلسلة رحلاته الى بلاد قولو سنة ١٨٥٨م ، وبلاد النيام نيام في سنة ١٨٥٩م ، ١٨٦٣م ، وبلاد الملك كريم سنة ١٨٦٢م ، ثم بلاد الملك

دوية سنة ١٨٦٤م وأخيرا بلاد عدوه شكو وابنه سيحا سنة ١٨٦٥م وحروبه مع الملك تكمه وعدوه شكو ، ونجاحه في تكوين مملكة واسعة الاطراف مع جيش قوى في تلك المناطق لحماية ملكه وتجارته فكانت البداية لتاريخ حافل بالاحداث في حياته .

وقد امتد الحديث عن قصة صراع الزبير في منطقة بحر الغزال وشكا ودوره فيها الى مسألة اتهام الحكومة له بتهمة الاتجار في الرقيق ، واتخاذها ذريعة للقضاء على نفوذه وسلطانه بتلك المناطق بتوجيه حملة تحت قيادة شخص يدعى محمد البلالى ، الذى لم يكن مرغوبا فيه من قبل اهالى تلك المناطق أو الزبير نفسه لادعاءاته الكاذبة بملكية بعض الأرض في منطقة حفرة النحاس ، وخروجه عن الاهداف المحددة للحملة من قبيل الحكومة ، والثى كان من نتيجتها وقوع الحرب بين الزبير وممثل الحكومة التى انتهت بمصرع محمد البلالى وتبرئة الزبير من تهمة عصيان الحكومة ، ثم قيامه بتقديم فروض الولاء والطاعة لها .

ولا يتوقف تاريخ الزبير عند مصرع البلالى بل يسوقنا للحديث عن مرحلة أخرى من مراحل صراعه وهو صراعه مع عرب الرزيقات ، بسبب نقضهم لاتفاقيهم معه بخصوص طريق التجارة ثم اندلاع الحرب بين جيش الزبير وجيوش عرب الرزيقات ، ورغم حرج موقف الزبير في هذه الحرب بسبب استعمال الرزيقات للخيول في قتالهم ، فانه استطاع هزيمتهم قرب شسواطنء بحر الغزال والاستيلاء على عاصمتهم ، ورغم رفض السلطان ابراهيم تقديم أى نوع من المساعدة له أثناء الحرب ، أو قيامه بتأديبهم ثم هرب مشايخهم منزل وعليان الى السلطان ، وقيامهم ببث بسذور الفتنة والعداوة بينه وبين الزبير ، ثم قرار الحكومة الخديوية بتعيين الزبير حاكما على مديرية بحر الغزال وشكا بعد ان رأت فيه الرجل القوى التى يمكنها الاعتماد عليه في تنفيذ مخططاتها .

وتتوالى الاحداث ويتطور الصراع بين السلاطان ابراهيم
والزبير بسبب الرزاقات وينتقل من ميدان النصيح والارشاد الى صورة
الخطابات الى ميدان القتال ، وتراها الحكومة فرصة ثمينة لغزو
سلطنة دارفور وادخالها ضمن ممتلكاتها ونفوذها في السودان ،
فتأخذ جساب تأييد الزبير في هذا الصراع وتمدد له يد العون
والمساعدة ، بل انها ترى فيه الرجل الذى يمكن ان يحقق لها ما لم
تستطع تحقيقه في مرحلة من مراحل التاريخ من اهداف ، فيصدر
الخدوي اوامره للحكمدار السودان بتشكيل حملة عسكرية للزحف
على دارفور من جهة الشرق يتولى هو قيادتها ، بينما يترك
للزبير مهمة الزحف عليها من جهة الجنوب ، ويسوق الزبير جيوشه
يفجر الموقف ، فتثور ثائرة السلطان لهذه التحركات العسكرية .
فيحاول علاج الموقف عن طريق تقديم الهدايا والأموال لشريف مكة
وحكومة الباب العالي ليتوسطا لدى الخديو لوقف نزيف هذه الحرب
ولكن سفراءه يشعرون أسرى في أيدي رجال الحكومة ، فيبدأ من
مواجهة قدره بشجاعة ويعد للموقف عدته ، فيرسل الجيش تلو
الأخر لجهة الجنوب لمقاومة الزبير وكسر شوكة فيلقاه الزبير في
كل مرة بشجاعة لم يمهدها السلطان فينتصر عليه وينتهي الأمر
بمصرع القائد أو انسحابه ، ويسجل التاريخ انتصارات الزبير على
عدوه . يهزم السلطان رايه على الخروج بنفسه لمقاومة هذا القائد
الذى لا يعرف الهزيمة ، ولكن الاقدار كانت تكمن له نفس مصير من
سبقوه ، فيلقى الهزيمة الساحقة عند بلدة منواشى على يد جيش
الزبير وتنتهى المعركة بمصرعه في الخامس والعشرين من أكتوبر
سنة ١٨٧٤ م .

ويواصل جيش الزبير المظفر تقدمه نحو العاصمة الفاشسر
فيدخلها في الثالث من نوفمبر سنة ١٨٧٤م منتصرا ، ويلحق به

جيش الحكمدار الى الفاشر فدخلها في الحادى عشر من نوفمبر من نفس العام ، ولا وجه للمقارنة بين الدور الذى قام به جيش الزبير والدور الذى قامت به حملة الشرق بقيادة الحكمدار لأن الفرق بين الاثنين شاسع . وبذلك انطوت من التاريخ صفحة سلطنة دارفور وصارت من ممتلكات الحكومة الخديوية في السودان .

ولا يتوقف دور الزبير التاريخى في تشكيل احداث دارفور . فيرى فيه الحكمدار اليد الطولى للبطولة بمن ثار من اقارب السلطان ضد الحكومة لينجح الزبير في هذا الاختبار ويسوق هؤلاء الثائرين اسرى . ويطمع الحكمدار في بسط سلطان الحكومة على اقاليم جديدة فيعهد للزبير بحمة غزو برقر وواهائى ، ولكن الخديو يأمره برفع يده فيفعل . والزبير في كل هذا هو دائما القائد المظهر المنتصر . القاتب النظر والمنفذ لأوامر الحكومة الخديوية التى لم يقوان لحظة عن التفانى في خدمتها .

يزين الخديو تهمة الحكمدار والزبير على هذا الانتصار مع الانعام عليه بالرتب والنياشين وترى الحكومة في وجود الزبير بعد أن أدى الدور المطلوب منه خطيرا عليها ، فيحدث التشنج والاختلاف بينه وبين الحكمدار حول مكانه في ادارة المديرية الجديدة واسلوب تنظيمها فيسافر الى القاهرة بعرض حقيقة الحالة على الخديو . فيرى الخديو افضلية بقاءه في مصر فيحزن لذلك الزبير . ولكنه يكتم ذلك ويحاول أن يتلادم مع طبيعة الحياة الجديدة في القاهرة بعد أن تنكرت الحكومة له .

ويبرز الزبير بشخصيته وشجاعته كقاتل عسكري يجيد وراعه النصر أينما ذهب عندما مهد له بقيادة الفرق المصرية المشتركة في الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧م ، فيستقبله السلطان العثمانى

ويهنئه على شجاعته • ويقضى فترة نقاهة في العاصمة التركية من
عناء الحرب ويعود إلى القاهرة مرفوع الرأس •

ويحيط به الواشون ويتلقى اتهاماً ببيث الفتنة ضد الخديو
لدى السلطان العثماني ، وتثبت الأحداث براءته من هذا الاتهام •
ولكن الأقدار أرادت له أن يتلقى نبأ مصرع ابنه على يد رومولوجيوس
بايعاز من جورديون والتنكيل بذويه وأهله ومصادرة أمواله ، بل
يطلب جورديون من الخديو محاكمة الزبير ومصادرة أمواله في مصر
عقاباً لما اقترفه ابنه ، ويجيب الخديو بأنه لا ينبغي أن يؤخذ الأب
بجناية الابن •

وفجأة تشب ثورة المهدي في السودان ، وتهب نارها في
كل مكان ، وتضع كل هيئة وسلطة للحكومة ، وتخصص نفوذها
تدريجياً عن مناطق كثيرة نتيجة تضغط جيوش المهدي وهزائم قواتها
المتكررة ، وتشعر الحكومة ب حاجتها ليد قوية تستعين بها لكبح
جماح المهدي واتباعه ففي البداية ترسل حملة تحشد لها إمكانيات
ضخمة ، وتعهد بقيادتها للجنرال هيكمس باشا فتلقى الهزيمة المذكرة
بكردفان ، ويحتاج الأمر لواقعة أخرى لوضع النقاط فوق الحروف ،
فتقرئ الحكومة في إنقاذ سنواكن وتأمين الطريق ما بينها وبين
والقضاء على عثمان دقنة ضرورة • فتُرسل حملة بقيادة سير
صمويل بيكر ، وتعهد للزبير بقيادة الطرق السودانية المشتركة في
الجنلة ، ولكنه عندما علم بأنه سوف يتلقى أوامره من بيكر رفض
الاشتراك فيها فكان مضيقها الهزيمة الكاملة •

ويستدعى الخديو صديقه جورديون لإنقاذ الموقف في السودان
وينفذ سياسة الاخلاء بعد أن أجبرت الحكومة الانجليزية الحكومة
المصرية على ذلك • ويأتى جورديون إلى القاهرة بعد أن تلقى

تعليماته من حكومته ، ويستقبله الخديو ويعتذر له عما بدر منه تجاهه ويزوده الخديو بالتعليمات والأوامر اللازمة بمهمته ، ويطلب جوردون اصطحاب الزبير باشا الى السودان لكي يضمن نجاح مهمته ويتعجب السير ايفلين بارنج لهذا الطلب فيوافق في بداية الأمر ويلتقى الرجلان مع عدد من ممثلي الحكومتين وتشتعل حدة المناقشة بين المجتمعين فالزبير لا ينسى أن جوردون هو الذي أمر بقتل ابنه سليمان ، ويخرج السير ايفلين بارنج بنتيجة مؤداها استحالة الجمع بين الرجلين في مكان واحد لأن في ذلك خطرا على حياة جوردون وفي نفس الوقت يصح جوردون على مطلبه بخصوص الزبير .

ويسافر جوردون مع مساعده ستيوارت الى السودان ، وهو في كل بلد يمر به يرسل البرقية تلو الأخرى لبارنج في القاهرة يعيد فيها اقتراحه بإرسال الزبير لأنه الشخص الوحيد الذي يمكن أن يواجه بشخصيته وقوة نفوذه سطوة المهدي وسيطرته وأسباب أخرى ، وتبادل كل من القاهرة والخرطوم ولندن البرقيات حول هذا الاقتراح وهي تحمل في ظاهرها طابع المناقشة لهذا الاقتراح وفي مضمونها الرفض ويسوء الموقف في الخرطوم والحكومة الانجليزية مصرة على رفض الاقتراح ، وفي نفس الوقت ترفض حلولا أخرى يعرضها جوردون أو ستيوارت أو الحكومة المصرية ، وينتهي الأمر باجتياح المهديين للخرطوم ومصرع جوردون وستيوارت . وقبل ذلك تفيق لندن من ثباتها وترسل حملة بقيادة واسلي لانكاز جوردون ولكنه يصل بعد فوات الأوان وتفقد مصر السودان بأكمله وسط اعتراضات جرانفيل وجلادستون وبارنج وسياسة حكومة لندن المتتوية .

وتخشى حكومة لندن قيام اتصالات من أي نوع بين الزبير والمهديين في السودان ، فيلقى عليه القبض وهو في الاسكندرية

ويحمل أسيرا إلى جبل طارق • ويظل حبيسا في منفاه إلى أن تبدأ الأوضاع في السودان • وتستعيد القوات الانجليزية والمصرية السودان • فيسمح للزبير بالعودة إلى القاهرة بعد أن أسر ظلما في هذه الفترة •

ويعود الزبير باشا لممارسة حياته العادية في القاهرة وتحرف له الحكومة المصرية ولأهله معاشا تعريضا له عما فقدوه وعن خدماته السابقة ويلتقى في منزله كبار رجال الدولة من الحكام والعلماء والشعراء وتعقد مجالس العلم • ويشهد جنين الزبير لرؤية بلاده • فيسمح له بالسفر إليها • فيطمئن على أهله ومصالحه هناك ويقفل عائدا إلى القاهرة ويحاول الفرنسيون الاتمسك بالزبير وهو في القاهرة لعقد اتفاق معه لإجبار رايح على التسليم أو وقف حربه ضد الفرنسيين نظير أموال يدفعونها له • ولكن الزبير رفض خيانة رفيق كفاح قديم وينتهي أمل الفرنسيين بالفشل •

ويعود الزبير إلى حياته العادية مرة أخرى • فيسافر إلى السودان مرة أخرى وكان بلغ من الكبر ميلا • وتودعه القاهرة كلها على محطة السكك الحديدية تكريما لشخصه الكريم وتعبرا عن تقدير الجماهير له • ولكنها كانت الرحلة الأخيرة التي لم يعد منها •

وفي صباح السادس من يناير سنة ١٩١٢م يطير إلى القاهرة نبا وفاة الزعيم السوداني الزبير باشا فيخرج لوداعه أعداؤه قبل أصدقائه ، وتودع الخرطوم بل العالم العربي الزبير باشا إلى مشواه الأخير في الخرطوم • بعد حياة حافلة امتدت إلى أكثر من اثنين وثمانين عاما • التقي فيها بالموت في ساحات القتال وميادينه أكثر من مائة وخمسين مرة ولكنه يموت في نهاية الأمر وهو على

غراشه . وهكذا انطوت صفحة جديدة لأول شخصية سودانية غرشت
نفسها على الأحداث وصنعت لمبالاها الكثير من الأمجاد التي لن
تسمى أبدا بل سيذكرها الشعب السوداني وشقيقه شعب مصر على
السودام .

وقد رثاه شاعر النيل حافظ إبراهيم كما نعاى الاهرام فى عدده
المصادر بتاريخ يوم الاثنين ٦ يناير سنة ١٩١٢ بكلمات رثاء عبرت
عن اعتزاز الشعب المصرى له .

وقد يتصور للبعض أن الحديث عن شخصية تاريخية مثل
الزبير باشا أو غيره بإمكانية الاكتفاء بالرجوع الى ما كتب عنها بين
صفحات المراجع التاريخية العربية والأجنبية ولكن أصول البحث
العلمى والتاريخى تذهب الى ما هو أبعد من ذلك فيما يتصل بهذه
الموضوعات وتفرض ضرورة الرجوع الى ما هو أهم من ذلك وهى
المصادر الأصلية المتصلة بموضوع البحث من وثائق وخلافه إن
وجدت . وطبقا لذلك كانت الوثائق التاريخية هى المصدر الأول فى
هذا البحث بهدف التحقق من صحة أو كذب ما ذكرته المصادر
التاريخية المختلفة من حقائق أو وقائع تتصل بموضوع البحث من
قريب أو بعيد . وكذلك اثبات العديد من الحقائق والوقائع التى
لم تثبتها هذه المصادر وصولا بالموضوع الى طريقه الصحيح الذى
لا يقبل الشك .

وبعد هذا الجهد المتواضع من الدراسة التاريخية الوثائقية
لتاريخ حياة الزبير باشا رحمة والدور الذى لعبه فى تاريخ
السودان . فإنه يمكن القول بأن هذا الرجل قد تعرض فى خصال
مراحل حياته وكفاحه للعديد من الاتهامات التى الصقت به من قبل
الكثير من خصومه من السياسيين والعسكريين ظلما ، ولم يحاول

المؤرخون رغم وضوح الرؤية تفنيد هذه المزاعم أو هذه الاتهامات. سوى القليل منهم . لذلك جاءت هذه الدراسة لتفنيد هذه المزاعم والاتهامات ووضع الأمور في نصابها وبيان حقيقة ذلك من عدمه انصافا للحق وأهله وسوف نعرض في ايجاز لنتائج هذه الدراسة :

أولا : نفى ما اتهم به الزبير من جانب الكثير من تهمة الاتجار في الرقيق . والدليل أن الزبير بدأ حياته تاجرا عاديا في السلسع المشروعة ، وعندما توجه إلى الجنوب كان دافعه إلى ذلك هو خوفه على ابن عمه ، وعندما اضطرت ظروفه إلى أن يلتحق بالعمل لدى أبي عموري التاجر لم يكن هناك مفر من أن يرسم لحياته خطبا جديدا يتلاءم مع الظروف التي أحاطت به ، فعمل في تجارة العاج وريش النعام وغير ذلك من موارد الجنوب . ولكن عندما بدأ يستقل بنفسه شعر وقتها بأنه يجب أن يضمن لنفسه وتجارته الحماية الكافية من مخاطر تلك المناطق لأن من ينظر إلى الجنوب بقبائله وأحراشه وغاباته وحيواناته يشفق على نفسه من أن يجتازه منفردا خشية الوقوع ضحية الاخطاسار التي تكن في كل خطوة ، لذلك اصطحب التجار الذين ارتادوا هذه المناطق العديدة من الاتباع السود الذين استأجروهم أو اشتروهم بغرض الحماية لأنفسهم وتجارته من هذه المخاطر ، وكذلك ليكونوا عونا في نقل ما يحملونه من بضائع وليتخذوا منهم مرشدين وأدلاء في رحلاتهم عبر هذه المناطق . ولم يكن قصد معظم التجار استرقاقهم . وهذا الذي فعله الزبير كغيره من التجار عندما قصد الجنوب بصحبة العديد من هؤلاء الاتباع ، كانوا له خير عون وكان لهم نعم الأخ والصديق . لأن الجنوب بحاصلاته وموارده مثل العاج وريش النعام وغيره كان متسعا لأن يتجر فيه من تواغرت لديه الشجاعة والجرأة على المغامرة دون هبة المخاطر دون أن يعير انتباهها لسلعة أخرى كالرقيق مثلا وأن وجد

فى هذه المناطق الكثير من التجار الذين تخصصوا فى تجارة الرقيق
بالبيع والشراء .

كان الزبير يمتلك الكثير من الرقيق ، ولكن لم يتخذهم يوما من
الأيام مادة لتجارته بل سلّحهم بمختلف الأسلحة وكون منهم جيشا
خاصا استطاع بفضلله أن ينتصر به فى حروبه مع ملوك الجنوب ،
وأن يؤسس مملكة لنفسه ، وأن يهزم بهم عرب الرزيقات ، وينتصر
على محمد البلالى . كذلك استطاع بهم فى نهاية الأمر فتح دارفور .
ولولا اخلاص الزبير وحسن معاملته لهم واعتزازه بهم ، ما تفانوا
فى خدمته والانتصار له طوال هذه المعارك . وهذا ما يثبت براءة
الزبير من هذه التهمة التى اتخذتها لندن بمثابة حجة لعدم موافقتها
فيمما بعد على اقتراح جوردون باستخدام الزبير فى السودان لمواجهة
نفوذ المهدي .

ثانيا : كان من بين النتائج التى انتهت اليها فى هذا البحث
عدم وجود أى دليل يثبت على الزبير خيائته أو عصيانه للحكومة
المصرية وتزعمه لتجار الرقيق ضدها . وما يثبت ذلك أنه عندما
وصلت حملة محمد البلالى الى بحر الغزال لم يجد أمامه سوى
الزبير الذى أحسن وفادته ، ومهد له الطريق لتنفيذ المهام التى كلف
بها ، كما أمدّه بكل ما يحتاج اليه من المؤن والأموال ولكن بالمرحوم
من كل ذلك حاول البلالى الخروج عن الأهداف المحددة لمهمته باللجوء
الى وسائل الخداع والمكر وأخيرا مهاجمة ممتلكات الزبير وعاصمته
فكان لابد من مواجهة بين الاثنين انتهت بمصرع البلالى الذى
كان سببا فى الصاق تهمة العصيان والتمرد بالزبير ولكن وفاة الزبير
واخلاصه دفعه للاعتذار عن مصرع البلالى ، وتقديم قروض الطاعة
والولاء لها . وتأكيذا لاخلاصه هذا قدم ما غنمه بهديرية بحسر
الغزال وشككا هدية للحكومة لتبعث بمن يتولى أمرها ويتفرغ هو

لتجارته واعترافا من جانب الحكومة بهذا الاخلاص تم تعيينه مديرا لهذه المديرية مع الانعام عليه بالرتب والنياشين .

وكمثل آخر لاخلاصه لحكومته قام باسم الحكومة بفتح سلطنة دارفور بجيشه الخاص وأمواله دون أن يطلب مقابلًا لذلك سوى الذخيرة والسلاح وتحمل في هذا السبيل عبء التصدي لجيوش السلطان ابراهيم الكثيفة المتوالية والانتصار عليها المرة قلو الأخرى وأخيرا التصدي لجيش السلطان ومصرعه في معركة منواشى .

ويختبر الحكماء اخلاصه فعهد له بمهمة القضاء على تمردات وثورات اقارب السلطان فينجح في ذلك وتم تطويق هذه التمردات . ويختلف الحكماء معه في نظام ادارة المديرية الجديدة ، وتراها الحكومة فرصة للتخلص من نفوذه ويحضر للتفاهم مع الخديو في هذا الخصوص فيطلب منه افضلية بقائه في القاهرة . فيكتم احزانه وينفذ اوامر الخديو .

ويقدم اخلاصه لحكومته في صورة أخرى عندما قاد احدى الفرق المصرية المشتركة مع القوات العثمانية في حربها ضد روسيا والانتصار بهذه الفرقة على القوات الروسية مما جعل السلطان يثنى على شجاعته ويهنئه على ذلك .

وبرغم مصرع ابنه سليمان على يد جيسى بايعاز من جوردون فإنه لم يقدم على أى عمل من شأنه تلويث صفحته البيضاء مع الحكومة . وبرغم مصادرة أمواله والتنكيل بأهله وذويه في السودان فإن كل ذلك لم يزعزع اخلاصه وولاءه للحكومة .

وعندما طلب جوردون مرافقته معه الى السودان لمساعدته في تنفيذ عملية الاخلاء لم يتوان عن اجابته لطلبه ولولا معارضة

حكومة لندن لذلك لقام الزبير بانجاز الكثير وحقق ما لم يكن في قدرة غيره تحقيقه .

وعندما طلب من الزبير تحرير خطسبب توصية للقبائل المحاصرة للمخروطوم مع رسل الحكومة لجورون للسماح له بالخروج من المخروطوم اذا اراد ذلك فقام بتلبية طلب الحكومة ولكن جورون رفض التخلي عن رجاله في محنتهم .

وقد كانت مكافأته التي تلقاها في مقابل اخلاصه هذا هو نفيه لمنطقة جبل طارق بمعرفة أعدائه من الانجليز . وهكذا احيطت حياة الزبير وشخصيته بالكثير من الاتهامات التي لم يكن لها أساس من الصحة والتي اثبت هذا البحث عدم واقعيته .

ثالثا : وكنتيجة لهذا البحث فان الزبير قد اثبت بتاريخه الحافل بالاجداث انه صاحب عبقرية عسكرية رغم أنه لم يتلق من العلم سوى مبادئه الاولى ، ولم يلتحق بأي اكااديمية عسكرية بل كانت هذه العبقرية وراء انتصاراته المتوالية في بحر الغزال وشكا ودارفور وفي اسيا الصغرى . كما أنه اثبت انه الشخصية السودانية الوحيدة التي ظهرت عبر تاريخ السودان واثرت في أحداثه . وقد كان في الامكان ان يمثل رأسا مناهضا لزمامة المهدي لو أن حكومة لندن قد وافقت على اقتراح استخدامه في السودان ولو فعلت ذلك لتغير مجرى الأحداث ولكنها مشيئة الله . وقد كانت لبساطة الزبير وطبيعته السمحة وايمانه العميق من الصفات التي جعلت منه هذه الشخصية التاريخية القذة .

وقد حاولت في هذا البحث الانماف بجميع جوانب الموضوع قدر الامكان حتى يخرج في صورته التي يجب أن يكون عليها فقد زود البحث بصور النصوص الاصلية للوثائق غير المنشورة مع

ترجمة لهذه النصوص وكذلك زود بعدد من الصور الخاصة بالزبير باشا والشخصيات التي لعبت دورها على مسرح الأحداث أثناء حياته سواء في السودان أو مصر هذا غير ملحق قوائم المراجع والوثائق وتقييم المراجع العربية والاجنبية .

وأخيرا أضيف ان النتائج التي توضححت ليست هي كل ما أردت الوصول اليه إنما هي أمثلة فقط لأهم النتائج . كما أود ان أقول ان شخصية كشخصية الزبير باشا رحمة تستحق هذا الجهد الذي بذل من أجلها وما زال باب البحث العلمي والتاريخي مفتوحا لأي باحث لاضساقه أي جديد من المعلومات أو الحقائق عن الزبير باشا .

وفقنا الله الى ما فيه خير العلم والنفع له .

تأريخ بالثواربف المبلابفة والفبرففة للابابف والفابابف الملمبفة

م	المبفلابف	الفبفسرف	الابفسابف
١	١٢٥٣ م	(ففبففة فلابفة المافافاف بفافف ١٢٥٦ م)	مفابففة فابافبف فاباف فبابف المافول
٢	(١٢٠٨/١٢٤٢ م)	(١٢٥٨ م مفابففة مولاكو لفبافابف)	ابفال المافول لفاباف الففشابافبف
٣	٢ سبافبفر ١٢٦٠م		موففة مفف فابوف
٤	١٢٥٧ م		فولف ففبففة الفف الفافف فف مافر
٥	١٨٢١ م		فابف ماف فلف للفسوباف
٦	٨ فوفو ١٨٢١ م	١٧ مافر ١٢٤٦ م	مولف الزبفر بفاففا رفبفة
٧	١٤ سبافبفر ١٩٥٦ م	١٤ مافر ١٢٧٢ م	رفبفة الزبفر لfabفب الفسوباف
٨	١٨٥٦ م	١٢٧٣ م	وفول الزبفر فف مفرفع الفرف ؟
٩	١٨٥٧ م	١٢٧٤ م	فورة الافافف افولف ابو صوفف
١٠	١٥ اكوففر ١٨٥٨ م	٧ ربفع اول ١٢٧٠ م	وفول الزبفر فف رفبفه افولف فف الفرفوف

المسند	الهجري	الميلادي	م
رحلة الزبير الى بلاد ثولو	١٢٧٥ هـ	١٨٥٨ م	١١
عودة الزبير من بلاد ثولو الى الخرطوم	١٧ ربيع اول ١٢٧٦ هـ	١٨٥٦ م	١٢
الزبير في بلاد النيام نيام	١٢٧٦ هـ	١٨٥٩ م	١٣
الزبير في بلاد الملك كريم	١٢٧٨ هـ	١٨٦٢ م	١٤
رحيل الزبير على بلاد النيام نيام	١٧ رمضان ١٢٨٧ هـ	١٨٦٢ م	١٥
وصول الزبير الى مشرع الرق	٢ صفر ١٢٨٠ هـ	١٩ يوليو ١٨٦٣ م	١٦
وصوله الى الخرطوم من بلاد الملك كريم	٢٧ ربيع الاول ١٢٨٠ هـ	١١ سبتمبر ١٨٦٣ م	١٧
وصول الزبير وحسينه الى قرية ثول ببلاد النيام نيام	٢ صفر ١٢٨٠ هـ	٢٥ يوليو ١٨٦٤ م	١٨
وصول الزبير الى النيام نيام نفسها	٢٠ صفر ١٢٨٢ هـ	٢٥ يوليو ١٨٦٤ م	١٩
وصول الزبير الى بلاد الملك دويه (ثولو)	١ محرم ١٢٨٢ هـ	٢٧ مايو ١٨٦٥ م	٢٠
التصال الزبير على محمد علي	١ ربيع الاول ١٢٨٨ هـ	١٨٧١ م	٢١

محاربة ماريوه عم تكبه للزبير	١٢٨٩ م	١٨٧٢ م	٢١
مدة حكم مجلس الاول		١٨٥٢ : ١٨٤٩ م	٢٢
فترة حكم سعيد باشا		١٨٦٢ : ١٨٥٤ م	٢٤
فترة حكم اسماعيل باشا		١٨٦٩ : ١٨٦٢ م	٢٥
تولى موسى حدى باشا حكمادية السودان		١٨٦٥ : ١٨٦٢ م	٢٦
فرمان الورثة الصليبية للخديوى اسماعيل		١٨٦٦ م	٢٧
استقرة تولى احمد باشا المنكلى للحكمدارية نى السودان		١٨٤٥ : ١٨٤٢ م	٢٨
استقرة تولى جعفر مظهر باشا للحكمدارية بالسودان		١٨٧١ : ١٨٦٦ م	٢٩
قرار الحكومة المصرية باحتكار تجارة اقنايم النيل العليا		١٨٧٢ م	٣٠
فترة تولى اسماعيل باشا لليب للحكمدارية نى السودان		١٨٧٢ — ١٨٧٧ م	٣١

الحدث	الهجرى	الميلادى	م
مستحور فرمان بتعيين جوردون حكاما للسودان	٤ صفر ١٢٩٤ هـ	٢٠ فبراير ١٨٧٧ م	٢٢
توقيع معاهدة الفناء تجارة الرقيق		اغسطس ١٨٧٧ م	٢٣
تحرك الملاحى بحملته لاحتلال بحر النزال ومقطه على يد الزبير . .		١٨٦٩ م	٢٤
بداية اتصال الزبير بمشايخ عرب الرزيقات	شوال ١٢٨٢ هـ	مارس ١٨٦٩ م	٢٥
هزيمة عرب الرزيقات ودخول الزبير سكا	غرة رجب ١٢٩٠ هـ	٢٥ أغسطس ١٨٧٢ م	٢٦
تعيين الزبير حاكما على بحر النزال	١٢٩٠ هـ	٢٧ ١٨٧٢ م	٢٧
تولى السلطان حسين ابن الفضل الحكم بدارفور		١٨٧٤ - ١٨٢٩ م	٢٨
تشويه الحرب بين الزبير والسلطان	١٢٨٩ هـ	١٨٧٢ م	٢٩
تكمه . .			
إعادة فتح الطريق الى سكا . .	١٢٩٠ هـ	١٨٧٢ م	٤٠

المحدث	الهجري	الميلادي	م
تصدي القوات المصرية لعمالة من الرقيق .. قتلحة من دارفور بسبب الغزو ..	١٢٩٠ هـ	١٨٧٢ م	٤١
المعركة بين الزبير والمسلمان أبونا	٤ جمادى الأولى ١٢٩١	١٨٧٤ م	٤٢
الفرمان الصادر من الباب العالي باعتبار سلطنة دارفور ضمن الاتفاقيات السودانية .		١٨٤١ م	٤٣
دخول الأمير حسب الله دارا (قلمة)		٢٥ أغسطس ١٨٧٤ م	٤٤
وصول السلطان إبراهيم إلى دارا		١٦ أكتوبر ١٨٧٤ م	٤٥
وصول الحكمدار علي رأس الحصة إلى محل يقال له دارفور المصار ..	٢٤ رجب ١٢٩١ هـ	٦ سبتمبر ١٨٧٤ م	٤٦
احتلال اسماعيل بكسا أيوب لبلدة أم شنتة .		١ أكتوبر ١٨٧٤ م	٤٧
معركة بنواشي - مقتل السلطان إبراهيم ..	١٤ رمضان ١٢٩١ هـ	٢٥ أكتوبر ١٨٧٤ م	٤٨

الحدث	الهجري	الميلادي	م
دخول الزبير العاصمة العباسية الفاتح ..	٢٢ رمضان ١٢٩١ هـ	٢ نوفمبر ١٨٧٤ م	٤٩
دخول الحكمدار الفاتح ..	أول شوال ١٢٩١ هـ	١١ نوفمبر ١٨٧٤ م	٥٠
أبرق الزبير بخديوي برقيته لمي الحضور إلى القاهرة للتشاور	غرة رجب ١٢٩٢ هـ	١ أغسطس ١٨٧٥ م	٥١
مواظقة الخديوي على حضور الزبير ..	١٩ رجب ١٢٩٢ هـ	١٩ أغسطس ١٨٧٥ م	٥٢
وصول الزبير إلى القاهرة ..	١٢٩٤ هـ	١٠ يونيو ١٨٧٥ م	٥٣
الحسبة الأوروبية - التركية واشتراك الزبير فيها ..	١٢٩٦ هـ	١٨٧٧ م	٥٤
ثورة سليمان الزبير ومقتله على يد رومو أوجيسى الإيطالي ..	١٢٠١ هـ	١٨٧٩ م	٥٥
مزار الحكومة المصرية بارسال حملة بقيادة سسار توريس إلى سواكن واشراك الزبير فيها		١٨٨٢ م	٥٦
تنازل الباب العالي عن سواكن لمصر ..		١٨٦٦ م	٥٧

الأحداث	التاريخ	الصفحة
تعيين جوردون حاكمها عليها على السودان . .	١٧ فبراير ١٨٧٧ م	٥٨
استدعاء جوردون من السودان	٥٩ يونيو ١٨٧٩ م	
تولى رؤوف باشا الحكمدارية خلة لجوردون .	٦٠ ١٨٧٩ — ١٨٨٢ م	
استقالة وزارة شريف باشا	٦١ ٧ يناير ١٨٨٢ م	
تأليف وزارة توبار باشا	٦٢ ١٠ يناير ١٨٨٤ م	
لغساء الزبير وجوردون في منزله السير أيفلين بلانچ . .	٦٣ ٢٥ يناير ١٨٨٤ م	
سفر جوردون مع سقويات الى الخرطوم .	٦٤ ٢٦ يناير ١٨٨٤ م	
مقتل سقويات وهو في طريقه الى مصر	٦٥ ١٠ سبتمبر ١٨٨٤ م	
سقوط الخرطوم في أيدي المهديين .	٦٦ ٢٦ يناير ١٨٨٥ م	
وصول حملة الجنرال ولسلي الى دنقلة	٦٧ ٢ نوفمبر ١٨٨٤ م	

تفتيش قصر الزبير بالقطلى ..					
نفي الزبير الى جبل طارق ..					
بنى الزبير لنفسه قصرا في حوران					
الاستباح للزبير بالمستنفر الى					
السودان					
استاد كروم للزبير ممتلكاته في					
السودان					
زعارة الشيخ محمد عبده للسودان					
تاريخ وصول الزبير لمصر لأول مرة					
تاريخ رحلته الاخير للسودان					
عوقبه من مفاه بجبل طارق					
توفي الزبير بالقسا ..					
فترة الحرب بين الزبير وعسريه					
الزيقات					
منح الزبير لقب بك وتولى امسوس					
مديرية بحر النزال					
تاريخ المعركة الثانية مع الامير					
حسب الله					
تاريخ المعركة الثالثة مع الامير					
حسب الله					

11 محرم 1291 هـ

٧٩ ٢٧ فبراير ١٨٧٤ م

٨٠ ٢١ أغسطس ١٨٧٤ م

٨١ ٨ سبتمبر ١٨٧٤ م

٦٨ ٢١ يناير ١٨٨٥ م
٦٩ يوليو ١٨٨٥ م
٧٠ ١٩.٥ م
٧١ ١٩.٣ م

٧٢ ١٩.٠ م

٧٣ يناير ١٩.٥ م
٧٤ ١٠ يونيو ١٨٧٥ م
٧٥ ١٠ أغسطس ١٩١٢ م
٧٦ أغسطس ١٨٨٧ م
٧٧ ٦ يناير ١٩١٣ م
٧٨ ١٠ يوليو ١٩١٣ م
١٨٧٣ م

٧٨ ٢٨ أغسطس

الفهرس

الصفحة

٥	تقديم
٧	المقدمة
١٧	هوامش المقدمة

الفصل الأول :

٢١	(بداية ظهور الزبير رحمة في السودان)
٢٣	تمهيد
٢٨	الانطباعات التي تركتها هذه الرحلة في حياة الزبير
٢٨	الزبير يستقل بنفسه
٣٠	الزبير في بلاد قولو (١٢٧٥ هـ — ١٨٥٨ م)
٣١	الزبير في بلاد النيام نيام (١٢٧٦ هـ — ١٨٥٩ م)
٣٥	الزبير والملك كريم (١٢٧٨ هـ — ١٨٦٢ م)
٣٩	الزبير في بلاد النيام نيام ثانية (١٢٨٠ هـ — ١٨٦٣ م)
٤١	الزبير في بلاد الملك دويه (١٢٨١ هـ — ١٨٦٤ م)
٤٢	الزبير وعذوه شكو وابنه شيجا (١٢٨٢ هـ — ١٨٦٥ م)
٤٥	تجدد النزاع بين الزبير والسلطان تكمة
٥١	هوامش الفصل الأول

الفصل الثاني :

٥٥	(الدور الذى لعبه الزبير فى بحر الغزال وشكا
٥٧	موقف الحكومة المصرية من تجارة الرقيق فى السودان
٦٥	التفكير فى ضم بحر الغزال
٦٧	حملة البلالى
٧١	اهداف حملة البلالى
٧٢	بداية الصراع بين الزبير والبلالى
	المعركة الفاصلة ونهاية الصراع بين الزبير والبلالى
٧٨	(١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩ م)
٨٢	التحقيق فى مقتل البلالى
٨٦	قيام الزبير بتنظيم امور مديرية بحر الغزال
٨٧	دور الزبير فى فتح شكا وتأسيس عرب الرزيقات
٩١	اندلاع الحرب بين الزبير وعرب الرزيقات
٩٥	الزبير وعبد الله التمايشى
٩٦	الزبير والشيخان مقل وعليان
	تعيين الزبير حاكما على بحر الغزال وشكا
١٠٠	(١٢٩٠ هـ - ١٨٧٣ م)
١٠٢	هوامش الفصل الثانى

الفصل الثالث :

١١١	(الدور الذى لعبه الزبير فى فتح دارفور)
١١٣	اولا : الاسباب التى أدت لغزو سلطنة دارفور
١١٧	استطلاع احوال سلطنة دارفور الداخلية

الصفحة

١١٨	أبراهيم
١١٨	١ - الدوافع السياسية والعسكرية
١٢٢	٢ - الأسباب الاقتصادية
١٢٣	قيام الحرب بين الزبير والسلطان ومشاركة الحكومة فيها
١٢٧	الاتصالات بين القاهرة والخرطوم
١٣٥	سكوى سلطان دارفور للخديو من حركات الزبير والحكماء
١٣٩	موقعة الشرتاي أحمد نمر
١٤٠	موقعة الأمير حسب الله
١٤١	المعركة الأولى
١٤٢	المعركة الثانية
١٤٢	المعركة الثالثة
١٤٥	عوامل انتصار جيش الزبير وهزيمة جيش الأمير حسب الله
١٤٨	قيام السلطان إبراهيم بنفسه إلى داره
١٥٠	دور حملة الشرق بقيادة الحكماء
١٥٢	الاستيلاء على أم شنقة
١٥٤	اتهام اسماعيل بإثارة أيوب بتعمد الإبطاء في التقدم نحو الفاشر
١٥٦	موقعة متواشي (١٤ رمضان ١٢٩١ هـ - ٢٥ أكتوبر ١٨٧٤ م)

الصفحة

١٥٩	دخول العاصمة الفاشر
	الموازنة بين دور جيش الزبير ودور حملة الشرق في
١٦٠	فتح دارفور
١٦٠	أولا : دور جيش الزبير
١٦٠	ثانيا : حملة الشرق بقيادة الحكمدار
١٦١	غنائم الحرب
١٦٢	تمرد الأمير حسب الله
١٦٥	ثورة الأمير بوشيسن
١٦٦	الزبير يتوغل بجيشه لجهة الغرب (برقو سواداي)
١٦٨	ترقية أزلبير والحكمدار
١٦٩	مكان الزبير في الإدارة الجديدة
١٨١	هوامش الفصل الثالث

الفصل الرابع :

١٩٣	(الزبير وجوردون)
	الدور الذي لعبه الزبير في الحرب الروسية التركية
١٩٥	(١٨٧٧ م - ١٢٩٤ هـ)
	ثورة سليمان الزبير ومقتسله على يد جسي
١٩٧	(١٨٧٩ م - ١٢٩٦ هـ)
٢٠٠	الاحداث التي اعقبت مقتل سليمان بن الزبير
٢٠٢	رفض الزبير باشا الاشتراك في حملة سواكن
٢٠٥	الزبير وجوردون وحوادث الاخلاء
٢١٢	اجتماع الزبير وجوردون في القاهرة
٢١٦	اقتراح جوردون باعادة استخدام الزبير في السودان

الصفحة

٢٣٢	الفشل في شأن استخدام الزبير
	تطور الأحداث والنقائج التي تترتبت نتيجة عدم استخدام
٢٤٠	الزبير
٢٤٤	حملة الجنرال ولسلى
٢٥٠	ما بين مؤيدى ومعارضى استخدام الزبير في السودان
٢٥٦	نفى الزبير باشا الى جبل طارق
٢٦٣	هوامش الفصل الرابع

الفصل الخامس :

٢٧١	(الزبير رحمة في نهاية حياته)
٢٧٤	تمويض الحكومة المصرية للزبير ماندا
٢٧٦	حياته في القاهرة واتصاله برجال الحكم وكبار العلماء
٢٨٠	اتصال الفرنسيين بالزبير في مصر
٢٨٢	السياح المزير بالسفر الى السودان
٢٨٦	الشعر في حياة الزبير
٢٨٦	أولاً : ما انشأه الزبير من شعر في حياته
٢٨٩	ثانياً : ما قاله الشعراء في مدح الزبير والاشادة به
٢٩٤	رحلة الزبير الأخيرة للسودان
٢٩٦	وفاة الزبير باشا وهو في السودان
٢٩٩	هوامش الفصل الخامس
٣٠١	الخاتمة ونتائج البحث

صدر في هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل في محكمة التاريخ ،
د . عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٢ - علي ماهر :
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة :
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧
- ٤ - التيارات الفكرية في مصر المعاصرة ،
د . محمد نعيان جلال ، ١٩٨٧
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطئ المصرية في العصور الوسطى ،
علية عبد السميع الجنزوري ، ١٩٨٧
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ ،
لمى المطيعي ، ١٩٨٧
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي ،
د . عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧
- ٨ - رؤية الجبرتي لازمة الحياة الفكرية ،
د . علي بركات ، ١٩٨٧
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ،
د . محمد أنيس ، ١٩٨٧
- ١٠ - توفيق دياب ملحة الصحافة الحزبية :
محمود فوزي ، ١٩٨٧
- ١١ - عائلة شخصية مصرية وشخصية ،
شكري القاضي ، ١٩٨٧
- ١٢ - هدى شعراوي وعصر التنوير ،
د . نبيل راغب ، ١٩٨٨

- ١٣ - أكلوبة الاستثمار المصري للسودان : رؤية تاريخية ،
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ١٤ - مصر في عصر الولاة ، من الفتح العربي الى قيام الدولة
الطولونية ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامي ،
د. علي حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى في مصر : دراسة
عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ - ١٩٥٢) ،
د. حلمى احمد شلبى ، ١٩٨٨
- ١٧ - القضاء الشرعى في مصر في العصر العثمانى ،
د. محمد نور فرحات ، ١٩٨٨
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية ،
د. على السيد محمود ، ١٩٨٨
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ،
د. أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨
- ٢٠ - دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين
سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى :
د. محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨
- ٢١ - التصوف في مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٢ - نظرات في تاريخ مصر ،
جمال بدوى ، ١٩٨٨
- ٢٣ - التصوف في مصر ابان العصر العثمانى ، ج ٢ - امام
التصوف في مصر : الشعراوى ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨

- ٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) ،
د . نجوى كامل ، ١٩٨٩
- ٢٥ - المجتمع الاسلامى والغرب ،
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د . أحمد
عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د . سعد اسماعيل على ، ١٩٨٩
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ، ج ١ ،
تأليف : الفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ، ج ٢ ،
تأليف : الفريد ج . بتلر : ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٩ - مصر فى عصر الاخشيديين ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩
- ٣٠ - المؤلفون فى مصر فى عصر محمد على ،
د . حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٠
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شكرى القاضى ، ١٩٨٩
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
لمى المطيعى ، ١٩٨٩
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الأفريقى : نظرة على الأوضاع
الراحة ورؤية مستقبلية ،
د . خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية الغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة
حتى عام ١٩١٢ ،
د . يوتان رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠
- ٣٦ - المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم
مصطفى ، ١٩٩٠
- ٣٧ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
في ربع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادية والاجتماعى في العصر
العثمانى ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٧) ،
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د. عبد المنعم الدسوقي الجيمى ، ١٩٩٠
- ٤١ - محمد فريد : المؤلف والأساسة ، رؤية عصرية ،
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١
- ٤٢ - تكوين مصر عبو العصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠
- ٤٣ - رحلة في عقول مصرية ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثمانى ،
د. محمد عفيفى ، ١٩٩١
- ٤٥ - الحروب الصليبية ، ج ١ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم : د. حسن
حبشى ، ١٩٩١

- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ - ١٩٥٧) ،
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصري الحديث ،
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١
- ٤٨ - الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الاسلامي ،
د. زبيدة عطيا ، ١٩٩١
- ٤٩ - العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ - ١٩٧٩) ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ،
د. مسهر اسكندر ، ١٩٩٣
- ٥١ - تاريخ المدارس في مصر الاسلامية ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، في ابريل ١٩٩١) أعدها للنشر :
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٢ - مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، في القرن
الثامن عشر ،
د. الهام محمد علي ذهني ، ١٩٩٢
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،
د. محمد كمال الدين عز الدين علي ، ١٩٩٢
- ٥٤ - الأقباط في مصر في العصر العثماني ،
د. محمد عفيفي ، ١٩٩٢
- ٥٥ - الحروب الصليبية ج ٢ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د. حسن
حبشي ، ١٩٩٢
- ٥٦ - المجتمع الريفي في عصر محمد علي : دراسة عن القليم
القولبيسة ،
د. حلمي أحمد شلبي في ١٩٩٢

- ٥٧ - مصر الإسلامية واهل القلعة ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢
- ٥٨ - احمد حلمي سجين الحرية والصحافة ،
د . ابراهيم عبد الله المسلمي ، ١٩٩٣
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية في مصر ، من التمهيد الى التاميم
(١٩٥٧ - ١٩٦١) ،
د . عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٣
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث ،
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٣ ،
لمى المطيعي ، ١٩٩٣
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبد العصور : تاريخ مصر الإسلامية ،
تأليف : د . سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ،
وسعيد عبد الفتاح عاشور ، اعداها للنشر : د . عبد العظيم
رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٤ - مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء : دراسة
وثائقية ،
د . محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩١٧) ،
د . سهام نصار ، ١٩٩٣
- ٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي ،
د . نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

- ٦٧ - مساعي السلام العربية الإسرائيلية : الأصول التاريخية ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات
جامعة عين شمس ، في إبريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر :
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٨ - الحروب الصليبية ، ج ٣ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د. حسن
حبشي ، ١٩٩٣
- ٦٩ - نبوية موسى ودورها في الحياة المصرية (١٨٨٦ - ١٩٥١) ،
د. محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤
- ٧٠ - أهل النعمة في الاسلام ،
تأليف : أ.س. ترتون ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشي ،
ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور أيفانز ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد
عمرو ، ١٩٩٤
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المأهولة والاقتصادية لمصر
في العصر الفاطمي (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ،
أمانة أحمد امام ، ١٩٩٤
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة ،
د. رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، في العصر الفرعوني ،
د. سمير يحيى الجبال ، ١٩٩٤
- ٧٥ - أهل النعمة في مصر ، في العصر الفاطمي الأول ،
د. سلام شاغبي محمود ، ١٩٩٥

- ٧٦ - دور التعليم المصري في الانفصال الوطني (زمن الاحتلال
البريطاني) ،
د. سعيد اسماعيل علي ، ١٩٩٥
- ٧٧ - الحروب الصليبية ، ج ٤ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د. حسن
حبشي ، ١٩٩٤
- ٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ - ١٨٩٩) ،
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥
- ٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية في مصر ، في القرن التاسع عشر ،
تأليف : فريد دي يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٥
- ٨٠ - قصة السويس والتنافس الاستعماري الأوروبي
(١٨٨٢ - ١٩٠٤) ،
د. السيد حسين جلال ، ١٩٩٥
- ٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى
نصر أكتوبر ،
د. رمزي ميخائيل ، ١٩٩٥
- ٨٢ - مصر في فجر الاسلام ، من الفتح العربي الى قيام الدولة
العثمانية ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٣ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ١ ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٤ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥
- ٨٥ - تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢) ،
د. حلمي أحمد شلبي ، ١٩٩٥

- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية في مصر الحرة الاقتصادية
(١٨٤٠ - ١٩١٤) ،
د. أحمد الشربيني ، ١٩٩٥
- ٨٧ - مذكرات اللورد كليرن ، ج ١ ، (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د. عبد الرؤوف
أحمد عمرو ، ١٩٩٥
- ٨٨ - التلوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥
- ٨٩ - تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني ،
د. عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥
- ٩٠ - معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية ،
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦
- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : ييترو مانسفيلد : ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٦
- ٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦)
ج ٢ ،
نجوى كامل ، ١٩٩٦
- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصري (١٩٢٤ - ١٩٥٨) ،
د. نبيه بيومي عبد الله ، ١٩٩٦
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤)
ج ٢ ،
د. سمير اسكندر ، ١٩٩٦

- ٩٥ - مصر وأفريقيا .. الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات
الأفريقية بجامعة القاهرة)
أعدّها للنشر د . عبد العظيم رمضان
- ٩٦ - عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) ،
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة د . عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من
القرن التاسع عشر ،
د . إيمان محمد عبد المنعم عامر
- ٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د . محمد سيد محمد
- ٩٩ - تاريخ الطب والمسيحة المصرية (العصر اليوناني -
الروماني) ج ٢ ،
د . سير يحيى الجمال
- ١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،
د . د . عبد العزيز صالحي ، د . جمال مختار ،
د . محمد إبراهيم يسكر ، د . إبراهيم نصحي ،
د . فاروق القاضي ، أعددّها للنشر : د . عبد العظيم
رمضان
- ١٠١ - ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،
اللسواء / مصطفى عبد المجيد نصسير ، اللسواء /
عبد الحميد كفاقي ، اللواء / سعد عبد الحفيظ ، السفير /
جمال منصور
- ١٠٢ - القطن جريدة الاحتلال البريطاني في مصر ١٨٨٩ - ١٩٥٢
د . تيسير أبو عرجة

- ١٠٣ - رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره
د . علي بركات
- ١٠٤ - تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤ - ١٩٥٢)
د . فاطمة علم الدين عبد الواحد
- ١٠٥ - السلطة السياسية في مصر وقضية الديمقراطية ١٨٠٥ - ١٩٨٧
د . أحمد فارس عبد المنعم
- ١٠٦ - الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية في ربيع قرن ، ج ٢
د . سليمان صالح
- ١٠٧ - الأصولية الإسلامية في العصر الحديث
تأليف خليل هירו ، ترجمة : عبد الحميد نهى الجمال
- ١٠٨ - مصر للمصريين ج ٤
سليم خليل النقاش
- ١٠٩ - مصر للمصريين ج ٥
سليم خليل النقاش
- ١١٠ - مصاندة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) ج ١
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١١ - مصاندة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) ج ٢
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١٢ - اسماعيل باشا صدقي
د . محمد محمد الجوادى
- ١١٣ - الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري)
د . اسماعيل عز الدين

رقم الايداع ١٩٩٧/٧٨٨٥

الترقيم الدولي 4 — 5299 — 01 — 977 I.S.B.N.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فروع الصحافة

هذا الكتاب يتناول دور الزبير باشا في السودان في عصر الحكم المصري، وهو ينقسم إلى خمسة فصول قدم لها المؤلف بمقدمة تحدث فيها عن الزبير باشا والأصول الأولى لأسرته حتى مولده في عام ١٨٣١ عندما كان السودان خاضعا للحكم المصري.

وفي الفصل الأول، وهو بعنوان «بداية ظهور الزبير رحمه في السودان» تحدث عن عمله بالتجارة، وذهابه إلى بلاد النيام نيام (النمام)، ومقابلاته للملك كريم، وتزاعاته مع ملوك البلاد التي زارها. أما الفصل الثاني، فقد تحدث فيه عن الدور الذي لعبه الزبير باشا في بحر الغزال وبلاد شكا، وتعرض لموقف حكومة مصر من تجارة الرقيق في السودان. أما الفصل الثالث فقد تعرض فيه للدور الذي لعبه الزبير في فتح دارفور. كما تعرض لحملة الشرق بقيادة الحكمدار اسماعيل باشا أيوب، وموقعة منواش، ودخول العاصمة الفاشر. أما الفصل الرابع فهو بعنوان «الزبير - جوردون» فقد تحدث فيه عن الدور الذي لعبه الزبير في الحرب الروسية التركية، ورفض الزبير الاشتراك في حملة سواكن كما تعرض لحوادث إخلاء السودان، وانتهى بنفى الزبير إلى جبل طارق سنة ١٨٨٥.

وقد اختتم الباحث دراسته بفصل خامس تناول فيه الزبير باشا وصحته في نهاية حياته.

To: www.al-mostafa.com